AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
14 OCT 1972
Tel. 260458

892.78
Z39aAA
c.2

الامين والمامون

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الحادية عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

وتشتمل على ما قام بين الامين والمامون من الخلاف بعد وفاة والدهما
الرشيد وقيام الفرس لنصرة المامون حتى فتحوا بغداد
وقتلوا الامين واعادوا الخلافة الى ابن اختهم (المامون)
و يتخلل ذلك وصف دخائل السياسة بين
العرب والفرس وما يقتضي المقام ذكره من الاداب
الاجتماعية والعادات والاخلاق

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

سنة ١٩٠٧

المقدمة

بلغنا في الحلقة الماضية وهي العاشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام الى نكبة البرامكة وفيها قضى الرشيد على سطوة الفرس بقتل زعيمهم ووجيههم جعفر بن يحيى البرمكي وعاد العرب الى نفوذ الكلمة واضطر الفرس الى الرضوخ والتربص حتى تسنح لهم فرصة يثبون فيها على الدولة ويعودون الى القبض على ازمة امورها

وتوجهت انظارهم الى المأمون احد ابناء الرشيد لان امه فارسية وفيه ذكاء وفهم . وكان جعفر قبل نكبته قد رباه في حجره وغرس فيه حب الفرس والشيعة منذ نعومة اظفاره — عهد بذلك الى رجل من الفرس كبير المطامع اسمه الفضل بن سهل . فلما قتل جعفر اركن الفرس الى السكون حتى مات الرشيد وكان قد بايع بالخلافة بعده لولده الامين ثم المأمون فطمع الامين بنقل الخلافة بعده الى اولاده

فخلع اخاه فحرض الفرس ابن اختهم المأمون على المطالبة بالخلافة ووعده الفضل بن سهل ان يعيدها اليه على شرط ان يبايع بعده لعلي بن موسى الرضا زعيم الشيعة في ذلك العهد فقبل الشرط فنصروه واعادوا الخلافة اليه فلما قبض عليها وادرك قصدهم اخراج الخلافة من بني العباس ورأى اهله قد نقموا عليه هذا الفعل وهموا بخلعه فلم يرَ خيراً من ان يتخلص من الفضل وعلي الرضا فدس اليهما من قتلهما سراً فخلصت الخلافة له وتوارثها اهله بعده

فموضوع هذه الرواية (وهي الحلقة الحادية عشرة) بسط الخلاف الذي قام بين الاخوين بعد موت ابيهما الى مقتل الامين سنة ١٩٨ هـ وما تخلل ذلك من الدسائس والمساعي واختلاف الاحزاب مع بيان الاحوال السياسية والاداب الاجتماعية وطبقات الناس في ذلك العصر ونسبتها بعضها الى بعض وغير ذلك مما تلذ مطالعته وتجزل فائدته وبالله التوفيق

تاريخ الخلفاء الاسلامي

١ قصر الذهب او القبة الخضراء
٢ جامع المنصور
٣ ابنية الحكومة لمصالح الدولة
٤ المطبق
٥ باب البصرة
٦ باب خراسان
٧ باب الشام
٨ باب الكوفة
٩ جامع المسيب
١٠ ديوان الصدقة
١١ سجن باب الشام
١٢ الميدان وبجانبه الاصطبل
١٣ دار القرار
١٤ دار حميد بن عبد الحميد وباب الشعير
١٥ جامع معروف الكرخي
١٦ مشهد علي
١٧ القصر الجعفري ثم صار القصر المأموني
١٨ قصر التاج
١٩ قصر الفردوس
٢٠ دار عيسى
٢١ قصر ابن الخصيب
٢٢ قصر المعتصم
٢٣ دار الروم (البطركخانة)
٢٤ دار البرامكة
٢٥ باب الطاق
٢٦ قشر المهدي
٢٧ جامع الرصافة
٢٨ باب الشماسية وقصر موسى
٢٩ قصر الحريم الطاهري
٣٠ قصر زبيده
٣١ دار الرقيق
٣٢ قصر الخلد
٣٣ حدائق القصور او البساتين

الفصل الاول

خان سمعان

بنى المنصور مدينته المستديرة سنة ١٤٥ هـ جعلها معقلاً له ولجنده ورجال دولته و بنى في وسطها قصرًا له سماه قصر الذهب واقام بجانبه جامعًا عرف باسمه وشاد الابنية في ما بقي من المدينة لرجال خاصته ومصالح حكومته واحاط المدينة بسور مثلث الجدران فتح فيه اربعة ابواب سماها باسماء الجهات التي تؤدي اليها : فسمى الشرقي الشمالي باب خراسان والشمالي الغربي باب الشام والشرقي الجنوبي باب البصرة والغربي الجنوبي باب الكوفة واقطع رجاله ما يحيط بالمدينة من الارباض فابتنوا فيها القصور وعرفت تلك الارباض باسمائهم . ولم يمض زمن حتى تالف حول المدينة احياء عرفت باسماء خاصة بها اشهرها الحربية في الشمال والكرخ في الجنوب . وقامت الابنية في شرقي دجلة ونشأت هناك احياء الشماسية والرصافة والمخرّم وغيرها . و بنى خارج باب خراسان قصرًا كبيرًا عرف بقصر الخلد وجعل بينه و بين ذلك الباب ميدانًا كبيرًا ينشأ من بين يديه طريق متجه نحو الشمال الشرقي الى الجسر الاوسط القائم على دجلة ويمتد ذلك الطريق شمالاً ثم شرقًا حتى يمرّ بين الرصافة والمخرّم و يعرف بطريق خراسان و يتخلل تلك الاحياء كثير من القصور والحدائق والانهر (او الترع) المنشقة من دجلة الى كل الجهات

وكان في جملة هذه الانهر نهرٌ يسير من دجلة شرقًا حتى يخترق الرصافة والشماسية يعرف بنهر جعفر . وكان على جانبي هذا النهر او الترعة وراء الرصافة بساتين فيها الاغراس والاشجار وبعض الابنية في جملتها بستان واقع على طريق خراسان من جهة وعلى ذلك النهر من جهة اخرى اتخذهُ بعض الخمارين من انباط السواد خانًا ينزل فيهِ القادمون على بغداد من الغرباء . وجعل في البستان مما يلي الطريق بيتًا يبيع فيه الخمور والانبذة و يصنع فيه الاطعمة لمن شاء من الغرباء او البغداديين . ونظرًا لموقعه على قارعة الطريق و بعده عن العمارة كان يقصده الراغبون في ترويح النفس او طلاب المسكر من طبقات العامة لرخص الاثمان وقرب التناول . واذا اراد بعض الخاصة شرب الخمر سرًّا خوفًا من رقيب او فرارًا من العار رأى في ذلك البستان مستترًا

وكان صاحب الخمارة كهلاً في حدود الستين من عمره قد عركه الدهر ولانت نفسه

حتى كادت تسيل رقة وعاصر ثلاثة من خلفاء بني العباس المهدي والهادي والرشيد وشهد كثيراً من الاهوال آخرها نكبة البرامكة منذ ستة اعوام وظل ثلاثة منها يشاهد جثة جعفر منصوبة على جسر بغداد — والخمارون يتعودون دماثة الخلق بما يعرض لهم من مخالطة الناس في احوال سكرهم وعربدتهم فيضطرون لمسايرتهم ومجاراتهم على طباعهم فيهون عليهم احتمال الضيم والصبر على السب والشتم لمرضاة « زبائنهم » ولذلك كان الخمارون من ألين الناس عريكة واطولهم بالاً واكثرهم اطلاعاً على نقائص البشر واكتمهم لاسرارهم بما يظهر لهم من عيوبهم في اثناء سكرهم . ولهذا السبب كانت هذه الحرفة خاصة باهل الذمة ممن ضربت عليهم الذلة والمسكنة من اليهود او الانباط سكان البلاد الاصليين فضلاً عن امتناع هذه التجارة على المسلمين لتحريم الخمر عليهم

وكانت حانة ذلك النبطي عبارة عن غرفة من ذلك البيت في ارضها حصير عليه وسائد من الخيش محشوة بالقش وفي جدران الغرفة كوىً كالجيوب فيها ادنان الانبذة والخمور مما صنع من العنب او التمر او التفاح او غيرها من الاثمار وفوق الكوى رفوفٌ عليها زجاجات او اباريق واقداح من الزجاج او الخشب يكيل بها الخمر او النبيذ تسع الواحدة رطلاً او نصف رطل او ربعه . وقد علق بصدر الغرفة بربطاً وعوداً ودفاً ترغيباً للمترددين عليه في اسباب السرور . ويغلب ان يكون الخمار رخيم الصوت يحسن الضرب على بعض هذه الآلات او كلها . وكان بعض الخمارين في بغداد يجعلون في حانتهم قينة رخيمة الصوت حسنة الصنعة جميلة الطلعة يشرب الطلاب على صوتها ارطالاً

الفصل الثاني

العيار والجندي

ففي يوم من ايام سنة ١٩٣ هـ مضى على ذلك الخمار نهاره ولم يأته زبون لبعده عن مركز المدينة . وكان اكثر ارتزاقه على المارة وهو طبعاً يفضل الغرباء على اهل المدينة لما يرجوه من بيعهم بالاثمان الغالية لانهم يجهلون الاسعار ولان الغريب ابعد عن السوم من البلدي فلا يبالي ان يدفع ثمن الرطل من النبيذ خمسة دراهم على حين ان ذاك لا يدفع غير درهمين — فلما انقضى النهار ولم يأته احد اوقد في بعض جوانب البستان ناراً ليشوي عليها سمكة اعدها

لعشائه . وفيما هو ينفخ في الوقود والدخان يتصاعد على وجهه حتى يتخلل لحيته ويغشى عمته وقد استوفز وشمر قفطانه وشكه من اطرافه بزناره اذا هو يسمع جلبة وصوتاً من باب الخان يناديه « يا معلم سمعان » فخفق قلبه سروراً واسرع فرأى رجلاً من العيارين وهم كثيرون يومئذ في بغداد ومعظمهم من اهل البطالة الذين يعيشون بالدعارة والنهب ومعه رفيق . فلما رأى العيار تراجع واستعاذ بالله ولكنه تعود الكظم في مثل هذا الموقف وعلم انه لا مفرّ له من المسايرة او يصيبه شرٌّ فتجلد وتقدّم باسماً مرحباً

وكان العيار لابساً خوذة من الخوص وعلى صدره دراعة من الجلد المدبوغ عليها نقوش ملونة وهو عاري الذراعين وقد علق بكتفه الايمن بالخراف نحو خاصرته اليسرى مخلاة فيها حصى وعلى حقويه سراويل من الخيش الثخين تكسوه الى الركبتين والمقلاع معلق بكوعه وهو سلاح العيارين . وكان مكشوف الساقين حافي القدمين وبيده الواحدة عصا قصيرة غليظة وبالاخرى رغيف قد اكل بعضه وفي فمه لقمة يمضغها وهو يقول « اسقنا يا معلم . . »

فرحب به الخمار وعمد الى رطل صبّ فيه نبيذاً وناوله ونظر الى رفيقه فاذا هو بلباس الجند وهي الدراعة على ظهرها طراز الدولة « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » وعلى رأسه قلنسوة مستطيلة مدعمة بالعيدان وقد علق السيف بمنطقته فوق قباء اسود . فتوسم الخمار بذلك الجندي خيراً لعله ان الجنود قد يدفعون ثمن ما ياخذونه اذا قبضوا رواتبهم . فاذا هو يشير اليه ان يعطيه رطلاً . فبادر اليه وناوله ورحب به فشرب الجندي وهو واقف . ثم تجشأ وتمشى متبخترا . واما العيار فتناول القدح وادناه من فيه وهو يقول « بورك فيك يا معلم سمعان والله اني متى صرت عريفاً او مقدماً جعلتك عياراً عندي »

فقهقه الجندي وتقدم الى سمعان فوضع يده على كتفه وقال وفي لهجته عجمةٌ لانه فرغاني الاصل من ابناء الجنود الذين استقدمهم المنصور في ايامه « وانا اعاهدك متى حدث الانقلاب القريب وقبضنا الرواتب المعلومة اعطيك ثمن هذه الارطال وزيادة واظنني مديوناً لك بشيء من قبل . . . ولكن ما العمل لا بد من الصبر . . . »

فقطع العيار كلامه قائلاً « وانتم ايضاً تشكون القلة والفقر ولكم رواتب تقبضونها ؟ . »

قال « صدقت يا صاحب اننا نقبض رواتبنا ولكنها لا تفي بالمطلوب للمرأة والاولاد وهل يقوم بالجندي غير الغنائم في الحرب او ؟ . » وتوقف وهو يحاول التكلم همساً خوفاً ممن يسمعه فسبقه العيار وقال « او عند حصول التغيير والتبديل في قصر الخلافة فتقبضون

الرواتب واضعاف اضعافها غير حق البيعة .. ولكن طب نفساً فان ذلك قريب ... »

فوضع الجندي يده على فم صاحبه يريد اسكاته حذراً من الفضيحة . وكان سمعان يسمع جدالهما ولا يهمه مما يسمعه الاّ ما يتوسم من ورائه قبض دينه . فلما رآهما يحاذران الكلام وهما بالباب تقدم اليهما وقال « تفضلوا وادخلوا » واشار الى الحصير كانه يدعوهما للجلوس . فدخلا ومدّ العيار يده الى البربط المعلق على الحائط فتناوله ودفعه الى الخمار وقعد وهو يقول « بلغني انك تحسن الغناء والضرب على البربط لقرابة بينك وبين برصوما الزمار ... فاسمعنا »

فتناول سمعان البربط وهمّ باصلاحه وهو يتمتم « يا ليتني كنت من اقارب برصوما فانه من المقربين عند مولانا امير المؤمنين يقبض الجوائز والرواتب ... »

فقال الجندي « لو كنت تحسن النفخ بالمزمار لكنت اصبت مثل حظه او حظ ابراهيم الموصلي المغني او ... ولكن اشكر الله على حالك فان التقرب من ذلك القصر لا يخلو من الخطر على الحياة ومهما يكن من حسن حظك فهل يكون احسن من حظ البرامكة ؟ وانت تعلم مصيرهم ... »

فقطع العيار كلامه قائلاً « أراك يا صاحبي من الفلاسفة ورجال الزهد ... اما انا فادخلني قصر الخلد واجعلني مغني الخليفة او زامره او شاعره ولما يأتي الخطر يفرجها الله .. او اجعلني على الاقل جندياً مثلك .. لتناول الراتب وانت قاعد واذا ذهبت الى الحرب عدت بالغنائم والاسلاب ومعك السبايا من النساء الجميلات » وتضحك مبتسماً

فابتدره قائلاً وهو يهز رأسه « اذا عدتُ حيا .. »

فاتمّ العيار كلامه « لماذا لم تذهب في الحملة التي سار فيها امير المؤمنين الى سمرقند منذ بضعة اشهر لمحاربة رافع بن الليث . الا تتوقع منها فوزاً ؟ »

قال « لا يعلم المستقبل الاّ الله .. واما ذهابنا فلا يتعلق برأينا وانما هو يرجع الى ارادة قوادنا .. وزد على ذلك ان الرشيد خرج في هذه الحملة وهو مريض واناب ابنه محمداً الامين في بغداد والامين كما تعلم كريم الخلق جواداً لا يخشى بأسه مثل ابيه ... واظن هذا من حسن حظكم ايضاً لاني أرى كبيركم الحسن الهرش مقرباً من البلاط كانه صار من رجال الدولة »

فقال العيار « يظهر كذلك ... ولكن لا يتم حظنا الاّ ... (وتلفت يميناً وشمالاً وخفض صوته) الاّ متى صار الامين خليفة فربما حسدتني على العيارة كما احسدك الآن

على الجندية ... » ثم حوّل وجهه فجأة نحو البستان وصاح « اني اشم سمكاً يشوى »

وكان الخمار في اثناء هذا الحديث لا يزال مشتغلاً باصلاح البربط والليل قد سدل نقابه فظهرت النار الموقدة هناك والدخان يتصاعد عنها

فوضع الخمار البربط من يده وصاح « نسيت السمكة على النار » ولم يكن له بدٌ من انارة السراج .. فتقدم الى سراج من الخزف موضوع على مسرجة مسمرة بالحائط فاصلح فتيلتها بسبابته واخذ في انارتها فأتى بالقداحة والصوانة والعطبة او الصوفانة فوضع الصوفانة على طرف الصوانة وضرب عليها بالقداحة (الفولاذ) فخرجت شرارة اشعلت الصوفانة فأتى بعود رأسه مغموس في الكبريت وأدنى الرأس من الصوفانة فاشتعل الكبريت واشعل العود فقربهُ من الفتيلة فأوقدها فأضاء السراج . واغتنم العيار اشتغال الخمار بهذه العملية واسرع الى السمكة فتناولها عن النار بيده وهو لا يبالي بحرارتها وهرول الى الجندي فوضعها على رغيف بين يديه وصاح بالخمار « الميَّ بقدحين من النبيذ القطربلي »

فقال « ليس عندي من نبيذ قطربل ولكنني اسقيكما نبيذاً مصنوعاً من الذوشاب البستاني مع العسل » وجاءهما بخمر قوية وناولهما وهو يظهر الترحيب و يسايرهما و يستعيذ بالله منهما وهما يضحكان ولا يباليان وهو يشاركهما بالضحك

الفصل الثالث

الملفان سعدون والهرش

وبينما هم في ضحكهم وهرجهم سمعوا رجلاً ينادي « السمك الطري اربعة ارطال عند بيطار حيان » وهي مناداتهم على السمك في ذلك العهد . فوثب العيار وهو يقول « لقد سنحت لنا فرصة نكافئك فيها يا معلم سمعان » وتناول حصاة من المخلاة وضعها في المقلاع وخرج من باب الخمارة وقال « اسرع والتقط السمك عن الارض » فعلم سمعان ان العيار سيرمي ذلك المسكين بالمقلاع فاشفق عليه وامسك العيار بيده فاوقفهُ عن الرمي ونظر الى البائع في الطريق وهو لا يكاد يميزه من العتمة فاذا هو فقير عاري الساقين والذراعين لا يستره الا ثوب خلق وعلى رأسه فوق العمامة طبق من القش والسمك ظاهر فوقهُ . فانتزع العيار من يد الخمار وقال « دعني اعوض عليك السمكة سمكتين »

فقال « أخاف ان تقتل الرجل .. لا حاجة لي بالسمك »

ففحك العيار وقال « لا تخف اني ارمي السمك فقط ولا امس الرجل ولا طبقهُ وسترى » قال ذلك واطلق الحجر من المقلاع فلم تصب الاَّ اعلى السمك فسقط بعضهُ والرجل ماش لم يشعر . وكان للعيار ين مهارة عظيمة برمي الحجارة . وكان بيد السمَّاك رغيف فقال العيار للخمار « وارمي لك الرغيف من يده اذا شئت » فوقعت هذه الالفاظ في اذني الرجل فالتفت ولما رأى العيار ذُعر ورمى الرغيف الى الارض وصاح « هذا الرغيف خذه ودعني » وولى هاربًا . فاسرع العيار وعاد ومعه السمكتان والرغيف وهو يضحك فتناولها الخمار وهو يعجب من تلك الخفة ودخل ليشويهما وهو يتوسل الى الله في باطن سرّه ان ينقذهُ من تلك الورطة بالتي هي احسن

وكان الله استجاب طلبتهُ فانهُ ما عتم ان سمع وقع حوافر وصلصلة لجام انتهت عند باب بستانه وآنس سكوتًا بعد تلك الضوضاء وكأن الرفيقين اصيبا بالجمود . فالتفت نحو الباب وعيناه تدمعان من الدخان ويكاد الدخان يحجب بصره فرأى رجلاً طويل القامة مع انحناء قليل تدلُّ هيأته على السكينة والوقار وعلى رأسه عمامة سوداء اللون كبيرة الحجم وقد اكتسى جبة طويلة تحتها ثوب عسلي اللون حوله زنارٌ مشدود وهو لباس اهل الذمة في ذلك العصر وقد شك في الزنار دواة من الفضة . وكان وجهه صبوحًا مع رقة ونحافة حتى يكاد يلتصق الجلد بالعظم مع بروز الوجنتين . وعيناه سوداوان براقتان تدلان على الذكاء وانفهُ كبيرٌ منحنٍ قليلاً ولهُ لحية كثيفة مسترسلة قد دبَّ فيها الشيب تنصل من الجانبين بسالفين كثيثين . دخل الرجل وهو يتوكأ على عكازٍ بيمينهِ وقد تأبط بالذراع الأخرى شيئًا تحت الجبة

فلما رآه الخمار علم انهُ من وجهاء الصابئة او عالمًا من علمائهم فاستغرب مجيئه اليه لان الحانات لا نصيب لها من امثال هذه الطبقة من الناس فتنحى العيار والجندي وتقدم الخمار وانحنى كأنه يستفهم القادم عما يأمر بهِ

فقال الرجل بصوت خشن هادئ « اليس هذا خان المعلم سمعان ؟ »

ففرح الخمار باشتهار اسمهِ على السنة كرام القوم وقال « نعم ياسيدي .. »

قال « وهل في بستانك مكان للاستراحة »

قال « نعم يا مولاي .. تفضل »

فدخل الخمار مهرولاً نحو البستان ودخل الرجل في اثره وهو يقول له « اذا سألك

المقدم الهرش الليلة عن الملفان سعدون قل لهُ اني في انتظاره هنا » والملفان رتبة علمية عند السريان تقابل « دكتور او علاَّمة » اليوم

وكان العيار والجندي واقفين ينظران الى الرجل فتذكر العيار انهُ رآه قبل هذه المرة فلما سمعه يذكر الهرش مقدم العيارين اجفل وتذكر انهُ شاهده مع الهرش غير مرة فرأى حينئذٍ من الحكمة ان يخرج من ذلك المكان قبل مجيء مقدَّمهِ . فتحوَّل وخرج واما الجندي فاحب البقاء ليطلع على ما عساهُ ان يكون من هذا الاجتماع وهو يندر في مثل هذا المكان خارج المدينة فجلس على وسادة فوق الحصير بقرب الحائط وجعل سيفه في حجره والحائط بينه وبين البستان

اما الخمار فسرَّه قدوم ذلك الصابي وما يتوقعه من قدوم الهرش فربما تعشيا هناك او شربا فيقبض منهما ما يعوض خسارته في ذلك المساء . فاسرع بين يدي الرجل وكان هذا لطول قامته يخاف ان تعلق عمامته ببعض الاغصان فمشى مطاطئ الرأس حتى وصل الى مصطبة مطلة على نهر جعفر تظللها شجرة كبيرة وفوق المصطبة حصير عليه وسادتان فاجلسه الخمار هناك وهرول راجعاً حتى اتى بالسراج الذي كان في الحانة فوضعه على ارومة شجرة بجانب المصطبة كان قد قطعها منذ ايام . وسأل سعدون هل يحتاج الى شيء من طعام او شراب فقال « كلاَّ . » واتكأ على احدى الوسادتين ووضع العصا بجانبه واستخرج من كمّهِ جراباً صغيراً وضعهُ بين يديه . فتركه الخمار وعاد ومكث الرجل جالساً يتشاغل بتمشيط لحيتهِ بانامله ويستأنس بعنين ساقية تدور في بستان قريب

ولما رجع الخمار الى الحانة اتى بسراج آخر اضاءهُ فرأى الجندي وحده هناك فسأله عن رفيقه فقال « انه فرَّ خوفاً من اميره الهرش ... وما رأيك بهذا الصابي اظنهُ سيعوض عليك ما خسرتهُ علينا .. »

قال « ان شاء الله »

فقال الجندي « لا بد من سبب هام لالتقاء هذا والهرش هنا .. »

قال سمعان « اني ارجو ذلك وهؤلاء الصابئة اهل سحر ونجامة لا تخفى عليهم خافية ولعل الهرش بما اشتهر بهِ من كشف المخبآت انما يستعين على كشفها بسحر هذا الصابي »

فهز الجندي رأسهُ واوماً بعينيهِ ان « نعم » واصبح خائفاً من ان يطلع سعدون بسحره على اقوالهِ فيؤذيه فسكت . واشتغل الخمار عنهُ بالتقاط ما وقع في ارض الحانة من آثار الاكل والشرب استعداداً لمجيء الهرش

ثم مالبثا ان سمعا فرس الصابي يصهل صهيلاً قويًا وكان مربوطًا بجانب الطريق يحرسهُ غلام وأجابهُ صهيل مثله عن بعد فاستبشر الخمار ان اناسًا من اهل الوجاهة قادمين اليه ثم اقتربت الاصوات واتضح وقع الحوافر واذا بفارس وقف بالباب وبين يديه غلام بلباس العيارين الذي ذكرناه وهو ينادي « يامعلم سمعان ... »

فاسرع الخمار وقال « نعم » ونظر الى الفارس فرأى لباسهُ فاخرًا وعلى رأسه قلنسوة قصيرة حولها عمامة وسراويله قصيرة وقد تقلد السيف وحول ساقيه لفائف من الجلد (طماقات) الى الكعب فوق النعال فقال الغلام « هل جاءك الملفان سعدون ؟ »

قال « نعم هو في هذا البستان » وعلم للحال ان الفارس هو الهرش مقدم العيارين فتقدم وامسك بلجام الفرس والركاب حتى ترجل الهرش ومشى وكان قصير القامة ممتلئ الجسم ومع ما يظهر من كهولته لا يزال سريع الحركة قوي البدن اذا مشى تبختر تيهًا وخيلاء وكان غليظ الشفتين خفيف اللحية والشاربين اشيبها وعلى جبهتهِ ندبة غائرة من اثر جرح اصابه في صباه في بعض المعارك كاد يقضي عليه وهو يفاخر اقرانه بهذا الاثر. وكان كبير العينين لا يبرح الاحمرار ظاهرًا فيهما كأن صاحبهما ناهضٌ من رقاد عميق. واذا علمت ان الرجل امير العيارين هان عليك الحكم على اخلاقه والعيارون يرتزقون بالسرقة او التعدي ونحو ذلك والحكومة ساكتة عنهم لانها كثيرًا ما كانت تستعين بهم في بعض الاحوال واذا اعانوها واخلصوا لها نفعوها لانهم اقدر الناس على كشف اخبار الدعار وتتبع اللصوص. وكانت الحكومة يومئذ تستعين بهؤلاء وامثالهم حتى باللصوص انفسهم وكان عندها طائفة منهم تابوا عن اللصوصية ففرضت لهم الرواتب وسمتهم التوابين تزعم انها تستخدمهم في كشف السرقات[1] و يندر ان يخلصوا لها الخدمة والغالب ان يشتركوا مع اللصوص عليها — وتكثر امثال هذهِ المفاسد في الحكومات الاستبدادية اذا ضعف صاحبها وطمع رجالهُ بالاموال وفسدت النيات واصبح الناس عيونًا بعضهم على بعض

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٤٦ ج ٥

الفصل الرابع

الكيمياء

اما الهرش فدخل البستان ووقف غلامه بالفرس في منعطف من الطريق . واسرع الخمار في اثر الهرش حتى اوصله الى المصطبة فوقف لهُ الملفان ورحب بهِ والهرش يهش لهُ ويبش حتى جلس الى جانبه واشار الى الخمار انهما لا يحتاجان الى شيء . ففهم انهما يريدان الخلوة فرجع حالاً واشار على الجندي ان يتصرف لئلاً يكون وجوده باعثاً على شك فانصرف آسفاً

اما الهرش فنظر الى رفيقه وتبسم قائلاً « اظنني ابطأت عليك »

قال « لم يطل انتظاري الاَّ قليلاً »

قال « اني في شوق الى رؤيتك ولولا ذلك لم استطع المجيء اليك ولا سيما اليوم لغياب امير المؤمنين الرشيد عن بغداد »

فقال « اليس ابنه الامين مكانه فيها ؟ »

قال « بلى . ولكن هذا الغلام — وانت اعلم مني طبعاً — لا يستطيع ضبط الامور كما يضبطها ابوه فضلاً عن اشتغالهِ بالجواري والغلمان والكاس والطاس . . . فتراني لا اخرج من منزلي الاَّ قليلاً وترى رسول صاحب الشرطة ذاهباً جائياً يحمل اليَّ الاسئلة عن بعض الغوامض كأني الملفان سعدون الصابي الحراني اضرب المندل واستطلع الغيب بالنجوم . . » قال ذلك وضحك وهو انما اسرع الى ذكر اسم الرجل لينتقل الى الغرض الذي جاء من اجله . فادرك سعدون غرضه وتجاهل قائلاً « العفو ايها الامير ان ما يستطيعه مقدم العيارين يعجز عنهُ مثلي وانا اذا عرفت شيئاً فيدلني عليه الكتاب والحساب واما انت فتعرفه بفراستك وشجاعتك »

فاعجبه ذلك الاطراء فقال « هب اني اعرف كل شيء فيكفيني عجزي عن معرفة مقرّك لاني قلما ابحث عنك واجدك الاَّ اذا كنا على موعدٍ »

قال « ذلك لا يدلُّ على عجزك بل هو من سوء حظي لان اشتغالي بالكيمياء فضلاً عن المندل والنجامة يقضي عليَّ بالا تزواء معظم الايام ولذلك رأيتني تركت اهلي وهجرت حران لئلاَّ يشغلوني عن عملي . وقد طال بعدي عنهم حتى اصبحوا لا يعرفونني ولا يدرون

مقري ولوسالتهم عني لانكروا امري »

ففرح الهرش بتطرق الرجل الى ذكر الكيمياء ليسأله عما فعله بقطعة من النحاس دفعها اليه منذ ايام ليطبخها له ويحولها الى ذهب فقال له « اظنك طبعاً نسيت صديقك الهرش ولم ... »

فقطع معدون كلامه قائلاً « كلاَّ اني لا أنسى مولاي المقدم وابشره ان حظه في اسمى الطوالع لاني توفقت في طبخ نحاسه توفقاً غريباً يندر مثله .. »

فاستبشر الهرش بالغنى القريب لانه كان قد دفع اليه قطعة كبيرة من النحاس فاذا صارت ذهباً اعطاه غيرها حتى يصير غنياً فلم يتمالك عن القول « هل صحت الطبخة ؟ »

فتبسم معدون ومد يده الى ذلك الجراب وحلَّهُ واستخرج منهُ سبيكة من الذهب الابريز وهو يقول « نعم يا سيدي وهذه هي القطعة التي جربتها ومتى نضج الباقي دفعته اليك » ثم قال همساً وهو يناوله السبيكة « واظنني لا احتاج الى تنبيهك ان تكتم ذلك عن سائر الناس فاني لا احب ان .. وانت تعلم السبب »

فتناول الهرش السبيكة وادناها من لهيب السراج وتفرس فيها فاذا هي ذهب لا ريب فيه . على انه خاف ان يكون في الامر خداع لانه تعوَّد المخادعة والمداجاة وكانتا رائجتين في ذلك العصر لفساد النيات وتجسس الناس بعضهم على بعض . وهو اكثر اهل بغداد اطلاعاً على ذلك لان منصبه يسهل عليه كشف الاسرار فجعل يروز تلك السبيكة بيده ليتحقق وزنها . فلما رأى معدون شكه قال بهدو ورزانة وفي صوته لهجة العتاب « لا تشك ياسيدي ... فاذا بعتها في سوق الصياغ غداً تعلم صدق قولي ... ولا أُلومك على الشك لان الناس لم يتعوَّدوا الصدق ولا تحققوا نجاح الكيمياء الاَّ قليلاً و يغلب في من يصح طبخه ان يستأثر بالذهب لنفسه ... »

فخجل الهرش لهذا التوبيخ اللطيف وزاد احتراماً للملفان سعدون وثقة بهِ واسرع للاعتذار فانكر ارتيابه وقال « حاشا لي ان ارتاب بصدقك واست حديث العهد بمعرفتك فكم كشفت لي من المخبئات واطلعتني عليه من الاسرار حتى صرت اعدك اخي بل اعز من اخي »

فقال « كيف تكون مسلماً ويكون اخوك صابياً ؟ هل ترضى ذلك لنفسك ؟ . »

وضحك وهو يلفتُ درجاً كان بقلبهِ في اثناء الحديث وجعله في الجراب الذي استخرج السبيكة منه

اما الهرش فادرك انه يمازحه فقال « اذا كان الصابئة كلهم مثل الملفان سعدون فانهم اخوتي جميعاً واكرم بها من طائفة عندها علم النجوم .. و ... » ثم سكت وهو يصغي كأنه يسمع صوتاً ثم قال « كأنني اسمع قرقعة لجم البريد »

وكان الصابي قد ربط الجراب فوضعه تحت ابطه وتحفز للنهوض وهو يقول « انه بريد خراسان ومعه خبر هام ... الا تراني اتهيأ للنهوض من قبل ؟ .. »

فازداد الهرش اعجاباً بمقدرة سعدون وهمه قوله ان البريد قادم من خراسان بخبر هام فنهض وهو يصلح قلنسوته ويحمل سيفه بمنطقته ويقول « صدق من قال — ان لقرقعة لجم البريد رهبة — دعني اذهب لملاقاة صاحب البريد لعلي استطلع منه خبراً ... اني اسمع قرقعة اللجام تقترب من هذا المكان »

ومشى مسرعاً وسعدون يمشي في اثره على مهل وقبل ان يصل الهرش الى باب الخان رأى بغل البريد وقف بالباب وراكبه ملثم وقد شدّ وسطه بهميان عريض والبغل يلهث من التعب وقد تصبب العرق عن صدره وارغى بعضه تحت اللجام وصاح الفارس بالخمار « اسقني يا سمعان »

الفصل الخامس

الخبر الهام

فاسرع الرجل الى كوبة ملأها ماء ودفعها اليه وكان الهرش قد وصل فلما وقعت عينا حامل البريد عليه ترجل قبل ان يشرب وهم بتقبيل يده فاومأ اليه ان يشرب ففعل ودفع الكوبة الى الخمار واقترب من الهرش فامرّ اليه كلمة وجعلا يتهامسان وسعدون واقف على عتبة الحانة مما يلي البستان لا يسمع شيئاً ولكنه لحظ من بغتة الهرش عند سماع كلام الرجل ان الخبر الذي يحمله من خراسان عظيم الاهمية ولم يطل تهامسهما فاعتذر البريدي وركب البغل واطلق له العنان . فتحقق سعدون من هذه السرعة عظم اهمية الخبر والا لتمنى حامله ان يقف هنيهة مع مقدم العيارين . فدخل سعدون الحانة فرأى الهرش مقبلاً عليه والبغتة ظاهرة في وجهه يمازجها ارتياح . وآنس مع انقباض اسرته ابتسامة حول فمه فادرك

بفراسته ان الخبر يتعلق بالرشيد لانه في خراسان وقد ذهب اليها مريضاً وكان قد علم من اخبار خصوصية ان المرض اشتد عليه ولا يرجى شفاؤه . ولذلك لما سمع قرقعة لجم البريد قال انه من خراسان يحمل خبراً مهماً فترجح عنده ان البريد انما يحمل موت الرشيد فلما رأى الهرش قادماً اليه تبسم وهز رأسه وقال « ولكل اجل كتاب .. »

فبغت الهرش لقوله وعده نبوة وامسك بيده وتنحيا على انفراد وخاطبه همساً : هل علمت بموته ... وكيف عرفت ذلك .. »

قال « رحم الله الرشيد انه مات غريباً وقد كنت اتوقع موته منذ خرج في هذه الحملة عرفت ذلك من طالعه ... واراك سررت بموته .. ويحق لك السرور كما يحق لسائر الامراء والاجناد لانكم ستقبضون رواتب جديدة — وخصوصاً انت فانك اوفر حظاً من سائر الامراء في هذا الشأن لان الامين اذا تولى الخلافة زاد في تقريبك ... » وتنحنح وتظاهر ان السعال شغله عن اتمام كلامه

فتناول الهرش الحديث عنه وقال « ولكن حامل البريد مع ثقته بي ورغبته في ارضائي كتم عني خبراً آخر قال انه في غاية الاهمية واعتذر انه لا يقدر ان يقوله لي الآن وانني ساعرفه قريباً ... »

فقطع سعدون كلامه وقال « لا شك انك ستعرفه لانه سينشر على رؤوس الملأ ولو كان كتاب المندل معي لاستطلعته في هذه الدقيقة ولكن .. » وتحفز للخروج كانه يستعجل في الذهاب لعمل المندل ونادى غلامه ان يأتيه بالفرس فاستوقفه الهرش قائلا « أراك مسرعاً وانا في حاجة اليك .. »

قال « اني رهين ما تريد ولكنني احب الاطلاع على بقية الخبر .. »

فقال « حسناً ولكننا تواعدنا على الاجتماع هنا لنتكلم فلم يطل مقامنا وزد على ذلك ان اخانا علي بن عيسى بن ماهان صاحب الشرطة يحب ان يراك لانني كثيراً ما ذكرتك بين يديه واحكيت له عن معجزاتك ... »

فقطع كلامه قائلاً « اخاف انك ذكرت له الكيمياء .. »

فضحك الهرش وهو يتشاغل برفع حمائل سيفه وقال الكيمياء ؟ .. كلاً ولكنني قصصت ما انت عليه من المهارة في النجامة والمندل فرأيت فيه ميلاً لرؤيتك واوصاني ان آتيه بك واظنه يفيدك لانه صاحب شرطة بغداد وله شان كبير ولا سيما بعد هذا الخبر فان مولانا الامين يعوّل عليه ويحبه .. وهذه فرصة لي ايضاً لا كافئك على

حسن صنيعك .. »

فاطرق سعدون هنيهة وهو ينتف عثنونه وينكت الارض بعكازه ثم قال « دعني اذهب واعود اليك بالخبر الليلة اذا شئت . »

قال « اذا كنت تقدر على الرجوع الليلة فلا بأس من ذهابك ولو جئت في منتصف الليل فانك تجدني في قاعة العيارين بالحريبة وانت تعرفها . ومتى جئتني اسير معك الى منزل صاحب الشرطة وسيكون ساهراً ... ولا اظنهم ينامون الليلة اذا بلغهم ما بلغنا من امر الرشيد لان موته سيحدث تغييراً مهماً ارجو ان يكون لي منهُ نفع .. ولك ايضاً .. »

قال ذلك وضحك ومد يده الى يد سعدون كانه يحييه ثم نادى غلامه فجاء وهو يحمل صندوقاً صغيراً وعصا وملاءة مما قد يحتاج اليه الهرش في اثناء الطريق فاشار اليه ان يدفع للخمار فدفع اليه صرة صغيرة فيها دراهم فاثنى الخمار وهرول واكبَّ على يد الهرش ليقبلها فمنعه فالتفت سعدون اليه وقال « هل جاء الامير الهرش اليك الليلة ؟ »

فادرك الخمار انهُ يعرض برغبته في كتمان ذلك فاجابه « كلاَّ يا مولاي ولا الملفان سعدون . كن مطمئناً »

فالتفت الهرش الى سعدون وهو يضحك فقال سعدون « اركب انت امامي ثم اركب انا حتى لا نترك اثراً لاجتماعنا »

فقال الهرش « اراك تبالغ في الكتمان ياصديقي وليس في ما فعلناه ما يوجب هذا التستر ... ولا كان ثمت باعث لخروجنا الى طرف المدينة لهذا الاجتماع ... »

فقال وهو يخفض صوته « يهمني التكتم بامر الكيمياء فقط .. واني ارى للجدران آذاناً وللشوارع ألسنةً فاعذرني .. »

فقال « حسناً » وركب الهرش ومشى الغلام بركابه في شارع خراسان غرباً نحو الجسر ومنه غرباً جنوبياً الى الحريبة

فلما تحقق سعدون ذهابه ركب وادار شكيمة جواده جنوباً شرقياً نحو المخرَّم يلتمس القصر المأموني

الفصل السادس

القصر المأموني

كان هـذا القصر على عهد قصتنا هذه في جنوبي القسم الشرقي من بغداد فوق قصر الامين وكلاهما ظاهر في الخارطة . وكان يسمى قبلاً القصر الجعفري نسبة الى جعفر البرمكي وزير الرشيد . والسبب في بنائه ان جعفر كان شديد الشغف بالشرب والغناء كما يتضح من مطالعة رواية « العباسة اخت الرشيد او نكبة البرامكة » وكان ابوه يحيى رجلاً جليلاً ذا رأي وعقل وكان يخاف على ابنه عاقبة هذا التهتك فنهاه فلم ينتهِ فاوصاه ان يتستر عملاً بالحديث المأثور فابى . فلما اعيته الحيلة في ردّه قال لهُ ان كنت لا تستطيع الاستتار فاتخذ لنفسك قصراً بالجانب الشرقي من بغداد (وكان لا يزال ذلك الجانب قليل العمارة) واجمع فيهِ ندماءك وقيانك وقضِ فيهِ معهم زمانك وابعد عن عين من يكره ذلك منك »

فقبل جعفر هذه النصيحة وامر ببناء قصره بالجانب الشرقي كما تقدم وبذل في بنائه مالاً كثيراً . فلما تمّ بناؤهُ سار اليهِ في جماعة من اصحابه فيهم صديقٌ نخاص لهُ اسمهُ مؤنس بن عمران وكان عاقلاً فطافوا القصر كلهم واستحسنوه ولم يبقَ منهم احد لم يقرظهُ ويمدحهُ بما يبلغ اليهِ امكانه الاّ مؤنساً فانهُ ظلّ ساكتاً فقال لهُ جعفر « مالك ساكتاً لا تتكلم وتدخل معنا في حديثنا ؟ »

فقال « حسبي ما قالوا »

فادرك جعفر ان تحت قوله شيئاً يكتمهُ فقال « لقد اقسمتُ لتقولنّ شيئاً »

فقال « اما اذا ابيت الاّ ان اقول فلك عليّ ذلك »

قال « نعم واختصر »

فقال اسألك بالله ان مررتَ الساعة بدار بعض اصحابك ورأيتها خيراً من دارك هذه ما كنت صانعاً ؟ » يشير الى ما كان في نفس الرشيد على جعفر من إكبار ما بلغ اليهِ من الثروة والنفوذ دونه

ففهم جعفر مراده فقال « حسبك قد فهمت فما الرأي ؟ »

قال « الرأي اذا صرت الى امير المؤمنين وسألك عن تأخرك فقل انك كنت في القصر الذي بنيته لمولانا المأمون واجعل انك بنيتهُ لهُ »

فاعجبه رأيه واقام في القصر بقية ذلك اليوم ثم ذهب الى قصر الخلد ودخل على الرشيد وكان الجواسيس قد نقلوا اليه خبر بناء ذلك القصر ولم يكن في قصور الخلفاء مثله فقال لهُ « من اين اقبلت وما الذي اخرك الى الآن ؟ »

قال « كنت في القصر الذي بنيته لمولاي المامون بالجانب الشرقي على دجلة »

فقال الرشيد « وللمامون بنيتهُ ؟ »

قال « نعم يا امير المؤمنين لانهُ في ليلة ولادته جُعل في حجري قبل ان يجعل في حجرك واستخدمني ابي لهُ فدعاني ذلك الى ان اتخذت لهُ بالجانب الشرقي قصراً لما بلغني من صحة هوائه ليصح مزاجه ويقوى ذهنه ويصفو . وقد كتبت الى النواحي باتخاذ الفرش لهذا الموضع وبقي شيء لم يتهيأ اتخاذه فعوّلنا به على خزائن مولانا امير المؤمنين اما عاريةً أو هبةً »

فلما سمع الرشيد قولهُ سرّي عنهُ واسفر وجهه ووقع منه بموقع القبول وقال مسرعاً « بل هبةً . . ابى الله ان يقال عنك الاَّ ما هو لك او يطعن عليك الاَّ ليرفعك ووالله لا يسكنه احد سواك ولا اتمم ما يعوزه من الفرش الاَّ من خزائننا » وزال من نفس الرشيد ما كان يخامره وظفر جعفر بالقصر على اهون سبيل ولم يزل يتردد اليهِ ايام فرحه واقبال سعده وسمي القصر الجعفري

فلما اوقع الرشيد بالبرامكة سنة ١٨٧ هـ واستباح قصورهم واموالهم انتقل هذا القصر الى المأمون بن الرشيد وهو ولي عهد المسلمين بعد الامين فاحبَّه المامون وهو يومئذ في اوائل الشباب وصار احب المواضع اليهِ واشهاها لديه واخذ في توسيعه من جهة البرية فاضاف اليهِ قطعة من الارض عملها ميداناً لركض الخيل والحلبة في ايام السباق واللعب بالكرة والصولجان وبنى في بعض جوانب القصر حيزاً حبس فيه اصناف الوحش من السباع وغيرها وفتح لهُ باباً شرقياً يشرف على البرية واجرى فيه نهراً ساقه من نهر المعلّى وابتنى مثله وقريباً منه منازل برسم خاصته واصحابه وسمي القصر من ذلك الحين « القصر المامونى » وعرفت تلك الجهة بجهة المامونية وصار فيها بعد ذلك شارع اشتهر بهذا الاسم في بغداد ولهذا القصر تاريخ طويل [1]

(١) معجم ياقوت ٨٠٦ ج ١

الفصل السابع

الفضل بن سهل

وكان المامون وهو ببغداد في اثناء ولاية العهد الى سنة ١٩٢ هـ قد اسكن فيه الفضل والحسن ابني سهل ولهذين الرجلين شان في تاريخه . فلما عزم الرشيد على خراسان لمحاربة رافع بن الليث في ما وراء النهر وكان قد ثار على الدولة وعجز العمال والقواد عن اذلاله حمل الرشيد عليه بنفسه واستخلف على بغداد ابنه الامين والياً عليها وامر ابنه المامون ان يبقى ايضاً فيها وكان قد اوصى له بخراسان يتولاها بعد موته ريثما تفضي الخلافة اليه اذا مات الامين

والفضل بن سهل فارسي من سرخس ذو مطامع في السلطة وفي نفسه نقمة على الرشيد لانهُ قتل جعفر البرمكي غدراً كما نقم عليه سائر رجال الفرس وتعاقدوا سرًّا على الاخذ بالثار فتوجهت آمالهم الى المامون لان امه فارسية وقد شب في حجر جعفر البرمكي على الميل الى الشيعة العلوية وهي جامعة الفرس . وكان يحيى والد جعفر قد اختار الفضل بن سهل لخدمة المامون وكان الفضل مجوسياً فاسلم على يده طمعاً بنصرة الفرس وكان المامون يجله ويقدمه

فلما سافر الرشيد في تلك السنة وطلب الى المامون البقاء في بغداد خاف الفضل ان يموت الرشيد في الطريق فيذهب سعيه هدراً فجاء الى المامون وقال لهُ « لست تدري ما يحدث بالرشيد وخراسان ولايتك ومحمد الامين المقدم عليك وانَّ احسن ما يصنعهُ بك ان يخلعك وهو ابن زبيدة واخواله بنو هاشم وزبيدة واموالها كما تعلم فاطلب الى امير المؤمنين ان تسير معهُ » فطلب المامون ذلك من ابيه فامتنع اولاً ثم اجاب وذهب معهُ الفضل واخوه الحسن

وخلف المأمون بعض اهله في ذلك القصر ومعهم الخدم والعبيد وعليهم قيمٌ يتولى ادارة شؤون بيت المامون واموالهِ وضياعه

وكان القصر المأموني نفسه على شاطئ دجلة الشرقي واجهته تشرف على النهر ولها شرفات ورواشن وفي قاعات القصر انواع الفرش المذهبة والنمارق المقصبة المحمولة من الانحاء البعيدة

(١) ياقوت ٨٠٦ ج ١٠

وقد زخرفت ابوابه بالستور وملئت خزائنه بانواع الطرف مع ما تحتاج اليه القصور من الجواري والخدم الخصيان وهم يعدّون يومئذ من ادوات المنزل التي لا بدّ منها

وكان للقصر مما يلي دجلة مسنّاة من رخام ترسو عندها السفن يصعدون اليها من الماء بدرجات من الرخام عريضة يحدّها من الجانبين جداران من اساطين غليظة (درابزون) يظهر مما عليها من النقوش الفارسية انها كانت لبعض الابنية الكسروية وحملت الى هناك . والمسناة عريضة تمتدّ من حافة الشاطيء الى سور القصر عند بابه الغربي وبين يدي الباب ردهة فسيحة ربما فرشوها بالطنافس ونصبوا في جوانبها المقاعد لجلوس الناس اذا ارادوا مشاهدة مجرى دجلة وفيه السفن تمرّ صاعدة او نازلة

وكان المامون لما سافر مع ابيه في ذلك العام قد خلف في القصر ابنتهُ زينب وتكنى ام حبيبة وهي يومئذ في ابان الصبا لم تدرك الثانية عشرة من العمر وكانت مثل ابيها ذكاء ونباهة واستقلالاً بالفكر ومثل جدّها الرشيد انفةً وتعصباً لبني هاشم . وكانت مع صغر سنها قوية الارادة مستبدة في رأيها وكان ابوها يعرف فيها ذلك وهو لا يريد تلك العصبية لرغبته في اصطناع الفرس . فعهد بتربيتها الى الجارية التي ربتهُ هو واصلها من جواري البرامكة في ابان مجدهم واسمها دنانير . وذلك ان المامون لما جُعل في حجر جعفر كما علمت عهد بهِ في طفوليته الى تلك الجارية واوحى اليها رغبته في تربيته على حب الفرس فنشأ المامون على ذراعيها وشب وهو يحترمها ويراعي جانبها ولما ترعرع اخذها اليه وجعلها في جملة جواريه . فلما ولدت ابنته زينب عهد بها الى دنانير واوصاها ان تربيها على حرية الفكر وحب الفرس فبذلت جهدها في ذلك . ولكن الرشيد كان مولعاً بحفيدته هذه وهو سماها زينب وكناها ام حبيبة وكثيراً ما كان يستقدمها اليه في ساعات الفراغ ويلاعبها ويهديها العقود والاساور فكانت تشهد مجالسه الخصوصية مع امرأته زبيدة وهي كثيرة المفاخرة بنسبها الهاشمي فكانت زينب تسمع ما يدور بينهما من اعظام امر بني هاشم فينغرس ذلك في خاطرها عفواً . فنشأت شديدة العصبية لهم رغم ما كانت دنانير تحاوله من نزع تلك العصبية . على ان زينب كانت تحب مربيتها وتحترمها وترتاح الى حديثها ولم تكن تكتمها امراً يخالج ضميرها

الفصل الثامن

ام حبيبة ودنانير

وكانت الفتاة سريعة النمو جسماً وعقلاً يحسبها الناظر اليها تناهز السادسة عشرة وهي لم تدرك الثانية عشرة . وكانت صبيحة الوجه سوداء العينين برّاقتها صغيرة الانف غائرة الشفتين بارزة الذقن بدلُّ مبسمها على الثبات ورباطة الجاش وقوة العزيمة وعيناها تدلان على الذكاء وسرعة الخاطر . وكانت دنانير قد ربتها على سذاجة المعيشة ونزهتها عما كانت الرغبة منصرفة اليه يومئذ من التبرج والبذخ فكانت تقضي النهار ليس عليها من الثياب الاّ رداء سادج وقد ضفرت شعرها ضفيرة واحدة ترسلها على ظهرها

اما دنانير فقد نشأت في منزل يحيى بن خالد البرمكي وكانت صفراء صادقة الملاحة اصلها لرجل من اهل البصرة خرّجها وأدّبها ورواها الشعر ثم اتصلت بيحيى البرمكي وهي فتاة فربيت في منزله — وهي غير دنانير المغنية التي اشتهرت بالغناء وحفظ الشعر. اما هذه فكانت ميالة الى المسائل العقلية وكان مجلس يحيى لا يخلو من بحث او مناظرة في علم او ادب — وكذلك كان سائر البرامكة فانهم اول من نشط العلم في العصر العباسي . ولما همّ يحيى بترجمة المجسطي الى العربية استقدم المترجمين اليه وكانت دنانير تسترق الاجتماع بهم وكثيراً ما كانوا يرونها مصغية لتسمع ما يتذاكرون فيه من المسائل الفلكية واحكام النجوم في اثناء الترجمة ورفيقاتها الجواري يضحكن منها ويعيرنها برغبتها في علوم يعدونها من قبيل الرموز الغامضة التي لا يقدم على حلها الاّ قهارمة العلم من اهل الذمة . وكانت المسائل الفلسفية حديثة العهد يومئذ في العربية اذ لم يكن ترجم منها غير علم النجوم وبعض كتب الطب في زمن المنصور والمهدي والرشيد . على انها كانت تستفيد تلك المسائل مما يدور بين جلساء يحيى قبل نقلها الى العربية واشتهرت بين جواري البرامكة بحب العلم والتعقل . ولذلك فلما صار المامون في حجر جعفر وعهد بتربيته اليها كانت وهي تلاعبه في الحديقة تحمل معها قرطاساً او ورقاً عليه رسوم فلكية او مسائل طبية تراجعها واول ما فتح عينيه وصار في سن الاستغراب والاستفهام لم يكن يسألها عن شيء الا فسرته له بتعقل . ثم اخذت في تلقينه المسائل على قدر ما يحتمله سنه — لم تكن تفعل ذلك رغبة في تعليمه بل تلذذاً بالعلم فان محب العلم يلتذ بالقاء الحقائق كما يلتذ بتلقيها

فلم يترعرع المامون ويأن تسليمه الى المعلمين حتى تولد فيه الميل الى البحث عن الاسباب والتماس البرهان عن كل شيء . فجرّه ذلك الى الاعتزال والتشيع مع الرغبة في العلم والفلسفة حتى كان ما كان من نقله كتب الاقدمين على ما هو مشهور

ونشأ المامون على احترام دنانير احترام الولد لوالدته . وكثيرًا ما كان يجالسها في ساعات الفراغ ويباحثها في بعض المسائل ويسرّ من تعقلها . فلما ولدت ابنتهُ زينب سلمها اليها وهو على ثقة انها تربيها كما يحب وكانت زينب كثيرة الشبه بوالدها من حيث الرغبة في البحث واستطلاع الاسباب فلم تكن دنانير تذخر وسعًا في ترقية مداركها فشبت وقد ماتت والدتها فكانت تسمي مربيتها « ماما » فلا تناديها الاَّ بهذا الاسم . وربما احبتها اكثر من حبها والدها لاشتغال المامون عنها باموره . على ان الآباء يومئذ قلما كانوا يعاشرون ابناءهم وانما يعهدون بتربيتهم الى الجواري

فتربت زينب تربية فلسفية فنشأت لا تبالي الا بحقائق الامور وطرحت ما كان يتسابق اليه اترابها من اللعب والقصف وبلاط الخلفاء مرسح واسع لاسباب اللهو يومئذ حتى في القصر المامونيّ نفسه . فقد كان فيه كثير من وسائل اللعب تتمتع بها الجواري والخدم وزينب لا تميل الى ذلك ولا تخالط من الخدم غير مربيتها فكانت الزم لها من ظلها تصاحبها حيثما توجهت فتخرج معها الى الحديقة لقطف الازهار وتعرج الى بيوت السباع لتشاهدها في اقفاصها والسباعون يقدمون لها الطعام من قطع اللحم الكبيرة . واذا اعوزها اللهو تشاغلت بالشطرنج وكانت هذه اللعبة حديثة العهد في بلاط الخلفاء لان الرشيد اول من لعبها منهم وكانت دنانير تجيد اللعب بها وربما شغلت بها زينب احيانًا . او تخرجان معًا نحو الباب الغربي عند المسنَّاة فتجلسان في روشن او شرفة تتفرجان من بين السطور بمشاهدة السفن المسارة في دجلة وكثيرًا ما يكون الجلوس هناك مطربًا لكثرة من يمرّ من اهل القصف والطرب ومعهم المغنون والعوادون

الفصل التاسع

الطبيب الخراساني

فاتفق في اليوم الذي بدأنا بهِ روايتنا ان زينب كانت جالسة مع مربيتها في شرفة فوق المسنَّاة تطلُّ على دجلة وعليها ردا وردي اللون وفي عنقها عقد من اللؤلؤ اهداه اليها جدُّها

الرشيد قبل سفره وداريبنهما الحديث في مسألة تتعلق بالطوالع والابراج واشكل فهمها حتى على دنانير فقالت « ان هذه المسألة من المسائل العويصة فمتى جاء طبيبنا سألناه عنها . . »

قالت « وهل يفهم الاطباء بالنجوم . . »

قالت « يغلب في الطبيب ان يعرف كل علم ولا سيما اطباء الفرس وخصوصاً طبيبنا فانه من نوابغ الفلاسفة وقهارمة الاطباء . . . وو »

فضحكت زينب ملء فيها ضحكة فتاة لا تعرف من الدنيا غير اسباب المسرّات وقالت والاستغراب بادٍ في عينيها « فاذاً هو اعلم منك . . » قالت ذلك لاعتقادها ان مربيتها اعلم اهل الارض — شأن الناس في من يشبون في حجره اويتلقون العلم عنه فالاولاد يعتقدون الكمال في والديهم او مربيهم ويتوهمون ان معلميهم من كبار الفلاسفة ولو كانوا اجهل من قاضي جبّل . فيرون عنهم ويستشهدون باقوالهم ويعظمون من امرهم فاذا كان المعلم صغير العقل صدّق تلميذه واعتقد في نفسه الفضل على العلماء والحكماء وقد يكون علمه محصوراً في مبادىء الصرف والنحو فيتوهم انه لا يشق له غبار فيزداد غروراً

اما دنانير فكانت تعلم حقيقة منزلتها فلما سمعت زينب تطري علمها ابتسمت وقالت « ويلاه يا سيدتي اني لا اعرف شيئاً وانما التقطت بعض المسائل من افواه العلماء . واما هذا الطبيب فقد تفقه في الطب والفلسفة بمدرسة جندي سابور المشهورة التي تخرج فيها ابن بختيشوع طبيب امير المؤمنين . ولكنه اعلم منه بامور كثيرة ولا سيما بالكيمياء والنجامة ولولا ذلك لم يهتم الفضل بن سهل بامره حتى يوصي مولاي المأمون به . . »

فقطعت زينب كلامها وقالت « الفضل بن سهل اوصى به ؟ ومتى كان ذلك ؟ اليس الفضل مع والدي الآن في خراسان »

قالت « نعم هما معاً هناك واما هذا الطبيب فانه جاءنا منذ بضع سنين بتوصية من الفضل بن سهل ذكر فيها انه نابغة خراسان في الطب والعلم حتى انك لترين ذلك ظاهراً في وجهه . . »

فقالت « فلماذا لا يقيم عندنا دائماً ؟ هل منعه والدي من ذلك . . »

قالت « كلا ولكنه اعتذر لمولاي المأمون من يوم مجيئه انه لا يستطيع الاقامة عندنا لاسباب له خصوصية فاطاعه . . . »

فقالت « واين يقيم اذاً ... »

قالت « بلغني انه يقيم في المدائن كانه استأنس بجوار ايوان كسرى اعظم ملوك الفرس واعدلهم . وطبيبنا فارسيٌّ ... »

قالت « عرفت انه فارسيٌّ من كلامه فانه حتى الآن لا يحسن النطق بالعربية .. ولو اقام هنا لتعود النطق لمخالطة البغداديين »

قالت « والمدائن قريبة منا فهي على بضع ساعات من هنا جنوباً »

قالت « قد كان ينبغي له ان يسكن هنا بعد ذهاب والدي وانتقالنا الى هذا القصر البعيد عن المدينة لتقوى به لانه من الجبابرة كما يظهر من كبر هامته . ومع كثرة تردده علينا لا ازال الى اليوم لما يقبض على يدي ليجس نبضي اتهيب منه .. »

قالت « صدقت انه طويل القامة ولباسه المستطيل يزيده طولاً . ولكنه لطيف اللسان حسن الاسلوب قريب من القلب . لولا تغيبه عنّا احياناً بضعة ايام متوالية ربما احتجنا اليه في اثنائها ولا نجده والاطباء كثيرون عندنا لكنني شديدة الثقة بعلمه .. »

فقطعت زينب كلامها ووضعت يدها على كتفها وقالت بلحن الدلال والدالة « قولي له ياماما ان يسكن في احد هذه القصور هنا .. »

قالت « متى جاء التمس منه ذلك ولعله يجيب طلبي ... اني أرى سفينة صاعدة من الجنوب عساه يكون فيها .. »

وكانت زينب في اثناء الحديث تنظر الى مجرى دجلة وعيناها تتأملان ما على الشاطيء الآخر من النخيل الناثم كالاصنام الهائلة يتراءى من خلالها في عرض الافق برٌّ فسيح تغشاه الاشجار والاعشاب تتخللها ابنية متفرقة كانها أحجار كريمة نثرت على ديباجة خضراء . وكانت الشمس قد مالت نحو الاصيل فوقعت اظلال النخيل على الماء واستطالت وتراءت في قاع النهر معكوسة كانها نبتت مقلوبة جذورها عند الشاطيء وسعفها غائصة في الماء وجذوعها بين ذلك تتموج بتموج سطح النهر وتظهر متعرجة كانها مؤلفة من قطع مرصوصة بعضها فوق بعض على غير انتظام وتوهمك اذا رأيت تموجها ان الحياة قد دبت فيها فتلوت كالافاعي تحاول الافلات ممن قبض على اذنابها فيخيل لك انها على وشك ان تملص جذورها من الشاطئ لتنساب في الماء

كانت زينب تتشاغل بهذا المنظر في اثناء الحديث فلما استلفتت دنانير انتباهها الى سفينة ظنت الطبيب راكباً فيها التفتت وقالت « وهل يأتينا الطبيب بالماء .. ام في البر

فاني اعهده يجيئنا على فرس ..»

قالت «من هنا الى المدائن طريقان احداهما في البر والاخرى في الماء ..»

الفصل العاشر

العجوز والفتاة

وكانتا تتكلمان وهما تنظران الى السفينة من خلال الستر فلم تعرفا من فيها . ثم توارت في اثناء جريها ببعض تعرجات النهر فاشتغلتا عنها قليلاً . ثم ملت زينت الجلوس هناك وهمت بالنهوض فاذا هي تسمع فقش الماء على مقربة من القصر يتخلله نقر الهواء على الشراع فالتفتت فرأت قارباً صاعداً بجانب المسناة وفيه نوتيان قد اخذا في حل الشراع وفي صدر القارب امرأتان التفّت احداهما برداء قديم قدغير الزمان لونهُ وسترت رأسها بخمار وظهر محياها وعليه ملامح الشيخوخة . والثانية عليها ثوب اسود فوقه خمار اسود وقد تلثمت به حتى لا يظهر من وجهها غير العينين . وبعد هنيهة شد النوتيان القارب بحلقة من حلقات المسناة والقياخشبة بينها وبين القارب ونهضت المرأتان ومشتا وهما تتساندان حتى قطعتا الى المسناة ووقفتا في اسفل السلم والعجوز تنظر الى القصر وتجيل بصرها فيه كأنها تبحث عمن تخاطبه فقال لها احد النوتيين «هذا هو القصر المأموني ياخالة»

فنهضت دنانير للحال وتقدمت حتى وقفت بالباب واطلت على القارب وهي تتفرس بالمرأتين وظلت زينب جالسة تنتظر ما يبدو منها

فما لبثت ان رأتها انحدرت على السلم مسرعة حتى دنت من العجوز واستقبلتها بين ذراعيها واكبت على يدها وقبلتها بلهفة ثم اعانتها في الصعود والفتاة في اثرهما . وكانت زينب تتوقع كلمة تسمعها من دنانير فتعرف القادمتين فلم تسمع شيئاً فظلت صامتة حتى اقبلت دنانير والعجوز تمشي في اثرها تتوكأ على عكازها ولما دنت منها تطاولت دنانير بعنقها وقالت بصوت ضعيف «هلمّ بنا الى الداخل يا مولاتي»

فنهضت زينت ودخلن جميعاً في دهليز بين الباب الغربي والقصر حتى وصلن الى قاعة امرت الجواري بالخروج منها واشارت الى العجوز ورفيقتها بالدخول فدخلتا بعد ان خلعتا نعالهما بالباب وأومأت اليهما بالجلوس فجلستا على طنفسة وجلست زينب على وسادة واقبلت

تنظر اليهما وتتفرس فيهما وقد ازاحتا الخمار فظهر شعر العجوز شائباً

اما الفتاة فبان محياها فاذا هي في ابان الشباب كأنها ملاك بصورة انسان رشيقة القوام بادية الطلعة وكانت قمحية اللون متناسبة الملامح تدل خلقتها على الكرامة والوجاهة ويشف لباسها عن سذاجة وفقر زادا جمالها وضوحاً . ومع ما يتجلى في وجهها من الكآبة والحزن ورغم ذلك الثوب الاسود وما يتلألأ في عينيها من الدمع فنضارة الشباب كانت ظاهرة فيها وكانت وهي داخلة تمشي مطرقة كأنها تحاول كتمان ما في نفسها فلما جلست رفعت عينيها وفيهما دعجٌ وسحرٌ فوقع بصرها على زينب وكانت هذه تتفرس فيها بلهفة فلما التقى بصراهما أحست زينب بجاذب شديد لم تعهد مثله في احد تعرفه مع انها فتاة مثلها وشعرت بميل اليها وانعطاف نحوها وتذكرت كأنها رأتها من قبل

واما العجوز مع ما كانت فيه من مظاهر الذل والحزن فاثار الانفة كانت بادية في محياها . ولما استقر بهما الجلوس التفتت دنانير الى زينب وقالت وهي تشير الى العجوز « الم تعرفيها يا مولاتي ؟ »

فاجابت الفتاة بعينها وشفتيها ان « لا »

فقالت وهي تهز راسها متحسرة « انها مولاتي ام جعفر »

فتبادر الى ذهن الفتاة لاول وهلة انها تعني زبيدة زوج الرشيد فاظهرت الدهشة لما تعهده من شباب زبيدة وهي ترى بين يديها عجوزاً طاعنة في السن فضلاً عن الفرق بينهما بالملامح . فادركت دنانير سبب دهشتها فقالت « انما اعني مولاتي ام جعفر الوزير وهي عبادة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة »

وكانت زينب قد علمت ان جدّها الرشيد قتل وزيره المذكور غيلة وانه اباح منازله ولم تسمع بخبر والدته فكانت تحسبها ماتت . وغلبت العصبية الهاشمية على زينب فانقبضت نفسها وتراجعت فابتدرتها دنانير قائلة « ان لام جعفر دالة على سيدي المأمون لانه ربي في حجرها وكانت تخدمه وتحبه وهو يحترمها وكثيراً ما كان يذكرها بعد نكبة ابيها ويودّ ان يراها ليكرمها . ولو علم بوجودها في قيد الحياة لاستقدمها اليه واكرم وفادتها ... وعزاها على ثكلها .. »

وكانت ام جعفر في اثناء ذلك تمسح دموعها وتتجلد حتى تخفي بكاءها . اما زينب فلما سمعت قول مربيتها وشاهدت بكاء تلك العجوز رقّ قلبها وكادت تشاركها في البكاء لولا رباطة جاشها وما سبق الى فؤادها من كره البرامكة . وكانت دنانير تعلم ما في نفس

زينب فاجبت ان تبالغ في استعطافها فقالت « حتى مولاي امير المؤمنين الرشيد مع ماتعلمينه من امره مع ابنها فهو يحترمها ويعلي قدرها لانها ارضعته وربته بعدان ماتت امه عن مهده، وكان الرشيد يشاورها ويكرمها ويتبرك برايها وطالما سمعته يناديها يا ام الرشيد ... »

فلما سمعت الفتاة ذلك قالت « فهي اذاً جدتي »

فقطعت عبادة كلامها قائلة « بل انا امتك يا سيدتي وانما اكرمني امير المؤمنين بذلك تفضلاً منه ... ولم يصبنا ما اصابنا بعدئذ الا بتقدير العزيز الحكيم » قالت ذلك وشرقت بدموعها

فرق قلب زينب لحالها وقالت « مسكينة ... ام جعفر ... لماذا لم يراع جدي خاطرك ويعفو عن ابنك ؟ »

فقالت « ان مولانا الرشيد فعل ما فعله بوشاية الاعداء لأن بعض الحساد وشى بولدي وحسّن له قتله والرشيد حفظه الله اذا عزم على امر بادر الى انفاذه ولا يسمع فيه رجاءً ولا استرحاماً ... ولكن ما يفعله امير المؤمنين مقدر وينبغي القبول به فقبلنا واطعنا » ثم الفتت الى دنانير وقالت « وقد تمكن الاعداء من اغراء الرشيد حتى قبض على زوجي يحيى وابني الفضل وحبسهما فتشفعت اليه بحرمة اللبن ان يعفو عنهما ويأمر باطلاقهما او اطلاق احدهما فلم يفعل »

فقالت دنانير « وهل فعلت ؟ »

الفصل الحادي عشر

الرشيد وام جعفر

فمدّت ام جعفر يدها الى جيبها واخرجت حقاً من زمردة واحدة خضراء ونظرت الى دنانير وقالت وهي تفتح ذلك الحق بمفتاح من الذهب « قد تشفعت اليه بما في هذا الحق من آثاره » واخرجت من الحق خصلة شعر وبضع اسنان ففاحت رائحة المسك حتى تضوعت القاعة وقالت « تشفعت اليه بهذا الشعر لانه شعره وبهذه الاسنان فانهما ثناياه وقد حفظتها منذ طفوليته فلم يقبل شفاعتي »

فقالت دنانير « وكيف ذلك ... يا مولاتي ؟ »

فبدا الاهتمام في وجه ام جعفر وعادت اليها انفتها واعتدلت في مقعدها واخذت تقص خبرها قائلة :

« لما علمت بما اصاب ولدي جعفر واحسرتاه عليهِ وان الرشيد قبض على يحيى قلت في نفسي لاذهبن الى الرشيد فاستعطفه فى زوجي لعلمي بما كان من اكرامه اياي ... فانه كان لا يخيبني ولم استشفعه في احد الا شفعني فكم اسير فككت وكم مستغلق فتحت وكم .. » قالت ذلك وغصت بريقها فتجلدت واتمت الحديث فقالت « فذهبت الى الرشيد وكنت ادخل عليه بلا اذن فاستأذنت فلم يأذن لي ولا امر بشيء فيَّ . فلما طال ذلك عليَّ خرجت كاشفة وجهي واحتفيت في مشيي حتى صرت بباب قصره . فلما رآني الحاجب في تلك الحال دخل وقال للرشيد « ان ظئر امير المؤمنين بالباب في حالة تقلب شمائة الحاسد الى شفقة فانها جاءت ساعية » فسمعته يقول لهُ « ويحك او ساعية ؟ » قال « نعم يا امير المؤمنين وحافية » فصاح فيه « ادخلها فربَّ كبد غذتها وكربة فرجتها وعورة سترتها »

فلما سمعت قوله استبشرتُ بنيل مطلوبي فعاد الحاجب واشار اليَّ فدخلت فقام الرشيد محتفياً حتى تلقاني بين عمد المجلس واكبَّ على تقبيل راسي ومواضع ثديَّ ثم اجلسني معه فقلت « ايعدو علينا الزمان ويجفونا خوفاً لك الاعوان ويحردك علينا ابناء البهتان وقد ربيتك في حجري واخذت برضاعك الامان من عدوي ودهري ... ؟ »

فقال لي « وما ذلك يا ام الرشيد ؟ »

قلت « ظئرك يحيى وابوك بعد ابيك ولا اصفه باكثر مما عرفه به امير المؤمنين من نصيحته واشفاقه عليه وتعرضه للحتف بشان موسى الهادي اخيه »

فرأيته قطب حاجبيه وقال « يا أم الرشيد امرٌ سبق وقضاء حمَّ وغضب من الله نفد »

فقلت « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب »

قال « صدقت ولكن هذا مما لم يمحه الله »

فقلت « الغيب محجوب عن النبيين فكيف عنك يا امير المؤمنين »

فاطرق مليًّا ثم قال :

« واذا المنية انشبت اظفارها الفيت كل تميمة لا تنفعُ »

فقلت له على الفور « ما انا ليحيى بتميمة يا امير المؤمنين وقد قيل :

واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخرًا يكون كصالح الاعمال

هذا بعد قول الله عز وجل والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »

فتشاغل هنيهة بقضيبٍ كان بيده ثم قال « يا ام الرشيد

اذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد اليه بوجه آخر الدهر تقبلُ »

فلما رأيته مصرًّا على عزمه قلت :

« ستقطع بي الدنيا اذا ما قطعتني يمينك فانظر اي كيف تبدلُ

فقال لي « رضيت »

فقلت « هبه لي يا امير المؤمنين فقد قال رسول الله ومن ترك شيئًا لله لم يوجده الله فقده »

فاطرق مليًّا ثم رفع رأسه وهو يقول « لله الامر من قبل ومن بعد »

قلت يا امير المؤمنين « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله والله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ... واذكر يا امير المؤمنين اليتك ما استشفعت الاّ شفعتني »

فقال « اذكري يا ام الرشيد اليتك ان لا شفعت لمقترف ذنبًا »

فلما رأيته صرّح بمنعي ولاذ عن مطلبي اخرجتُ هذا الحق من جيبي وفتحت قفله واخرجت هذه الذوائب وهذه الثنايا وقلت « يا امير المؤمنين استشفع اليك واستعين بالله عليك وبما صار معي من كريم جسدك وطيب جوارحك ليجبي عبدك »

فاخذ الحق مني ولثمه واستعبر وبكى بكاء شديدًا وبكى اهل المجلس فما شككت انه مجيبي ولكنه لما افاق القى الحقّ وما فيه اليّ وقال « لحسن ما حفظت الوديعة »

فقلت « واهل للمكافأة انت يا امير المومنين »

فسكت واقفل الحق ودفعه اليّ وقال « ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها »

قلت « والله يقول واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ويقول واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم »

فنظر اليّ فعلمت من عينيه انه يستفهمني عن مرادي وكنت قد تعودت فهم مراده من النظر في عينيه فقلت « اما اقسمت لي ان لا تحجبني ولا تمهني .. ؟ »

فلما تذكر عهده قال « احبُّ يا ام الرشيد ان تشتريه محكمة فيه »

فقلت « انصفت يا امير المؤمنين وقد فعلت غير مستقيلة ولا راجعة عنك »

قال « بكم تشترينه »

قلت « برضاك عمن لم يسخطك »

فظهر الملل في وجهه وقال « يا ام الرشيد اما لي من الحق مثل الذي لهم ؟ »

قلت « بلى يا امير المؤمنين انت اعز عليّ وهم احب اليّ »
قال وهو يتزحزح من مقعده « فتحكمي في تمنية بغيرهم »
فلما تحققت انه غير مجيبي نهضت وانا اقول له « قد وهبتك وجعلتك في حلٍّ منه » اوخرجت ونسيت مصيبتي ونشفت دمعتي وانت ترين دمعي الآن وكيف اني اكاد اختنق بهِ اما في ذلك اليوم فلم تسقط لي دمعة » (١)

الفصل الثاني عشر

جثة جعفر

ولما فرغت ام جعفر من حديثها اقفلت الحق على ما فيه وجعلته في جيبها وهي تقول « ولم يبق لي مأرب الآن في الرجاء فان الذي كنت التمس رضا الرشيد عنه ارتاح من شقاء هذه الحياة فمات في حبسهِ ومات بعده ابني الفضل بالامس وهو في سجنه بالرقة » وصمتت هنيهة وهي تمسح عينيها واطرقت ثم قالت « ولكن موته لابدّ ان يعقبه امرٌ عظيم لاني كثيراً ما كنت اسمعه يقول ان امري قريب من امر الرشيد (٢) ولكنني اطلب الى الله ان يطيل عمر امير المؤمنين »

فخفق قلب زينب خوفاً على جدّها ولكنها استحسنت استدراك عبادة بالدعاء له بطول البقاء وعادت الى التفكير في غرابة حديثها معهُ

كانت عبادة تقص حكايتها بلهفة وفصاحة وام حبيبته مقبلة اليها بكل جوارحها وعيناها شاخصتان تراعي حركات شفتيها وغلب عليها التأثر غير مرة واحست كانها تجهش للبكاء ولما انتت ام جعفر على آخر الحديث انقلب اشفاقها الى اعجاب واكبار لما عاينتهُ من انفتها وعزة نفسها واحست بانعطاف اليها وشاركتها بألمها مما اصابها من الثكل والفشل وان كان مثلها لا يدرك كنه المصائب ولكنها كانت كبيرة العقل والقلب تفهم وتحسّ اكثر مما يقتضيه سنها

وكانت قد نسيت لهفتها لمعرفة رفيقة ام جعفر لاشتغالها بما تقدم فلما انتهى الحديث

---

(١) العقد الفريد ٢٣ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٨٤ ج ٦

حولت نظرها الى تلك الفتاة وجعلت تتفرس فيها والحشمة تمنعها من الاستفهام فادركت دنانير ذلك وهي اشدُّ لهفة منها لاستطلاع ذلك السر وكانت في اثناء الحديث تسترق اللحظ الى الفتاة لعلها تستطلع شيئاً من امرها فلم تستطع فصبرت نفسها الى آخر الحديث وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فامرت الخدم ان يضيئوا الشموع القائمة على المنائر في جوانب القاعة وهي شموع ضخمة كانوا يتأنقون باصطناعها ويمزجونها بالعود فاذا اضيئت فاحت رائحة العود وتضوع المكان بها . وعادت دنانير الى التفكير بالغرض الذي جاءت أم جعفر من اجله في ذلك اليوم بعد طوال احتجابها فارادت ان تسوقها الى التصريح بذلك عفواً فقالت لها « ان حكايتك يا مولاتي غريبة واغرب منها احتجابك عنا كل هذه السنين والناس لا يعرفون مقرك ... فاين كنت تقيمين ؟ »

فتنهدت وقالت « كنت محتجبة ... لان مثلي خليقة ان تدفن نفسها حية و ياليتني متُّ منذ عشر سنوات ولم اكابد ما كابدتهُ من مرارة القهر والذل .... انت تعلمين يا دنانير حالي في بيت جعفر ... » وغصت بريقها واطرقت فاشتغلت دنانير بالحديث عنها فوجهت كلامها الى زينب قائلة « نعم ياسيدتي اني اعلم الناس بما كانت عليهِ في ايام عزّها واذكر في عيد النحر من بعض السنين ان مولاتي عبادة هذه كانت في بيت ابنها الوزير وعلى رأسها ٤٠٠ جارية ... »

فقطعت عبادة كلامها قائلة « وكنت مع ذلك اعدُّ ولدي والهفي عليه عاقًّا بي . وقد مرَّ علي في محنتي هذه ايامٌ لا اجد جلد شاتين افترش واحدًا والتحف الآخر[1] ... .. على ان هذا كله لم يهمني بمقدار ما همني الامر الذي جئتكم بهِ الليلة واظنني ثقلت على مولاتي ام حبيبة بشأنهِ .....»

وكانت زينب قد احبت عبادة واحترمتها ونسيت ما يكسوها من الاثواب البالية — على عادة الناس في الحكم على جلسائهم لأول وهلة فانهم يقدرونهم اولاً بما يظهر من لباسهم وحلاهم فاذا اختبروهم قدروهم بمواهبهم وقواهم — فخاطبتها باحترام وقالت لها « معاذ الله يا سيدتي فانك تنزلين عندنا على الرحب والسعة ولك كل ما تحتاجين اليهِ ... (والتفتت الى دنانير وقالت) اعطيها يا ماما كل ما تحتاج اليهِ .. »

فوقفت عبادة وقبلت رأس زينب وقالت « شكرًا لك على احسانك ياسيدتي ولكن الامر الذي جئت بهِ اليك اهم عندي مما تفضلتِ بهِ وان كنت لا استحق هذا ولا ذاك .. »

---

(١) المسعودي ٢٠٨ ج ٢

فبادرت اليها دنانير قائلة « قولي فان لك كل ما تريدين — هـذا ما امرت به مولاتنا حفظها الله »

قالت « سألني يادنانير عن احتجابي كل هذه السنين عن بغداد ؟ .. كيف اقيم في مدينة أرى فيها جثة ولدي معلقة على جسورها وقد شطروا الجثة شطرين صلبوا شطراً على احد الجسور والشطر الآخر على الجسر الثاني وعلقوا الرأس على الجسر الثالث ليراها المارة صباح مساء ... الم تبق جثة جعفر معلقة على هذه الجسور سنتين وبعض السنة حتى عاد الرشيد من الري سنة ١٨٩ هـ فامر باحرانها .. ؟ وكانه شعر بخطارة الامر فهجر بغداد من يومه وسكن الرقة [1] وما زال ساكناً فيها حتى خرج هذا العام الى خراسان .. وهبي اني رضيت المقام فعيون الرقباء ساهرة وامر الخليفة مشدد بالنقمة على كل من يذكر البرامكة بخير فكيف لو عرفوا بوجودي الم يسرعوا لتقطيعي ارباً ارباً .... وما انا خائفة من الموت فانه ايسر ما أقاسيه ولكنني رغبت في الحياة من اجل هذه الفتاة » واشارت الى رفيقتها فتحولت الانظار اليها

الفصل الثالث عشر

الفتاة

فخجلت الفتاة وتوردت وجنتاها وتلألأت عيناها الدعجاوان وظهر الدمع فيهما مع مبالغتها في الاطراق فاغتنمت دنانير هذه الفرصة وقالت « كنتُ منذ دخولك علينا وانا افكر في هذه الفتاة الجميلة واتفرس فيها فلم اعرفها ... »

قالت « انها بنت الشقاء ونتاج المصائب وليس في بغداد من يعرف حقيقتها غيري وقد كتمت امرها عن كل انسان خوفاً على حياتها وانما اردت البقاء في قيد الحياة من اجلها .. وهذه اول مرة ابوح باسمها فهل اقول ذلك ونحن في مأمن ؟ »

فقالت دنانير « لم يبق داع لهذا الحذر بعد ما شاهدته من انعطاف سيدتي الحبيبة اليك ومن يسمع حديثك ولا يشعر معك ؟ . قولي لا تخافي واطلبي ما تحتاجين اليه فانك نائلة ما تريدين .. »

---

(١) ابن الاثير ٧١ و ٧٧ ج ٦

فتنهدت وهي تصلح نقابها على رأسها وقالت « ان هذه الفتاة ربيبة التعاسة ... انها بنت الوزير المقتول .. ابني جعفر »

فبغتت دنانير واعادت نظرها الى الفتاة لعلها تتذكرها فقلما افادها التفرس فقالت « لا اذكر اني اعرفها »

فقالت « نعم انك لا تعرفينها لانها ولدت بعد خروجك من بيتنا الى بيت مولاي المأمون ... وقد كان خروجك من اسباب سعادتك لان ذلك البيت بعد ان كان مقصد السائلين ومقر الوافدين وملاذ الخائفين اصبح بلاء على اهله وغدا ذكرهم تعساً على الاقرباء والمريدين .. » وغلب عليها البكاء فسكتت ريثما تسترجع رشدها ثم قالت « ان حفيدتي هذه ولدت بعد خروجك ولما اصيب والدها كانت لا تزال صغيرة واتفق انها كانت يوم تلك المصيبة قد خرجت مع احدى الجواري الى بعض ضياعنا في ضواحي بغداد فلما قبض الرشيد ضياعنا فرّت بها جاريتها الى قرية بعيدة عن اعين الرقباء وظلت هناك حتى عرفتُ بها فاحتضنتها وخرجت بها هائمة على وجهي بعيدة عن بغداد ثم أقمنا في المدائن عند جماعة لا يعرفوننا وانما آوونا اكراماً لوجه الله . فقضيت هناك عدة اعوام في مأمن من وشاية الواشين وسخّر لنا الله رجلاً لا نعرفه فكان احنّ علينا من الوالد واشفق من الاخ عرفناه منذ بضعة اعوام لانه يقيم في بيت مجاور لمنزلنا في المدائن . وهو غريب لا نعرف اصله ولا فصله ولكن العناية ساقته الينا من حيث لا ندري فكان يتردد علينا ينظر في حوائجنا ويأتينا بما نحتاج اليه عفواً لا يلتمس على ذلك اجراً ولا شكوراً . قضى هذه الاعوام في اعالتنا ونحن لا نعرف من هو نخيل لنا انه رسول من السماء بعثه الله رحمة منه ونعمة لا نستحقها .. »

وكانت دنانير في اثناء الحديث ترمي ببصرها الى الفتاة اعجاباً بجمالها فلما بلغت جدتها الى ذكر ذلك الرجل تشاغلت الفتاة باصلاح خمارها لتخفي ما كاد يبدو في محياها من الاحمرار ولو انتبهت دنانير الى تورد وجنتيها لادركت ما تكنه جوارحها وهي تحاول اخفاءه ولكنهم كانوا في شاغل من غرابة الحديث

فلما بلغت في حديثها الى ذكر ذلك الغريب غلب الاعجاب به على دنانير فقالت « ان الدنيا لا تخلو من المحسنين .. وقد سمعنا عن مثل هذه الشمائل في البرامكة ولم نعهد مثلها في سواهم .. الم تعرفي من هو ذلك المحسن ؟ »

قالت « لم نعرف من هو ولكن يظهر انه فارسي الاصل وقد جاء المدائن من بضعة اعوام وهو يتكتم فاذا دخل بيته اغلق بابه وقضى يوماً او بضعة ايام لا يراه احد حتى كثرت احاديث الناس بشأنه فمن قائل انه يشتغل بالكيميا وقائل انه ساحر وزعم آخرون انه من كبار أهل الثروة وقد جمع ثروته من كنز عثر عليه في منزله لانه يقيم في بيت مبني على انقاض ايوان شابور الذي كان الخليفة المنصور يقيم فيه قبل بناء بغداد .. »

فقالت دنانير « وما هو اسمه ؟ . »

قالت « يسمونه بهزاد الجندي سابوري »

فتذكرت زينب طبيبهم الخراساني لانها تظنه يقيم في المدائن فقالت « لعل طبيبنا يعرفه لانه يتردد الى المدائن وربما اتى الليلة فنسأله عنه .. »

فقالت « لا اظن احداً يعرفه .. ومهما يكن من امره فانه جدير بكل ثناء فعسى ان يقدرنا الله على مكافأته .. ولكن الاقدار لا تصفو لاحد او لعلها عملت على مطاردتنا منذ افل نجم سعدنا فهي لا تدعنا نتنسم راحتنا حتى تخلق لنا بلاء جديداً ... »

فقالت دنانير « وكيف ذلك . »

قالت « ما كدنا نظن الناس نسونا واغفلوا امرنا حتى رأيناهم عادوا الى نكايتنا ... »

قالت دنانير « ومن هؤلاء ؟ »

الفصل الرابع عشر

السر

فالتفتت عبادة الى حفيدتها ثم حولت وجهها عنها فصبغ وجه الفتاة بالاحمرار فادركت دنانير ان الحديث يتعلق بها وظنت ام جعفر تتحاشى التصريح بذلك امامها فاحبت ان تشغل الفتاة بشيء يصرف انتباهها عن الحديث فقالت لها « اظننا ابطأنا عليكما بالعشاء فهل تأمر مولاتي بالمائدة ؟ »

ففهمت عبادة غرضها من هذه الدعوة فقالت « اني لا اشعر بالجوع الآن ولكن ميمونة (حفيدتها) تاكل .. »

فلم يفت الفتاة الغرض من ذلك فاطاعت جدتها مجاراة لما ارادته من التستر في

الحديث عنها فسكتت علامة للقبول بما اشارت به . فنهضت دنانير وهي تقول لمولاتها ام حبيبة « هلمي يا مولاتي الى المائدة مع هذه الضيفة الكريمة . »

فاطاعتها وقد تعودت ذلك منها لنفس السبب الذي حمل ميمونة على الطاعة . وخرجت الفتاتان للطعام وقد استأنست ميمونة ببنت المأمون واحبتها لجمالها وذكائها — وكفى بالاحسان باعثاً على المحبة فقد قيل من احسن الى الناس استعبد قلوبهم

اما دنانير فرافقت الفتاتين ريثما امرت الخدم باعداد الطعام لها وعادت الى عبادة وقد اشتد شوقها لسماع الحديث

وكانت عبادة جالسة مطرقة فدخلت دنانير واقفلت باب القاعة وراءها وجلست الى ام جعفر وهي تبش لها وترحب بها وقد سرّها ان تواسيها وتخدمها قياماً بما تشعر به من فضلها عليها غير ما تبعث عليه حالها من الشفقة لما اصابها من الذل بعد ذلك العز — والاقرار بالاحسان فرض يسرّ اهل الفضل ان يأتوه وان يكرموا صاحبه الاّ طائفة من الناس ساءت سريرتهم وسفلت طباعهم وصغرت نفوسهم — فهؤلاء ينكرون فضل الفضلاء وقد تحملهم الكبرياء على ايقاع الاذى بالمحسنين اليهم لا سيما اذا كان المحسَن اليهم ولدوا في الفاقة وخفض العيش وساعدتهم الاقدار على الارتقاء فربما حدثتهم أنفسهم الامارة بالسوء ان يقتلوا صاحب الفضل عليهم — اما دنانير فكانت كبيرة النفس صافية السريرة فسرّها ان تخدم مولاتها اعترافاً بفضلها . فلما توسمت فيها الاهتمام بما ستقصه اقبلت نحوها بكليتها

فلما انفردتا تنهدت عبادة تنهداً عميقاً ونظرت الى دنانير والدمع يتلألأ في عينيها وقالت « آه يا دنانير ... ان النظر اليك يذكرني بايام سعادتي واشكرك لما لقيته من مواساتك وتلطفك في حين انّ اقرب الناس الينا نسونا او تناسونا (وغصت بريقها) ولكن الدنيا دول ... مالنا وذاك ... ان الامر الذي جاء بي هذه الليلة لولا خطارته ما حملتكم المشقة من اجله ... »

فقطعت دنانير كلامها ووضعت يدها على كتفها وهي تنظر اليها مبتسمة وتقول « لا مشقة في ذلك يا سيدتي انك صاحبة الامر وعلينا الطاعة .. »

فتنهدت وقالت « انت تعرفين الفضل بن الربيع ... »

فلما سمعت دنانير ذلك الاسم ادركت عظم الامر لعلمها ان هذا الوزير هو الذي عظم ذنب ابنها جعفر لدى الرشيد حسداً منه حتى قتله الرشيد وتولى هو الوزارة مكانه فقالت « نعم يا سيدتي اعرفه .. وما خبره بعد الذي اتاه ؟ »

قالت « ليس الخبر خبرهُ الآن وانما نحن نشكو من ابنه ... »

قالت « وما تشكين منه ؟ »

قالت « لا ادري كيف بلغه خبر ميمونة ولا اعلم اين رآها حتى فتن بجمالها او لعله لم يفتن بها وانما أراد نكايتنا فبعث اليَّ منذ بضعة اسابيع قهرمانة دار ابيه بوسطها في خطبة ميمونة لنفسه وقد تلطفت القهرمانة بالطلب ووعدتنا خيرًا . فماطلته حينًا لعله يرجع من نفسه لاني اخاف اذا رفضت طلبه بتاتًا ان يؤذينا فلم يرجع عن طلبه و بالغ في المحاسنة وكرر الوعد بما ينويه لنا من الخير اكرامًا لميمونة لانه مفتون بها وقد اكدت لنا القهرمانة انه يحب الفتاة حبًا مبرحًا وانه لا يريد لنا غير السعادة اذا اجبته الى بغيته . فاعتذرت عن الاجابة اعذارًا مختلفة وتقدمت اليها ان تساعدني في دفعه فوعدتني وظلت اياماً لم ترجع الينا . فظننتها افلحت واطمأن خاطري فلما كان مساء الامس جاءتني بنبأ ذهب بصوابي وقطع حبل رجائي .. » قالت ذلك وشرقت بدموعها فسكتت واشتغلت بمسح عينيها وكانت دنانير تسمع حديثها وهي تتطاول نحوها بعنقها فلما رأتها تبكي قالت « خففي عنك يا سيدتي ... وماذا جرى ؟ »

قالت « جاءت القهرمانة هذه المرة تهددني بالسوء اذا لم اجب ابن الفضل الى طلبه وانهُ اوصل امري الى علي بن هامان صاحب الشرطة ووسطه في الخطبة وان عليًا هذا يلح عليَّ باجابة الطلب وهو يضمن لي ما اريده من الخير واذا لم افعل كانت العاقبة وخيمة عليَّ وعلى ميمونة .. فوعدتها اني سانظر في طلبهِ واجيبها .. وانتِ تعلمين حالنا مع هؤلاء ولا سيما الفضل بن الربيع الذي كان السبب في قتل ابني فكيف ازوج ابنه وانا لا اطيق سماع اسمه » واطلقت لبكائها العنان حتى تفطر لها قلب دنانير وادركت مصيبتها لعلمها ان هؤلاء القوم اذا قالوا فعلوا فاطرقت واعملت فكرتها حينًا ثم قالت « لا انكر على مولاتي ما قالته من كرهها لذلك الرجل وابنه ولكن ... » وسكتت وهي تنهض كتفيها وتقلب شفتيها

فقالت عبادة « لا ... لا استطيع القبول بهِ ... وهبي اني قبلت فهل تظنين ميمونة تقبل وهي تعرف ان الفضل بن الربيع اصل بلائنا ومصدر مصائبنا ؟ ... كلاَّ هذا لا يكون .. »

فقالت دنانير « اذا لم يكن بدٌّ من اصرارك على الرفض فانا طوع ارادتك بما تحبين وهذا القصر واهله في خدمتك فاذا شئت الاقامة فيه اقمت على الرحب والسعة ولا اظن احدًا يجسر على اخراجك منه وقد افرحني ما آنسته من ارتياح مولاتي زبنب لك وانت

تعلمين نفوذها عند امير المؤمنين الرشيد فمتى عاد وسطناها لديه وهو لا يردّها خائبة فانعمي بالاً »

فتنهدت عبادة وسكتت هنيهة ثم قالت « اخشى يادنانير ان يكون في اقامتنا هنا بأس على اهل هذا القصر لان النحس ملازم لنا اليوم فلا احب ان يلحقكم شيء منه »

فتأثرت دنانير من قولها وجعلت تخفف عنها

الفصل الخامس عشر

الطبيب الخراساني

وهما في ذلك سمعتا وقع خطوات مسرعة في الدهليز فنهضت دنانير الى الباب وفتحته فرأت احد الغلمان وقف بالباب وهو يقول « ان الطبيب قد جاء يا سيدتي .. »

فابرقت اسرتها ولم تتمالك ان قالت « الطبيب جاء ؟ لقد ابطأ علينا ... دعه يدخل » قالت ذلك ورجعت الى عبادة وهي تبتسم وتقول « جاء طبيبنا الخراساني الذي ذكرت لك انه يتردد الى المدائن فلعله ينفعنا في معرفة صاحبكم الذي ذكرت انه واساكم هناك »

ففرحت عبادة بتلك البشارة ايضاً ولبثت تنتظر مجيء القادم بفارغ الصبر ولم تمض دقائق قليلة حتى سمعتا حركة ووقع اقدام فرجعت دنانير الى الباب لتستقبل القادم فلما رأته مقبلاً قالت « لقد ابطأت علينا ايها الطبيب هذه المرة جعل الله المانع خيراً »

وكانت عينا عبادة نحو الباب وقد اصلحت خمارها فاذا هي تسمع الطبيب يقول « قد ابطأت عليكم لعذر ضروري فهل انتم في حاجة اليّ » قال ذلك وفي كلامه عجمة

فلما سمعت عبادة صوته خفق قلبها لانها توسمت به صوت جارهم بهزاد ثم دخل الطبيب ولم تقع عيناها عليه حتى عرفت انه هو بعينه فصاحت « هذا بهزاد ! »

اما هو فحالما رآها خلع نعاله واسرع نحوها فصافحها وتلطف في السلام عليها وقال « انت هنا يا خالة ؟ »

فقالت « اني هنا يا سيدي ... قد جئت لزيارة دنانير .. »

فبغتت دنانير لذلك الاتفاق وقالت « اذن هو بهزاد صاحبكم وهو طبيبنا ما اجمل هذا الاتفاق ... تفضل ياسيدي » واشارت الى كرسي

فمشى بهزاد بقدم ثابتة وخطى واسعة حتى جلس على الكرسي

وكان طويل القامة عريض ما بين المنكبين كبير الجمجمة واسع الجبهة ابيض الوجه اسود العينين غائرهما مع حدّة وذكاء خفيف اللحية صغير الشاربين وكان في نحو الخامسة والعشرين من عمره وقد تزمل بعباءة سوداء وعلى رأسهِ قلنسوة قصيرة ليس حولها عمامة . وكان لطوله وعرض منكبيه اذا مشى تقلع كأنه ينحط من صبب . واذا اقبل عليك حسبتهُ من الجبابرة الذين يتحدثون بعظم هاماتهم ورأيت في عينيه رقة ونفوذاً يدلان على قوة الارادة وصدق الطوية . وكان لا يُرى الاّ مقطباً والاهتمام بادٍ في محياه على غير جفاء او خشونة . ويندر ان يضحك . ومع كونهِ قليل الكلام كثير التفكير فان مخاطبه يستأنس بهِ ويرتاح الى مجالسته ولكنهُ يهابهُ ويشعر اذا خاطبه بسلطان لهُ عليهِ

فلما جلس ابتدرته ميمونة قائلة « لقد كنا نتحدث عنك ساعة الغروب ثم ذكرناك في عرض حديث جرى لي مع سيدتي ام جعفر وانا احسبك غير بهزاد الذي ذكرته لاني لا اعرفك بهذا الاسم فاحمد الله على انك انت صاحب الجميل عليها . . »

ولاحت من دنانير التفاتة الى ام جعفر فرأتها تشير اليها برفع حاجبيها والعض على شفتها ان لا تفعل كأنها تنهيها عن التصريح باسمها . فادركت دنانير غرضها . اما بهزاد فانهُ تجاهل مرادها وقال « ان اهل المدائن لا يعرفونني الاّ بهذا الاسم لانهم رأوني فارسي السحنة فسموني بهزاد واما اسمي فهو عبد الله كما تعرفين » ثم حول نظره الى ام جعفر بانعطاف واحترام وقال « لا جميل لي ياخالة في شيء فعلته ولا اعرف اني أتيت شيئاً يستحق الثناء » . . . ثم التفت الى دنانير وقال « كيف مولاتنا ام حبيبة هل هي في خير وعافية ؟ . »

قالت « نعم وهي تتناول العشاء مع ضيفة لها في غرفة المائدة وقد كنت عازمة على الذهاب بها الى الفراش كالعادة . . »

فاظهر الطبيب انهُ لم ينتبه لعزمها وقال وهو يخفي ما يخالج ضميره من الاهتمام ويتشاغل باصلاح بند سيفه في منطقته « هل اتى غلامي سلمان ؟ »

قالت « كلاّ ياسيدي لم اعلم انهُ جاء . . وهل انت على موعد من لقائه هنا ؟ »

قال « نعم . . كنت اتوقع ان يأتي نحو الغروب وشغلت عن المجيء اليكم حتى الآن وانا احسبهُ في انتظاري هنا » قال ذلك وهمّ بالوقوف وهو ينظر نحو الباب كأنه يريد الخروج فتلقتهُ دنانير قائلة « هل تحتاج الى شيء يامولاي . . »

قال « كلاّ ولكنني احب ان اتحقق هل جاء سلمان هذا القصر اذ ربما جاء واقام في بعض غرف الغلمان . »

فمشت دنانير وهي تقول « انا اذهب للبحث عنهُ تفضل واجلس . . » وهمت بالخروج لكنها لم تدرك الباب حتى سمعت جلبة وقهقهة في الدهليز فعرفت ان زينب قادمة وهي تقهقهُ لامرٍ اضحكها ففحكت دنانير سروراً بها واطلت على الدهليز وهي تقول « مولاتي ! انتِ هنا لم تذهبي الى فراشك بعد ؟ هل آتي لأُدخلك الفراش ؟ »

ولم تتم كلامها حتى صارت زينب بجانبها وقد جاءت مسرعة وهي ممسكة بثوب ميمونة تشدُّها نحو الباب على سبيل المداعبة وميمونة تطاوعها ارضاء لها واستئناساً بها . فابتدرتها دنانير قائلة « ما الذي يضحكك ياحبيبتي . . »

فصاحت الفتاة وهي تلتفت وراءها التفات مذعور مطمئن قائلة « اضحكني غلام الطبيب تعالي انظريه » واشارت باصبعها نحو الدهليز . فخرجت دنانير فرأت رجلاً في لباس وقيافة لا تعهد سلمان في مثلها — رأته بعمامة كبيرة وسالفين طويلين ولحية كبيرة قد دبَّ فيها الشيب وعليه جبة مثل جبة الخاخامين فلم تتمالك عن الضحك فصاحت فيه « ويلك ماذا اصابك ؟ »

الفصل السادس عشر

ميمونة

فانزوى الرجل في بعض منعطفات الدهليز حتى اختفى لحظة ثم عاد واذا هو سلمان بقبائهِ وسراويله وطاقيتهِ لاسالفان لهُ وعادت لحيتهُ صغيرة لا شيب فيها فزادها ذلك التغيير استغراباً وتحوَّلت نحو القاعة تخاطب الطبيب بما شاهدتهُ وتبشرهُ بقدوم غلامه فرأته قد وقف واسرع في الخروج ليراه لانهُ سمع مادار بشأنه . لكنه لم يكد يدرك الباب حتى رأى زينب داخلة وهي تجرُّ ميمونة وراءها وتضحك ولا تعلم بوجود الطبيب هناك . فلما وقع نظرها عليه تهيبت واستحيت فاطرقت برأسها واسرعت للاستتار وراء ميمونة

فلما رأى الطبيب خجلها تبسم لها وانحنى نحوها وهو يقول « كيف انت يا ام حبيبة . . » ومدَّ يده ليتناول يدها فازدادت حياء وتراجعت حتى اختفت وراء ميمونة . اما هذه فلما

وقع نظرها على الطبيب بُغتت وصبغ الحياء وجهها لسبب غير السبب الذي اخجل زينب . وتلعثم لسانها واصطكت ركبتاها وتحيرت بين الاطراق خجلاً وبين ان تحيي ولي نعمتها والمحسن اليها . اما هو فلما رأى دهشتها وارتباكها تجاهل وحيّاها تحية بسيطة وتحوّل نحو زينب يظهر مداعبتها ويتلطف في تشجيعها لترد عليه السلام

ولحظت ام جعفر ارتباك حفيدتها فحسبته ناتجاً عن لقائها بهزاد على غير انتظار لانها لم تكن تعلم ما يكنّهُ ضميرها ولم يتفق انها لحظت منها شيئاً يدلُّ على غير التعارف البسيط مع الشعور بفضل الرجل عليهما . فنهضت للحال وتقدمت الى ميمونة وهي تقول « هذا هو مولانا وصاحب الفضل علينا ما بالك لا تسلمين عليه يا لمياء »

فلما سمعتها دنانير تسميها لمياء تحققت انها تريد اخفاء حقيقة حالها عن الطبيب . اما ميمونة فلما سمعت جدتها تدعوها للسلام على الطبيب تجلدت ومدت يدها فتناولها فشعر بارتعاشها وبرودتها ولم تخف عليه حالها ولكنه ظل على تجاهله وابتسم لها كعادته ابتسام تلطف واكرام وقال « وانت هنا بالمياء ايضاً ؟ . » وعاد الى مداعبة زينب

فبالغت ميمونة في الاطراق وقد توردت وجنتاها ولو رفعت بصرها اليه لرأى بريق عينيها وشعر بما ترميه عن حاجبيها من السهام . ولكنه تغافل وحول نظره الى دنانير فرآها تراقب حركات الفتاة ولم يفتها ما كان يتجلى في وجهها من دلائل الحياء وادركت بفراستها وطول اختباوها ان ذلك ناتج عن غير الحياء وحده ولكنها استغربت ما ابداه الطبيب من الفتور كأنهُ خلي الذهن مما يجول في خاطرها . فتحيرت وتمنت لو تمكنها الفرصة من تحقق ظنها

وهي في هذه الحيرة سمعت الطبيب يقول « اين سلمان ؟ سمعتكم تتكلمون عنه »

فاشارت دنانير الى الدهليز وقالت « هو هناك . . . هل ادعوه اليك ؟ »

قال « كلاَّ اني ذاهب اليه » وصاح « سلمان ! » وخرج من القاعة وترك اهلها على ما ذكرناه من الاضطراب والارتباك بين مستحيٍ ومدهوش ومعجب ومستغرب ومتهيب . فاجابه الغلام « لبيك يامولاي . . انت هنا ؟ »

فقال وهو يحتذي نعالهُ ويهمُّ بالمسير نحوه « قد استبطأتك وشغل بالي لغيابك » ومشى نحوه وهو يقول لدنانير « سأعود اليكم بعد قليل » فعلمت انه ذاهب الى المنزل الذي تعوّد الاقامة او المبيت فيه اذا جاء القصر المأموني وهو من جملة ابنية ذلك القصر الكبير . واما الطبيب فظل ماشياً وسلمان يتقدم نحوه حتى التقيا ثم سار الطبيب وسلمان يتبعه وخرجا من الدهليز الى البستان ومشيا فيه الى ذلك المنزل

وكان الطبيب يمشي مطرقاً وسلمان يسير في اثره مهرولاً وكان هذا مع طوله لا يستطيع اللحاق به وهو يمشي الهوينا لسعة خطواته . فلما وصلا ذلك المنزل تقدم سلمان وفتحه فخلعا حذائيهما ودخلا وهمّ سلمان بسراج على مسرجة فاشعله واغلق الباب وراءه ووقف حتى جلس الطبيب على وسادة في صدر الغرفة فوق البساط وامر سلمان فقعد بين يديه وهو ينتظر امره فلما استتب بهما الجلوس قال الطبيب « ما وراءك يا ملفان سعدون »

فقال « وانت ايضاً تدعوني ملفاناً » وضحك

فقال « انك لا تزال ملفاناً حتى تنتهي مهمتنا من هذه الديار ونبلغ غايتنا .. قل ما وراءك ؟ »

قال « جئتك بخبر هام لم يطلع عليه احدٌ في هذه المدينة ولو عرفه اهلها لقاموا وقعدوا وتغيرت احوالهم ... فضحك قوم وبكى آخرون »

فتنحنح الطبيب ونظر الى سلمان بعينين حادتين كأنه يخترق احشاءه ويستطلع خفايا قلبه وقال « هل عندك خبر غير موت الرشيد ؟ »

فاجفل سلمان وقال « وهل عرفت ذلك ؟ بالله ! كيف عرفته وقد جاء في هذه الساعة ولم يعلم به احدٌ ولا صاحب البريد . ولو لم اشاهد اللوح النحاسي الذي يحمله سعاة البريد لاثبات مهمتهم معلقاً بالشرابة على صدره [1] لم اصدقه لغرابته فكيف عرفته ؟ »

قال « عرفته ولم أر اللوح النحاسي ولا تحققت صدق الساعي ... ان الرشيد مات ياسلمان فهل عرفت خبراً اهمّ من هذا ؟ »

قال « وهل اهم من هذا الخبر ؟ لقد اذهبت سعيي عبثاً وكنت احسبني جئتك بخبر تغبطني عليه وانا انما عرفته اتفاقاً وكلفني سبيكة من الذهب .. اني لا ازال قليل النفع لك »

فقال « بل انت كثير النفع لا يستغنى عن ذكائك ونشاطك ويكفي انك تكشف لنا عن اغراض العامة واقوالهم وكفى بالعيارين ومعاملتهم »

فقال « اني لا ارائي فاعلاً شيئاً .. واظنك عالماً بالغيب فقل ما عندك اهمّ من موت الرشيد ؟ »

قال « اهم منه ما اتاه اصحابه من خلع المأمون ونكث البيعة ... وسترى ما يكون من عواقب ذلك عليهم »

قال وقد دهش « نكثوا بيعة الرشيد ؟ يا لهم من قوم خائنين ومن نكثها ؟ »

---

(١) صبح الاعشى ٧١ ج ١

قال « نكثها الفضل بن الربيع »

قال وقد ذعر « الفضل وزير الرشيد الذي سافر معهُ في حملته هذه ؟ »

قال « نعم هو بعينه .. ان هذا الرجل اتى امرًا سيأول الى خراب هذه الدولة مثل سعيه في قتل الوزير المظلوم وكلٌ من الفعلين يسقط دولة فكيف اذا اجتمعا » قال ذلك وقد بدا الغضب في عينيه

فتهيب سلمان من غضبه وقال « وكيف كان ذلك يا سيدي .. »

الفصل السابع عشر

الخبر اليقين

قال « انت تعلم ان الرشيد لما سافر في هذه الحملة اصطحب ابنهُ المأمون واخذ له البيعة على جميع من في عسكره من القواد وغيرهم وافرَّ له بجميع مامعهُ من الاموال وغيرها وكان ذلك بسعي الفضل بن سهل صاحب الهمة الشماء »

قال « نعم »

فقال « وسار المأمون مع ابيه ليقيم في خراسان ولا يخفى عليك ان الرشيد بايع بالخلافة بعده لولديه الامين هذا المقيم في بغداد الآن ثم للمأمون الذي رافقهُ في هذا السفر وان المأمون يتولى خراسان في اثناء خلافة الامين على بغداد . والرشيد كما تعلم مريض من يوم سفره ولكنهُ كان يخفي مرضهُ .. فقد علمت من الصباح الطبري وانت تعلم تقربه من الرشيد وقد رافقهُ للوداع يوم خروجه من بغداد فقال لهُ الرشيد « لا اظنك تراني يا صباح ابدًا » فدعا لهُ واعظم قوله وانكر عليه ما يخافه فقال « ما اظنك تدري ما اجدُ في صحتي » قال الصباح « لا والله » فعند ذلك عدل الرشيد عن الطريق واستظل بشجرة وامر خواصه بالبعد عنه فلما خلا بالصباح كشف عن بطنه فاذا عليه عصابة حرير فقال « هذه علة اكتمها الناس كلهم ولكل واحد من ولدي عليَّ رقيب فمسرور رقيب المأمون وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الامين وما منهم احد الاَّ وهو يحصي انفاسي ويستطيل دهري وان اردت ان تعلم ذلك فالساعة ادعو بدابة فيأتوني بدابة اعجف قطوف ازيد علتي فاكتم عليَّ ذلك » فدعا لهُ الصباح ثم طلب الرشيد دابة فجاؤا بها كما وصف

فنظر الى الصباح وركبها [1] وعاد الصباح من وداعه ولم يكتم ذلك عني »

فاستغرب سلمان اطلاع مولاه على كل ذلك وكيف كتمه عنه الى تلك الساعة ولكنه ما زال شديد الرغبة في الاطلاع على خبر الفضل بن الربيع فقال « وماذا فعل الفضل ؟ »

قال « سافر الرشيد ومعه الفضل هذا وبينه وبين الامين مخابرات خصوصية وله فيه رأي وكلما حدث امر كتب به اليه غير ما يبعثون به على يد اصحاب البريد . فكتب الفضل الى الامين من مدة قريبة ان الرشيد اشتد مرضه كثيراً فكتب الامين اليه كتباً امر ان يجعلوها في قوائم صناديق المطبخ وكانت تلك القوائم منقورة والبسها جلود البقر وعهد بايصالها الى رجل من خاصته اسمه بكر بن معمر وقال له « لا تطلعن امير المؤمنين ولا غيره على ذلك ولو قتلت الا اذا مات فادفع الى كل انسان كتابه »

« ولما وصل بكر هذا الى مدينة طوس حيث كان الرشيد مريضاً بلغ الرشيد قدومه فدعا به اليه وسأله عن سبب قدومه فقال « بعثني مولاي الامين لآتيه بخبرك » فسأله « هل معك كتاب ؟ » فقال « لا » فلم يصدقه لعلمه بما يكتمون عنه وانهم شديدو الرغبة في موته . فامر ان يفتشوا ما معه فلم يصيبوا شيئاً فلم يقتنع فامر بضربه حتى يعترف فضربوه ضرباً مبرحاً فلم يعترف بشيء حتى كادوا يقتلونه فلما خاف الموت قال للفضل ان عنده اشياء هامة فلا يعجل عليه . ولكن الرشيد مازال خائفاً مما يحمله بكر فامر بقتله فاتفق لحسن حظه ان الرشيد غشي عليه فاشتغل الناس به — ثم مات الرشيد فبعث الفضل الى بكر واخبره بموت الرشيد وسأله عن الكتب التي معه من الامين فدفعها اليه وهي كتاب الى اخيه المأمون يأمره بترك الجزع واخذ البيعة له على الناس لهما ولكن المامون كان يومئذ بمرو . وكتاب الى اخيه صالح يأمره بتسيير العسكر وان يتصرف هو ومن معه برأي الفضل . وكتاب الى الفضل يأمره بالحفظ والاحتياط على ما معه من الحرم والاموال وغير ذلك واقرّ كل من كان هناك على عمله . فلما قرأوا الكتب تشاوروا هم والقواد في الذي يفعلونه هل يعملون بالعهود التي عليهم للمأمون فيلحقون به في خراسان ام يلحقون بالامين في بغداد . فكان من رأي الفضل ان يلحقوا بالامين وقال « لا اترك ملكاً حاضراً لآخر ما ادري ما يكون من امره » وامر الناس بالرحيل الى بغداد . ولا يمضي غير ايام حتى يصلوا الينا وقد خلعوا المامون . وما خلعوه الاّ لأن امه فارسية وهم عصبة يزعمون نصرتهم للعرب ولا ينصرون الاّ مطامعهم ولكنهم سيعلمون ما ينالهم من اخواله » قال ذلك وقد تعاظم غضبه وازداد سلمان تهيباً من منظره

(١) ابن الاثير ٨٣ ح ٦

ومع ما تعوده من صحبته وما ألفه من احواله ما زال يجزع من النظر اليه ولا سيما في حال الغضب . واحب ان يكلمه فرآه يتحفز للنهوض وهو يقول « ولكن لا بأس على ابن اختنا وهو في خراسان بين اخواله وفيهم الفضل بن سهل فلا خوف عليه »

ونهض بهزاد فنهض سلمان معه وهو يقول « ما الذي تفعله الآن يا مولاي »

فاطرق وهو يحك جبينه بسبابته وابهامه ثم قال « لا بدَّ من ذهابي الآن لامرٍ خطر لي لا يحسن تأجيله ... »

قال « وهل اذهب معك ... »

قال « كلاَّ .. فاني افضل الذهاب وحدي لسبب ستعلمه .. »

فقال وهو يهز رأسه اعجاباً واستغراباً « لقد أدهشتني يا مولاي بما تكتمه وما تستطلعه كأنك تستخدم الجان . »

قال « لم افعل شيئاً غريباً .. » واخذ يصلح قلنسوته و يعدل بند سيفه استعداداً للسير فابتدره سلمان قائلاً « فاذا كنت لا ترى حاجة اليَّ الآن فاني اذهب لاتمام مهمتي التي بدأت بها في غروب هذا اليوم ولولا تعجيلي لاطلاعك على خبر الرشيد لاتممتها قبل مجيئي ولو علمت انك تعلم الغيب . و .. »

فقطع بهزاد كلامه قائلاً « لا دخل للغيب في ما تراه وستعلم انه طبيعي ولكنني تعودت ان لا اقول شيئاً قبل تحققه وانما يقدم على كثرة الكلام اهل الطيش يجعجعون و يطنطنون ثم لا يأتون غير الكلام وعندي ان اذاعة ما ينويه المرء من الاعمال يذهب بالعزم على اتمامه — ولذلك فانك انما تسمع مني القول البات الاَّ في بعض الاحوال الشاذة لاسباب طارئة . وما اجمل ما قيل « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان »

وكان سلمان يسمع كلامه مصغياً فلما فرغ قال « انها عظة بالغة ولذلك فاني ذاهب الآن لقضاء المهمة التي بدأت بها عند الغروب ومتى انتهت اطلعتك عليها .. وارجو ان تحسن في عينيك وان لا تكون قد سبقتني اليها ... »

وكان الطبيب يسمع كلام سلمان وهو يحتذي نعاله فلما فرغا قال الطبيب « اذهب بحراسة الله وسنلتقي هنا غداً واذا لم آتِ لا تستبطئني » قال ذلك وترك سلمان في المنزل يهتم باقفاله ومشى نحو القاعة التي ترك القوم فيها

الفصل الثامن عشر

هل هي تحبهُ

وكانت دنانير بعد ذهاب الطبيب قد ادخلت زينب الى الفراش وسألت ميمونة اذا كانت تريد الرقاد فاظهرت انها تحب البقاء للاستئناس بها وبجدتها ثم امرت الخدم فاعدوا طعاماً لها ولعبادة فاكلتا ولا حديث لهما غير بهزاد وكلٌّ منهما تنص على رفيقتها ما تعرفه من غرائب اطواره وعجائب احواله ولا سيما عبادة فانها اخذت تطري شهامته وانفته وكرم اخلاقه وان اهل المدائن يعدونه من الاولياء ويستغربون تكتمه . على ان التكتم زاده رفعة في اعينهم وزادهم تهيباً منه . لانك لا تزال تخاف المجهول حتى تعلمه — وعلى هذا القياس ترى الصمت يرفع منزلة صاحبه وكثرة الكلام تقلل من هيبته فاذا جهلت ما في خاطر المرء توهمت ما يكتمهُ اهم مما هو فاذا تكلم انكشف لك عن شيء تافه فكيف اذا تعودت ان تسمع بعد السكوت قولاً معقولاً . فالعقلاء يزين اقوالهم احتفاظهم بالكلام الى حين الحاجة والتدبر بما يقولونه فلا يلقون الكلام على عواهنه

وكانت ميمونة تسمع حديثهما عن بهزاد وقلبها يرفص طرباً لشيء تشعر به ولا تستطيع التعبير عنه . فقد عرفت هذا الشاب منذ عام وبعض العام ورأت منه انعطاف المحسنين وغيرة الاقربين فاحترمته واعجبت به . ثم تعودت رؤيته حيناً بعد آخر فاصبح اذا غاب استبطأته وشعرت انها في حاجة الى رؤيتـه لا يطمئن قلبها الاَّ اذا رأته ولو مارًّا في الطريق . وقد زاد ارتياحها اليه لما كانت تسمعه من اطراء جدتها له وامتداحها خصاله فاصبحت اذا شاهدته او سمعت صوته يخفق قلبها واذا كلمها صعد الدم الى محياها واستولى الخجل عليها . ثم اصبح قلبها يخفق لمجرد سماع اسمه وصارت تلتذ بالحديث عنه واذا سمعت احداً ينتقده او يقبح أعماله شق عليها قوله واخذت تدافع عنه بحماس وغيرة — كانت تفعل ذلك وهي لا تعلم انها تحبه ولو سئلت هل هي تحبهُ لاستغربت السؤال وانكرته كل الانكار — لا تفعل ذلك نفاقاً او رياء لكنها بالحقيقة لا تعلم انها تحبه وخصوصاً لانها لم تكن تسمع منهُ كلمة تدلُّ على حبه لها فاذا جاء المنزل كلم جدتها بما تحتاج اليه واذا عرضت لهُ ميمونة حياها وهو ينظر الى شيء آخر وربما سألها عن حالها سؤالاً بسيطاً بلامبالاة او اكتراث — فلم يمنعها ذلك من الاسترسال في حبهِ لانها لم تأتِ الحب عمداً اي انها لم تعمل فكرتها ولا

شاورت نفسها في هل تحبه ام لا . ولو فعلت ذلك لاحترست من الوقوع لانها لم تكن ترى منهُ ميلاً ولكنها احبته وهي لا تعرف دلائل الحب

وما زالت على ذلك حتى النقت به تلك الليلة فجأة ثم سمعته يلاطف زينب ويداعبها فتحركت الغيرة في قلبها مع علمها انه فعل ذلك تلطفاً ومجاملة . واحسَّت كأن سهماً اصابها في قلبها . على انها تراجعت وحاولت الاقتناع ان ليس ثمة داع للغيرة فاقتنع عقلها واما قلبها فما زال في اضطراب . واخذت من تلك الساعة تتساءل عن سبب هذا الشعور فاغتنمت اشتغال جدتها ودنانير بالطعام والحديث طفقت تفكر في سبب هذا الشعور وكلما همت ان تسأل نفسها هل هي تحبه غلب عليها الحياء وانكرت وقوعها في هذه الشراك لانها لا ترى من اعماله ما يجرئها على ذلك فتعللت بانها انما تحبه اقراراً بفضله واحسانه

ثم رأت ذلك لا يغني فتيلاً لانها تحس بانعطاف اليه غير انعطافها الى جدتها مثلاً وهي اكثر الناس احساناً اليها فتحققت انها تحبه لغير الاحسان . ولما تصورت ذلك ولم ترَ لها مندوحة عنه انقبضت نفسها لانها لم تشاهد منه شيئاً من هذا القبيل نحوها . وعادت الى ذكرى الماضي فراجعت تاريخ معرفتها به وما كان يبدو من حركاته واقواله فلم تر دليلاً على مثل ما عندها . على انها حملت ذلك منهُ على رغبته في التكتم او اظهار الجفاء مع كتمانه الحب

فكانت عبادة ودنانير تتناولان الطعام وتتحادثان وميمونة غارقة في هذه الهواجس . وبعد الفراغ من الطعام قالت دنانير « هل تريدان الذهاب الى الفراش فاننا في اواسط الليل . . »

فقالت عبادة « اما انا فلا اشعر بحاجة الى النوم ولكن ميمونة تنام . »

فلما سمعت ميمونة قولها تذكرت ان بهزاد وعد بالرجوع حالاً واصبحت بعد ان ذهب وتركها في تلك الحيرة تودُّ ان تراه قبل الرقاد ولا سيما بعد ما ناجت بهِ نفسها من امر حبه لعلها تؤانس منه اشارة او تسمع كلمة تستدل منها على ميلهِ اليها — فلما سمعت قول جدتها ساءها ان تطيعها ولم تتعود غير الطاعة العمياء وهذه اول مرة حدثت نفسها بعصيانها ولكنها لم تجسر على مراجعتها فوقعت في حيرة وارتبكت في امرها . ولحظت دنانير ارتباكها وادركت سببه وكانت عبادة في شاغل عن عواطف حفيدتها فلم تكن تتوقع منها غير النهوض حالاً فسمعت دنانير تقول « مالنا وللرقاد الآن دعي ميمونة معنا فان هذه الليلة من ليالي العمر عندي لشدة فرحي بكما » ثم مدت ذراعيها نحو ميمونة وضمتها الى صدرها وقالت « وخصوصاً

حبيبتي ميمونة فاني وجدتها من العدم ... فدعيني اتمتع من رؤيتها »

ولا تسل عن فرح ميمونة بهذا الاعتذار فاشرق وجهها ولما ضمتها دنانير وقبلتها أجابتها بقبلات حارة وضحكت رغم ارادتها من شدة الفرح

الفصل التاسع عشر

موقف حرج

فأثنت عبادة على لطف دنانير وتجاملتها ولم يستتب بهن المقام حتى سمعن خفق نعال الطبيب فخفق قلب ميمونة ولكنها تجلدت ونهضت دنانير لاستقباله فاذا هو لا يزال بلباسه وزاد عليه كوفية اعتمّ بها وارخى اطرافها حول رأسه كأنه على سفر فابتدرته دنانير قائلة « مالي ارى الطبيب مسافرًا »

قال « لابد من ذهابي الآن لشغل هام وكنت أودّ البقاء عندكم لولا الضرورة ولكنني سأعود في الغد ان شاء الله »

وكانت عبادة قد وقفت لاستقباله وبجانبها ميمونة فلما سمعتا قوله تقدمت عبادة حتى التقت به وهو داخل من الباب فقالت « سر بحراسة الله يا ولدي وارجو ان تعود الينا سريعًا ولا تنسانا .. »

فتقدم نحو عبادة باحترام ومدّ يده فصافحها وهو يقول « حاشا لله ان انساكِ .. » والتفت الى دنانير وقال « اني اوصيك بهذه الخالة خيرًا يادنانير ... وان كنت لا ارى حاجة الى الوصاية لما آنسته من حبك لها .. »

وكانت ميمونة في اثناء ذلك واقفة وركبتاها ترتعدان وقد تولاها الخجل وكانت قد اعدت عبارة تقولها في وداعه فلما رأته نسيتها وتلعثم لسانها

اما هو فلما فرغ من وداع عبادة تحول نحو ميمونة ومد يده فقبض على يدها واحس برعشتها وبرودتها فضغط عليها خلسة ووجه كلامهُ الى دنانير وقال « وهل اوصيك بلمياء .. كان يجب ان اوصي مولاتنا ام حبيبة بها .. على انني لا ارى حاجة الى ذلك وقد رأيت من تحابها ما لا حاجة معه الى توصية بل يجدر بي الآن ان اوسط لمياء لدى مولاتنا .. من اجلي » ثم وجه خطابه الى ميمونة وهو لا يزال ضاغطًا على يدها ضغطًا ترافقه رعدة

متبادلة وقال « هل تتوسطين لي عندها .. ما اسرع تسلطك على قلب مولاتنا حتى استأنست لك كانها تعرفك منذ اعوام » قال ذلك وابتسم وقد ابرقت عيناه وكادتا تبيحان بما في قلبهِ

واما هي فلا تسل عن حالها وما كان يتجاذبها من الخجل والامتنان والفرح لما آنستهُ من تلطفهِ وما توسمته في خلال حديثه من المغامز الدالة على حبهِ فسكتت واطرقت وهذا ابلغ جواب من فتاة في مثل هذه الحال لكنها لم تتمالك عن الابتسام وبان السرور في وجهها

اما هو فكأنه تنبَّه لنفسه وندم على ما فرط منهُ فافلت يدها وعاد الى انقباضه واظهر الجد والاهتمام وتحوَّل عن ميمونة الى دنانير فحياها بسرعة وقال « استودعكم الله الى الغد » وخرج مسرعاً

وكانت دنانير قد لحظت ما بدا منهُ وسرَّها ما رأت من اهتمامهِ بعد ان استاءت من فتوره للمرة الأولى ولكنها تجاهلت واجابت الطبيب جواب الوداع وعادت الى ضيفتيها فقالت « ما اكثر اهتمام هذا الطبيب وما اكثر شواغله فانك لا تلبث ان تراه جالساً حتى ينهض الى شغل هام . اني لم افهم سرَّه .. »

فقطعت عبادة حديثها قائلة « هذا هو حاله معنا منذ عرفناه فمع توالي احسانهِ علينا لا اذكر انهُ جالسنا ساعة او بعض ساعة فاني ولم أره الا مهتماً مقطباً وهذه اول مرة رأيته يتبسم ولم يطل ابتسامهُ فعاد الى حالهِ »

اما ميمونة فبعد ان اطمأن بالها وفرح قلبها بما اظهره بهزاد في ذلك الخطاب ما لبثت ان عادت الى هواجسها عند ما افلت يدها بسرعة وتغير وجههُ فجأة على انها تشاغلت عن هواجسها بالمحادثة وبعد قليل عادت دنانير الى الترحيب بهما ثم دعتهما الى الرقاد فذهبتا

الفصل العشرون

قاعة العيارين

اما سلمان فقد علمت انه هو الذي تنكر باسم الملفان سعدون واختلط بالعامة وصاحب رئيس العيارين خدمة لمولاه بهزاد . وقد ترك الحرش في ذلك المساء على ان يعود اليه في تلك الليلة ولو طال غيابه ويلاقيه في قاعة العيارين . وقد رأيت ان سلمان انما اسرع

الى القصر ليطلع الطبيب على موت الرشيد فلما رآه يعلم ما لم يعلمه هو من امر البيعة وغيرها رأى ان يعود بهذه الاخبار الى الهرش لعله اذا رافقه الى صاحب الشرطة يقدر ان يبغته بهذا الخبر فيزيد اعتقاده بصدق مندله

فلما ودع مولاه الحكيم اختلى لتبديل ثيابه وعاد الى العمامة والسالفين واللحية والجبة واسرع الى بغلته فركبها وسار يطلب قاعة العيارين . وكان الليل قد انتصف واقفلت المنازل وطاف الخفراء ينادون واذا رأوا غريباً اوقفوه . اما سعدون فقد كان له من لباسه وقيافته شافع حتى بلغ جسر بغداد ولم يكن له بدٌّ من المرور عليه الى البر الغربي والخفراء قائمون على طرفيه وقاعة العيارين بالحربية وراءه فمر على الجسر ولم يعترضه احد حتى دخل البر الغربي وهو بغداد الاصلية مدينة المنصور وحولها الارباض القديمة وفيها الشوارع الضيقة وقد علقت المصابيح في اوائلها ووقف الخفراء يخفرون باسلحتهم ونبابيتهم . فلما خامره الخوف منهم وقف ونادى احدهم فاسرع اليه فقال له « سر امامي الى قاعة العيارين »

فلما سمعه الخفير يخاطبه بصيغة الامر ورأى لباسه توهمه من اهل الذمة المقربين من الخليفة للطبابة او النجامة او نحوهما . وما زال الخفير ماشياً بين يديه حتى اقبل على بناء ضخم من ناحية الحربية ببابه عيّاران عليهما المئزر وعمامة الخوص فلما رأيا الملفان على بغلته عرفاه فتقدما اليه واعاناه في التحول وقالا له « ان مولانا الهرش في انتظارك وانما ذهب الى مكان قريب لا يلبث ان يعود وقد اوصانا ان نرحب بك وندخلك القاعة تنتظره فيها »

فترجل ومشى العيار بين يديه وهو يتخطى وراءه بعكازه حتى استطرق من الدهليز الى ميدان تتطرق منه الى قاعة كبيرة فيها عدة مصابيح مدلاة من سقفها كالثريا . وفي ارضها بساط عليه نقوش ووسائد ومقاعد . فدعاه العيار للجلوس على مقعد في اليمين فجلس وهذه اول مرة دخل فيها قاعة العيارين فلم يدهشه ماهناك من الاثاث الثمين ولكنه دهش لما رآه معلقاً في جدرانها من ضروب الاسلحة وادوات الحرب واصناف الحيل فشاهد فضلاً عن السيوف والاقواس والرماح انواعاً من المقاليع بين مصنوع من الجلد او مجدول من الشعر او من الحرير وكل مقلاع مخلاته بجانبه والمخالي ايضاً انواع ورأى في بعض جوانب القاعة عصياً طويلة من خشب الشوم ونحوه يثب عليها العيارون في قطع الانهر وبجانبها سلالم مصنوعة من الحبال تنتهي من اطرافها بكلاليب يرمونها على السطوح اذا ارادوا الوثوب عليها ويقال لها سلالم التسليك غير ما رآه من ادوات النفط التي يشعلون بها الحرق المبتلة بالنفط ويرمونها بالمجانيق ولم ير هناك الا منجنيقاً واحداً صغير الحجم لرمي النبال او النفط

وليس مما ترمى به الحجارة الضخمة وغير ما رآه معلقاً في صدر القاعة من الدبابيس وهي العصي فيها المسامير من الحديد وبعضها مساميره من الفضة او الذهب . وهذا الدبوس لا يحمله الا الرؤساء وبينها دبابيس مصنوعة كلها من الحديد ورأى على رفٍّ هناك أرغفة من الرصاص يستخدمها العيارون رمياً على اعدائهم فتذهب بقوة عظيمة وقد تقتل عدة اشخاص برمية واحدة . ورأى كثيراً من ادوات القتل والكسر والنقب وضروباً من الحبال وغيرها مما يحتاج اليه العيارون

الفصل الحادى والعشرون

صاحب الشرطة

قضى سلمان نصف ساعة ظنها عدة ساعات لفرط قلقه واستغرق في هواجسه يراجع ما مرَّ به تلك الليلة من الغرائب . ثم سمع ضوضاء بباب القاعة فعلم ان الهرش قدم فتحفز للقائه وهو يصلح هندامه . واذا بالهرش قد دخل مسرعاً وفي اثره شاب جميل الصورة بادي الطلعة عليه قباء وسراويل وقلنسوة وقد نبت عارضاه و بان عذاره و يظهر من بياض وجهه انه من غلمان الارقاء البيض . فوقف الغلام بالباب واسرع الهرش الى سلمان وكان قد وقف له فحياه وابتدره قائلاً « قد ابطأت عليك رغم ارادتي فان حامداً (واشار الى الغلام) له حاجة عند صاحب الشرطة وابى الا ان يصحبني الليلة فجئت به معي فهل انت عازم على الذهاب اليه ايضاً ؟ . »

قال « انما جئت عملاً باشارتك مع علمي اننا في نصف الليل ولكنك الححت عليَّ بالرجوع . . فاذا كنت لا ترى حاجة الى الذهاب رجعت . . »

فقطع الهرش كلامه قائلاً « بل انا شديد الرغبة في الذهاب ولو اننا في آخر الليل . . هيا بنا فان الركائب معدة لنا » ثم التفت الى الغلام وقال « نحن ذاهبون مع الملفان سعدون الى صاحب الشرطة فاذا وصلنا اليه اوصيته بك ليدخلك في سلك الشاكرية وذلك خير لك من ان تكون عياراً »

ففهم سلمان ان الهرش وعد الغلام بادخاله في ذلك السلك وتبينه عن قرب فرأى فيه فضلاً عن الجمال ذكاء وانقة ولم يستغرب ذلك فقد كان بين الارقاء المجلوبين الى بغداد او المولدين فيها جماعة من اجمل خلق الله واذكاهم واكثرهم يتعاطونه الجندية او الحراسة . او

ينتظمون مع الشاكرية الذين يتولون نقل المراسلات في قصر الخليفة . فخرج الهرش وهو ممسك بيد سلمان احتفاء به وفي خاطره ان يساله عما اكتشفه من الاخبار الجديدة ولكنه استنكف من التعجيل في ذلك

فلما خرجا من القاعة ركب سلمان بغلته وامتطى الهرش فرسه ومشى في ركابيهما عياران وركب ذلك الغلام حمارًا وسار في اثرهما وهو يستغرب مايراه من احتفاء الهرش بذلك الملفان . وانما كان همه ان يتوفق الى الالتحاق بالشاكرية عملاً باشارة مولاه مع انه كان يتأهب للخدمة في وجاق العيارين ولكنه لم يكن يستطيع مخالفة الهرش لانه ربي في حياطته ولم يكن يعرف ولياً سواه . وكان يطيعه على الخصوص لما كان يؤانسه من انعطافه نحوه غير انعطاف المولى الى مولاه لانه كان يعامله معاملة الاب لابنه وقد عني بتعليمه وتثقيفه على غير ما تعوده العيارون كانه مكلف بذلك بقول فوق قوله

ولم يكن منزل صاحب الشرطة بعيداً عن قاعة العيارين فما عتموا ان وصلوا اليه فترجلوا بجانب باب كبير كان حارساه قد غلب عليهما النعاس فلما سمعا قرقعة اللجم نهضا فرأيا الهرش فوسعا له بلا استئذان فدخل والملفان سعدون الى جانبه يتوكأ على عكازه . فمشى احد الحراس بين يديهما بالمصباح في رواق مستطيل الى قاعة عليها ستر مسدول . فمشى الهرش وهو يتنحنح فتقدم اليه الحاجب وتطاول لمصافحته فابتدره قائلاً :

« هل مولانا هنا »

قال « اظنكم على موعد من لقائه لاني لا اعلم انه بقي ساهرًا هنا الى مثل هذه الليلة منذ اعوام مع شيخوخته . »

فلم يجبه الهرش على هذه الملاحظة بل ظل سائرًا حتى رفع الستر واشار الى الملفان سعدون ان يدخل واوما الى حامد ان يمكث في الرواق ريثما يستقدمه . اما الحاجب فاعلن قدوم الزائرين بقوله « ان الهرش داخل يا مولاي »

فدخل سلمان وهو في ما وصفناه من قيافة الملفانية بعد ان نزع حذاءه وترك عكازه بجانب الباب . فرأى ابن ماهان في صدر القاعة على وسادة وبجانبه رجلان قد اقبل احدهما نحوه كانه يقص عليه حديثاً هاماً . فعرف سلمان حالاً انه سلاّم صاحب البريد جاء ليسرّ اليه الخبر الذي وصله تلك الليلة عن موت الرشيد وكان ابن ماهان يتطاول بعنقه لسماعه وقد بدت الدهشة في عينيه

وكان الرجل الآخر شاباً في نحو الخامسة والعشرين من عمره جميل الطلعة حسن

البزة وجهه مشرب حمرة بلألا في عينيه ماء الشبيبة وعليه ثوب ثمين وحول قلنسوته عمامة مزركشة وقد تربع واخفى قدميه تحت سراويل من الخز الثمين وقد تضوعت القاعة من طيبه . ولم يكن هذا الشاب اقل اصغاء لحديث صاحب البريد من ابن ماهان . فعرف سلمان حالاً انه ابن الفضل بن الربيع ولم يكن احد من هؤلاء يعرف الملفان سعدون الاَّ بما سمعوه عنه من الهرش

وكان ابن ماهان قدطعن في السن . ومطامعه ما زالت في ابانها ولهُ لحية واسعة كان يخضبها بالحناء وقد تغضن جبينهُ وانتفخت الشيخوخة في وجهه ولكن الكبرياء والغرور ما زالا ظاهرين في جلسته ولفتته واسلوب خطابه . وقد زادهُ كبرًا مااختص به من الدالة على رجال الدولة لسبقه في خدمتها من ايام المنصور . وخصوصاً لما توفي هذا الخليفة سنة ١٥٨ هـ وأبى عيسى بن موسى لما علم بموته ان يبايع لابنه المهدي وكان ابن ماهان حاضرًا فوضع يده على قبضة حسامه وصاح فيه « والله لتبايعن او لاضربن عنقك » فبايع فارتفعت منزلة ابن ماهان لدى الخلفاء العباسيين من ذلك الحين . وتوالى على عرش الخلافة في ايامه اربع خلفاء آخرهم الرشيد . وكان قد حسد البرامكة ووالى الفضل بن الربيع واتفقا على معاداة الفرس ومن قال قولهم . ولذلك رأيناه مقربًا من الامين وقد جعله صاحب شرطته واصبح همه تأييد سلطته

وكان شديد القلق لاستطلاع مستقبل حال الخلافة بعد سفر الرشيد وكاشف الهرش بذلك فاخبره بمقدرة الملفان سعدون على استطلاع الغيب

وكان الهرش قد وعده ان يأتيه به في تلك الليلة كما تقدم فلبث ابن ماهان في انتظاره على مثل الجمر فجاءه صاحب البريد منذ ساعة واسرَّ اليه خبر الرشيد وجلسا يتباحثان في ما عساه ان يحدث من التغيير اما الفضل فكان يتردد الى ماهان ويجالسه بلا كلفة مراعاة لمنصب ابيه في الوزارة فاشترك في سماع الخبر . فلما سمع ابن ماهان الحاجب ينبئه بقدوم الهرش التفت نحو الباب فرآه داخلاً وسلمان الى جانبه فرحب بهما واصطنع ضحكة يظهر بها تلطفه كما يفعل بعض المتغطرسين اذا احب التظاهر بالتواضع ولا يخفى غرضه على جلسائه فيستثقلون ذلك التلطف لظهور التكلف فيه

ولم يحفل سلمان (او الملفان سعدون) بتلك الظواهر فظل داخلاً وسلم وتقدم الهرش فقال « هذا الملفان سعدون قد جاء معي »

فابتسم ابن ماهان وهو يمشط لحيته بانامله ولم يتزحزح من مكانه وقال « مرحبًا

بالملفان العالم المنجم » واوماً اليهما ان يجلسا والتفت الى صاحب البريد وقال « قد كنت في قلق لاستطلاع الخبر الذي قصصته عليَّ فاحببت ان استعين على كشفه بعلم هذا المنجم وقد ذهبت الحاجة الى ذلك الآن » . ثم بلع ريقه وقال وهو يصلح مجلسه « ولكنني مسررت بمعرفته لعلي احتاج اليه في فرصة اخرى »

فادرك الهرش ان صاحب الشرطة يحسب الخبر الذي قصه عليه صاحب البريد لم يبلغهما فنظر الى الملفان سعدون نظرة فهم مراده منها وهو على ثقة انه يحمل خبراً لا يعرفه احد من اهل بغداد فاجاب الهرش بنظرة حادة وابتسم وهز كتفيه . فحول الهرش وجهه الى ابن ماهان وقال « ارى صاحب الشرطة في شاغل مع صاحب البريد ومع مولانا ابن الفضل واخشى اننا ثقلنا عليه بمجيئنا »

فضحك والاهتمام باد في عينيه وقال « ان المنجمين لا يستغنى عنهم في مثل هذه الحال لا سيما اذا صدقوا في تنبئهم » ثم وجه خطابه الى سلمان وقال « هل كشف لك خبر يهمنا يا ملفان ؟ »

فقال وهو يظهر الاستخفاف « ربما كان ذلك »

فاعترض الهرش كلامه وقال « ان الخبر الذي تتسارون به قد كشف لنا منذ ساعات .. »

فتجاهل ابن ماهان وقال « اي خبر تعني ؟ »

فنظر الهرش الى سلمان ففهم مراده وقال « ليس موت الرشيد جديداً عندي ولا اقنع به وحده بعد ان عملت المندل هذه الليلة .. »

الفصل الثاني والعشرون

الدهشة

فبغت ابن ماهان لهذه المفاجأة ونظر الى صاحب البريد كانه يستعينه في الاستغراب فتصدى ابن الفضل للسؤال وقال « وهل عندك خبر غير موت الرشيد ؟ »

قال « ان الرشيد رحمه الله كان مريضاً قبل سفره وكلنا كنا نتوقع موته ولكن المندل كشف لي اموراً اذا وعدتموني بكتمانها عن مولانا الامين حتى تظهر له من غيري

قلها لكم » قال ذلك وهو لا يعني كتمانها حقيقة وانما لجأ الى هذا الشرط التماساً لرغبة القوم في سرعة النشر — كذلك يفعل بعض اهل الدهاء اذا احبوا نشر مأثرة لهم فانهم يظهرون الرغبة في كتمانها ويبالغون في خوفهم من نشرها وهم يعلمون ان تحذير السامع من افشائها يبعثه على الرغبة في اذاعتها « سرًّا » ويعظم عنده قدر الناقل

فلما سمعه ابن الفضل يطلب التكتم زاد رغبة في الاطلاع وقال « اذا كنت تعرف شيئاً يستحق الاهتمام فان اطلاع مولانا الامين عليه يدعو الى تقربك ورفع مقامك .. ماذا عسى ان يكون ما عندك .. »

فقال « قد اطلعت على سرّ يهمُّ ابن الفضل اكثر مما يهمُّ سائر الحضور .. »

فسحب ابن الفضل نحوه وهو لا يشعر وقال « وما ذلك ؟ وكيف يهمُّ ابن الفضل على الخصوص .. » قال ذلك وهو يظن الملفان لا يعرفه

فقال سلمان « ان الخبر يهمُّ ابن الفضل لانه يتعلق بابيه الوزير .. اي بابيك »

فاستغرب معرفته اياه ولكنه شغل عن ذلك برغبته في الاطلاع على ذلك الخبر ونظر الى ابن ماهان فالتفت هذا الى الملفان وقال ارى دعواك عريضة فقل ما عندك لنرى فاذا صدقت ضمنا لك التقرب من مولانا »

قال « اظنك تعني امير المؤمنين الامين فالتقرب منه سعادة وانا نحن عبيده .. »

فاستغرب تصريحه بقوله « امير المؤمنين » فقال « كيف تدعوه امير المؤمنين وهو لا يعلم الاَّ انه ولي العهد فهب ان الرشيد مات فهل الخلافة صائرة اليه ؟ »

قال « بل قد صارت لهُ وحدهُ وقضي الامر .. »

فعلم اذ ذاك انه يعرف شيئاً جديداً فقال « لهُ وحدهُ ! وكيف صارت؟ »

فاشار باصبعه الى ابن الفضل وقال « قد صارت بسعي مولانا الوزير والده »

فتطاولت اعناقهم لسماع الخبر والهرش لا يقل عنهم استغراباً فابتدره قائلاً « ذلك شيء جديد يظهر انك عرفته بعدئذٍ وكيف ذلك .. ؟ اقصص علينا ما عرفته .. »

فاعتدل في مجلسه وأخذ يقص ما سمعه من بهزاد وهو مطرق كأنه يقرأه في صحيفة بين يديه والكل صامتون وقلوبهم تخفق دهشة واستغراباً ولا سيما ابن الفضل فانه ازداد افتخاراً بما اتاه ابوه من الخدم الجليلة في مصلحة الامين وكان قد اطلع على مقدمات ذلك الحديث من قبل فلما سمع النتائج التي قصها سلمان تحقق صدقها . ولم يتم سعدون خبره حتى دهش له ابن الفضل ولم يتمالك ان سحف حتى دنا منه وربت له على كتفه استحساناً

واعجاباً وقال بورك فيك انك منجم عجيب ..»

اما ابن ماهان فتماسك عن الاعجاب وقال «هل انت واثق مما تقول يا رجل ؟»

فرفع سلمان منكبيه وحاجبيه وقلب شفتهُ وقال «هذا ما كشفهُ لي المندل ولا اعهد المندل يخدعني من قبل»

فصغر صاحب البريد في عيني نفسه واحتقر الخبر الذي جاء به وغلب عليه السكوت.

اما ابن ماهان فالتفت الى الهرش وقال «اذا صحَّ ما جاءنا به الملفان فان الامر ذو خطر واني ابشره برئاسة المنجمين في دار الخلافة فاكتموا الآن ما سمعتموه لنرى ما يكون..»

وتناول من تحت وسادته صرة من النقود وقدمها الى المنجم وهو يقول «وهذه أجرة طريقك وثمن البخور»

فتباعد سلمان ويداه وراء ظهره كانه يستنكر ذلك الانعام ويد ابن ماهان لا تزال ممدودة بالصرة فالتفت الى الهرش لفتة الاستغراب فضحك هذا وتناول الصرة واعادها الى مكانها وقال «ان منجمنا لا يتعاطى هذه الصناعة رغبة في الانعام وانما هو صديق يخدمنا في سبيل الصداقة»

فاعجب الحضور بتلك الانفة وقال صاحب الشرطة «لا بأس .. فانه نائل اضعاف ذلك بما ارجوه من تقربه الى الخليفة»

وعند ذلك تحفز سلمان للوقوف وهو يقول «اعذرونا فقد ازعجناكم واطلنا سهركم»

فلم يتمالك ابن ماهان عن النهوض احتراماً له وقد ذهبت كبرياؤه وأحسَّ بافتقاره الى علم الرجل — وذلك شأن الناس في معاملة اهل المعرفة فانهم تعودوا احترام الظواهر لاول وهلة حتى تظهر المعرفة فتكون العاقبة لها — فقد تجالسُ رجلاً لا تعجبك بزته فتحتقره ولا تزال ترى لك الفضل عليه حتى يتكلم فاذا رأيت منه علماً انقلب احتقارك احتراماً وشعرت بفضل له عليك وربما دخل عليك فلم تقف له فلا تلبث اذا عرفت فضله ان تخرج لوداعه وتزوده الثناء والاعجاب — كذلك فعل ابن ماهان بالملفان سعدون فقد رأيت انه استقبله استقبالاً بارداً ظناً منه انه جاء يتزلف اليه يلتمس انعامه فلما راى علمه وتجافيه عن قبول الانعام احترمه ووقف لوداعه وشيعه الى باب المجلس وتقدم اليه ان يأتيه في الغد

ولما ودع ابن ماهان الهرش بالغ في الثناء عليه لانه كان سبباً لتعرفه بالمنجم. فتذكر الهرش غلامه حامداً وكان لا يزال في انتظاره بالباب فاجابه «اني لم افعل شيئاً يستحق

الثناء وان نعمك متوالية علينا » ثم نادى حماداً فأتى فقدمه الى ابن ماهان وقال له «هذا غلام اضن به واحبُّ ان يكون في جملة رجال الشاكرية في قصر الخليفة فاذا تفضلت ادخله في جملتهم ..»

فتقدّم الغلام واكبّ على يد ابن ماهان فقبلها ووقف متأدباً فقال له « ادخل الآن الى دار الغلمان وفي الغد تكون في جملة الشاكرية » والتفت الى الهرش وقال « كن مطمئناً انه سيكون على ما تحبُّ ..»

فانثنى الهرش عليه وخرج

اما ابن الفضل فكان اكثرهم اعجاباً وارتياحاً وتوسم في الرجل منفعة له شخصية فرافقه حتى خرجا من الباب ولم يبق معهما غير الهرش فاسرَّ اليه انه سيكلفه بامر هام لا علاقة له بالخلافة والح عليه ان يجيئه في فرصة اخرى

فاشار مطيعاً وخرج مع الهرش ثم ودعه وركب بغلته وسار ولم يبق من الليل الا القليل اما صاحب البريد فلم ينم تلك الليلة استعداداً لمقابلة الامين لينقل اليه خبر والده. وقد كان عليه ان يبلغه اياه حال وصوله ولكنه لم يتمالك عن مكاشفة صاحب الشرطة به من قبل فبكر في الصباح الى قصر الخلد حيث كان يقيم الامين الى ذلك اليوم ليطلعه على الخبر

الفصل الثالث والعشرون

المبايعة

كل ذلك واهل بغداد غافلون عما جرى فاصبحوا في اليوم التالي والمنادون يطوفون الشوارع ينعون الرشيد ويترحمون عليه ويعلنون خلافة الامين. واهتم الهاشميون ورجال الدولة باخذ البيعة له على جاري العادة

وبكر سعدون في الصباح التالي (١٩ جمادى الآخرة سنة ١٩٣هـ) الى دار الشرطة فرحب به ابن ماهان [1] واركبه سرّاً في حاشيته ليشهد الاحتفال بالبيعة. حتى اذا وصلوا قصر الخلد ترجلوا ودخلوا في جملة الداخلين بين تزاحم الاجناد والاعيان. ولما اتوا دار

(١) جاء في كتب التاريخ ان الامين ولّى ابن ماهان الشرطة يوم تولى الخلافة

العامة اذن لهم وسعدون بجانب ابن ماهان

وحضر البيعة شيوخ بني هاشم الذين كانوا في بغداد والقواد واكابر رجل الدولة حتى غصت الدار بهم . وجلس الامين على سرير الخلافة وكان قد بلغ الثالثة والعشرين من عمره وتخشن عضله واسترسلت لحيته واستطال عارضاه وبانت رجوليته وكان طويل القامة قوي العضل يلقى الاسد فلا يبالي به وكان مع ذلك جميل الصورة ابيض اللون صغير العينين اقنى الانف سبط الشعر وفي وجهه اثر الجدري (١) وكانوا قد البسوه بدلة الخلافة وجعلوا العمامة المرصعة على رأسه والبردة على كتفيه وقد جاءه بها رجاء الخادم من عند اخيه صالح من طوس . وجاءه ايضاً بقضيب الخلافة والخاتم فلبس الخاتم باصبعه وحمل القضيب بيده فازداد جلالاً وجمالاً والناس جلوس بين يديه بنو هاشم على الكراسي وسائر الناس على الوسائد او على البساط وبعضهم وقوف والكل منصتون مطرقون حزناً على الرشيد واحتراماً للامين

وكان اول من تقدم من الحضور سلام صاحب البريد فانه اقبل اليه فعزاه بابيه وهناه بالخلافة ثم تقدم بنو هاشم فعزوه وباسوه ووكل سليمان بن المنصور شيخ بني هاشم باخذ البيعة على القواد وكبار رجل الدولة وفي جملتهم ابن ماهان وابن الفضل

وكان الملقان واقفاً في جملة الجمع ولم ينتبه له احد فلما فرغ الناس من المبايعة وقف الامين فيهم خطيباً فاصغوا وتطاولوا باعناقهم فحمد الله ثم قال «يا ايها الناس خصوصاً يا بني العباس ان المنون بمرصد لذوي الانفاس حتم من الله لا يدفع حلوله ولا ينكر نزوله . فارتجعوا قلوبكم من الحزن على الماضي الى السرور بالباقي تحوزوا ثواب الصابرين وتعطوا اجر الشاكرين »

ولم يكن الناس يتوقعون هذه الجرأة منه فاستغربوا ذلك ثم أمر ان يفرق في الجند رزق اربعة وعشرين شهراً وكانت قد جرت العادة اذا تولى الخليفة ان ينعم على الجند بارزاقهم ليكتسب ثقتهم

ولما فرغ من مبايعة الناس تقدم الحسن بن هانىء (ابو نواس) شاعره فهنأه بالخلافة وعزاه بابيه وهذا قوله :

جرت جوارٍ بالسعد والنحس فنحن في وحشة وفي أنسِ

(١) ابو الفداء ج ٢ والمسعودي ج ٢ وسير الملوك

(٢) ذكروا انه خطب ذلك في جامع الرصافة

العين تبكي والسنُّ ضاحكة فنحن في مأتم وفي عرسِ
يضحكها القائم الامينُ وبه كيما وفاة الرشيد بالامسِ
بدرانِ بدرٌ اضحى ببغداد في الـ ـخلدوبدرٌ بطوس في الرمسِ

وكان ابن الفضل في اثناء ذلك لا يشغله شاغل عن الامر الذي يريد مسارة الملفان سعدون به لكنه ما كاد يفرغ من مشاهدة الاحتفال حتى احس بانقضاء الوقت. على انهُ احب مخاطبة الرجل فرآه يتأهب للخروج فاعترضه وسأله القدوم معه فاعتذر بما يدعو الى سرعة ذهابه الساعة وانه سيعود اليه في المساء. وكان عازماً على البحث عن مولاه بهزاد ليرى ما يكون

فقال له ابن الفضل « عد الينا هذا المساء في منزلنا بالرصافة » فودعه ومضى يلتمس القصر المأموني

الفصل الرابع والعشرون

اهل القصر المأموني

وكان اهل ذلك القصر قد بلغهم ما اصاب الرشيد فشقَّ خبر وفاته عليهم ولاسيما زينب لانها كانت شديدة الولع به كما تقدم. فلما سمعت الخبر بكت كثيراً. وادركت دنانير الانقلاب الذي يخشى حدوثه بعد موت الرشيد لاطلاعها على كثير من دسائس اهل البلاط وان كانت لم تعرف بعد ما عرفه بهزاد من نكث بيعة المأمون. على انها اصبحت تنتظر خبراً من مولاها لانه اذا كان نصيبه ولاية خراسان بعد وفاة ابيه كما تمَّ الاتفاق يوم سفرهما فربما بعث الى ابنته وسائر اهله بالذهاب اليه. وشعرت وهي في ذلك الاضطراب بحاجتها الى الطبيب بهزاد تستشيره بما تفعل او لعله يساعدها في التخفيف عن زينب فانها مع صغر سنها اشتد حزنها على موت جدها وانقبض صدرها ولم تعد تفرح لشيء بعد ان كانت تضحك لاي شيء فلازمت غرفتها ودنانير لا تفارقها. وامسكت زينب عن الطعام حتى اثر الحزن في صحتها واصابها دوارٌ وامتقع لونها وعجزت دنانير عن تعزيتها. ولما شغل بالها على صحتها استأذنتها في استشارة بعض اطباء القصر فابت فالحت عليها بذلك فاجابتها « اين طبيبنا الخراساني ؟ »

وعلمت دنانير انها تستأنس به فهو يسليها عن حزنها فضلاً عن معالجة بدنها فمكثت تنتظر مجيئه بفارغ الصبر

اما عبادة ام جعفر فقد ساءها موت الرشيد لانه بمنزلة ولدها كما علمت فضلاً عن ذهاب آمالها بما وعدتها به زبنب من التوسط لديه في شأنها . ولكنها اشتغلت من الجهة الأخرى بما عساه ان يكون من الانقلاب في الخلافة مما قد يعود بالخير عليها على انها كانت ضعيفة الامل بذلك لعلمها ببعض ما يسعى فيه اعداء المامون وهم اعداء الفرس واعداؤها طبعاً . ورأت من اهم واجباتها ان تساعد دنانير في التخفيف عن زبنب واذا خلت بها تباحثتا في ما سيكون

واما ميمونة فقد شغلت عن ذلك كله بما هاج في قلبها من الشوق الى حبيبها مع رغبتها في تحقق ما في خاطره من نحوها — والحب يشغل صاحبه عما حوله من الشؤون فاذا غاب حبيبه طارت نفسه شعاعاً واصبح همه ان يعود اليه . لاشيء ينسيه شوقه او يعزيه على وجده واذا اشتغل بشيء فالى اجل . واذا اجتمع بالحبيب قام بينه وبين ماجريات الحوادث سدٌّ منيع فيصبح اصم الاً عن سماع حديثه وابكم الاً في جوابه واعمى الاً عن رؤيته . وقد يسمع او يرى ولكن كالسامع من وراء جدار او الناظر في دجور الظلام . واما الطوارىء اذا وقعت حوله فانما يهمه منها ما يتعلق بقربه من الحبيب او بعده عنه — فلم يكن موت الرشيد ليهم ميمونة الاّ من حيث هذه العلاقة وهي لا ترى لها علاقة بهذه الشؤون لانها ما زالت ترتاب بما في نفس بهزاد ولا سيما بعد ان ودعها بالامس وخرج مسرعاً على تلك الصورة . ومضى معظم ذلك النهار ولم يرجع ولا جاء خادمه وكانت تستأنس به وقد ودت مجيئه على الخصوص لتسأله عن غيابه وهل يطول

قضت النهار كله في قلق لاتبالي باهتمام اهل ذلك القصر بالحزن ولا بما قام في بغداد من الضوضاء للاحتفال بالبيعة وان كانوا بعيدين عن مركز الاحتفال . على انها كانت تتشاغل بالجلوس الى زبنب وتخفف عنها بما يحضرها من عبارات التعزية وعيناها تنظران نحو الدار لتوقع ان ترى قادماً يبشر بمجيء بهزاد واذناها مصغيتان لعلها تسمع وقع قدميه . ثم سمعت دنانير تخاطب جدتها بشانه وتستبطئه وتتمنى قدومه تخفق قلبها ولكنها ظلت ساكتة وبالها في قلق والشمس قد مالت عن خط الهاجرة وهي لم تذق طعاماً واهل القصر في شاغل عنها بشؤونهم واحزانهم

وهي في ذلك رأت بعض الغلمان قادماً وفي وجهه خبرٌ فتحفزت لملاقاته ثم امسكت نفسها

حياء لئلا يكون الغلام قادماً الى دنانير بشأن يتعلق بالقصر فتظاهرت انها نهضت لبعض شؤونها وتمشت على مهل حتى صارت بالباب فرأت الغلام وقف وحيا دنانير وقال لها « ان سلمان غلام الطبيب بالباب »

فخفق قلب ميمونة وكادت البغتة تظهر في محياها لمجرد الاشارة الى اسمه . اما دنانير فاجابت الغلام « يدخل سلمان .. وعساه ان يكون مبشراً بقدوم مولاه ... فاننا في حاجة اليه اليوم »

وبعد هنيهة أقبل سلمان بلباسه الاصلي وهو يتثاقل بمشيته ويتظاهر بالحزن والانقباض وميمونة تراعي حركاته فلما اطل على القاعة انحنى احتراماً ووقف حتى يؤذن له . فابتدرته دنانير قائلة « ما وراءك يا سلمان .. أرأيت ما اصابنا ؟ . » وخنقتها العبرات

فاطرق ودخل حتى دنا من مجلس زينب وانحنى كانه يريد تقبيل يدها وكانه مجهش للبكاء ثم التفت الى دنانير وهو يتصاغر ويظهر الكآبة وقال « ان المصاب جلل يامولاتي ... ان وفاة امير المؤمنين ضربة كبيرة ... اطال الله بقاء مولاي المامون وانجاله وجعله خير خلف لخير سلف .. » وغصَّ بريقه وتراجع حتى وقف في بعض جوانب الغرفة

فاشارت اليه دنانير ان يقعد وقالت له « أرأيت طبيبنا اليوم ؟ »

قال « كلاَّ ياسيدتي لم أره منذ افترقنا في الامس . وكنت احسبه رجع الى هنا .. »

قالت « لم يجئ يا سلمان . وقد كنا نتوقع مجيئه ونحن في هذه الحال . وقد مرضت مولاتنا ولا ترضى طبيباً سواه .. » قالت ذلك وفي كلامها غنة العتاب

فقال سلمان « الغائب عذره معه حتى يحضر .. فهو لا يلبث ان ياتي ولا اخاله يغيب الى الغد .. او .. »

فقطعت عبادة كلامه قائلة « ألا تعلم اين ذهب ؟ . »

قال « كلاَّ .. وهل يعلم احد بذهابه او مجيئه ؟ »

فقالت دنانير « قد عودنا التخلف عنا يوماً او بضعة ايام ثم يعود الينا على غير موعد ولكن .. »

فقالت عبادة « اتظنه ذهب الى بيته في المدائن ؟ »

فرفع حاجبيه وكتفيه وشخص بعينيه كانه يتنصل من تبعة الدلالة على مكانه او يبالغ في تجاهله »

وكانت ميمونة تسمع ما دار من الحديث والحياء يمنعها من الدخول فيه ثم غلب عليها حب

الاطلاع فقالت وهي تتظاهر بالسذاجة وقلة الاكتراث « اظنه الآن في بيته بالمدائن وقد اقفل بابه ليشتغل بالكيمياء او استخراج الكنوز كما يقولون .. » ومع شدة تحفظها وتجلدها لم تتم هذه العبارة حتى توردت وجنتاها ووقع نظرها على دنانير فرأتها تتفرس في وجهها وهي تبتسم فازدادت خجلاً واطرقت وتحولت الى وسادة في بعض جوانب الغرفة فعدت عليها وتشاغلت باصلاح خمارها

فتجاهل سلمان عن ذلك كله وقال وهو يوجه كلامه الى عبادة « ان الناس يتهمون مولاي بامور كثيرة هو بريء منها واما انزواؤه في بيته احياناً فهو للمطالعة في بعض كتب الطب او الفلسفة . وفي كل حال لو عرفت انه هناك الآن لذهبت اليه واستقدمته . ولا اظنه يبطيء كثيراً . فاذا لم يات الليلة ولا صباح الغد عمدنا الى البحث عنه في المدائن او غيرها »

وكانت دنانير تبالغ في اظهار القلق لغياب بهزاد ارضاء لزينب ومراعاة لاحساس ميمونة لعلمها ان الحياء يمنعها من اظهار قلقها فنابت هي عنها وتكلمت بلسانها . فلما سمعت قول سلمان قالت « لا بد من البحث عنه الليلة اذا شئت »

فتراجع واطرق وقال « ان امرك نافذ يا سيدتي وسأفعل ما تشائين .. وربما آتيكم بخبره الليلة او في صباح الغد »

فاثنت دنانير عليه وسكتت وهي تنظر الى ميمونة فرأتها ترنو اليها ودلائل الشكر بادية في محياها فابتسمت وحولت وجهها الى عبادة وقالت « ألا ترين ذلك ؟ »

فاجابت على الفور « بلى .. واذا كان سلمان مشغولاً بما يمنعه عن البحث فانا اذهب للتفتيش عنه في المدائن فاننا نعرف منزله معرفة جيدة ومسيرنا الى هناك هينٌ .. » ثم حكّت وراء أذنها وعادت الى الحديث قائلة « واذا شئتِ ان يبحث سلمان في مكان آخر ونحن نذهب للبحث عنه في المدائن فعلنا »

فلما سمعت ميمونة اقتراح جدتها اشرق وجهها ارتياحاً لهذا الرأي لانه عبر عن احساسها كانها قالت عنها مالا تستطيع هي التصريح به

اما سلمان فانما وعد بالبحث عن بهزاد حياء من دنانير لانه راغب في الرجوع الى ابن الفضل قياماً بوعده ليغتنم ذلك الانقلاب لعله ينفعه في غرضه الذي جاء الى هناك من اجله . وكان من الجهة الاخرى لا يرى موجباً للقلق على غياب مولاه لعلمه بكثرة شواغله . على انه استانف الكلام قائلا « ها اني ذاهب للبحث عن الطبيب والاتكال على الله » وخرج

الفصل الخامس والعشرون

ابن الفضل

تركهم سلمان في تلك الحال وخرج فغير هندامه وركب بغلته وسار الى قصر الفضل بن الربيع والقصر يومئذ في الرصافة بالجانب الشرقي من بغداد يشرف على شارع الميدان وكان في الاصل اقطاعاً من الرشيد لعباد بن الخصيب فصار كلهُ للفضل بن الربيع [1] يقيم فيهِ مع اهله . وهو على مسافة بعيدة من القصر المأموني وان كان كلاهما على الجانب الشرقي من بغداد . فقطع المخرم حتى دخل شارع الميدان وهو يبتدىء من سوق الثلاثاء وينتهي بالشماسية ويعرف هناك بشارع الخضير وكانت تحمل اليه المصنوعات الصينية ونحوها من الاواني الثمينة وتباع فيه

وصل سلمان الى باب القصر نحو الغروب وكان ابن الفضل في انتظاره وقد اوصى الحرس اذا جاء الملفان سعدون (ووصف لهم شكله) ان يدخلوه اليه فلما وصل الباب لم يمهله الحارس ريثما يترجل ويسأل فابتدره قائلاً « أَلعلك الملفان سعدون ؟ »

قال « نعم »

قال « ان مولانا في انتظارك . . اتبعني »

فترجل الملفان ومشى في طرق الحديقة وهو يضرب الارض بعكازه ويتباطأ في مشيته وقد اطرق وهو يتمتم بشفتيه كأنه يتلو آية او يقرأ تعويذة واسرع حارس آخر فسبقهما وانبأ ابن الفضل بقدومهِ . فقطعا البستان حتى وصلا الى باب القصر الداخلي فاذا بابن الفضل قد خرج لملاقاة الملفان المنجم فرحب به وصافحه ومشى بجانبه حتى اتصلا من الدهليز الى قاعة استطرق منها الى غرفة خصوصية لا يدخلها غير ابن الفضل وبعض خاصته وفيها سرير وبجانبه كرسيان وفي ارض الغرفة بساط ثمين وفي احدى زواياها منارة عليها عدة شموع اناروها في تلك الساعة . فجلس ابن الفضل على السرير ودعا الملفان للجلوس على كرسي بجانبهِ

فجلس سلمان وهو لا يزال يتمتم وقد الصق ذراعه بجنبه كأنهُ يتأبط شيئاً يحرص عليه . فلما استقر به الجلوس استخرج من تحت ابطه منديلاً من الحرير فيهِ كتاب هو عبارة

---

(١) معجم ياقوت ١٠٨ ج ٤

عن درج من الرق قديم العهد قد تخرق من بعض جوانبه . وتماهل في حل الصرة واخراج ذلك الدرج مبالغة في الحرص عليه ووضعه في حجره فبانت من خلال تلك الخروق كتابة بحرف لا يقرأه الانس ولا الجان . ثم تظاهر انه فرغ من القراءة او التعزيم ومسح وجهه من جبهته الى لحيته والتفت الى ابن الفضل واخذ يثني عليه لحسن وفادته فاجابه « لقد اتيت اهلاً ونزلت سهلاً » وبش له واظهر ممازحته لكي يستأنس به استعداداً لما ينوي كشفه له من اسراره و يزعم انه يداجيه

فابتسم الملفان وقال « لقد بالغت يا كرامي ايها الوزير ... »

فتوهم ان الملفان انما يدعوه وزيراً اعتماداً على ما تبين له من علم الغيب في مستقبله لكنه تجاهل واحب ان يتحقق ظنه فقال « انك تدعوني وزيراً والوزير والدي .. »

فقال « ان ابن الوزير وزيرٌ يا سيدي ... مر بما تشاء فاني مطيع »

قال « قد دعوتني وزيراً وانا ادعوك رئيس المنجمين في دار امير المؤمنين .. »

فادرك سلمان انه يعده بهذا المنصب وهو قادر ان يضعه فيه لما يعلمه من نفوذ والده ورضى الامين عنهما فاحبّ ان يثبته في وعده فقال « بورك بابن الفضل فانه يقول و يفعل وانا في كل حال سامع مطيع .. »

فاطرق ابن الفضل واعمل فكرته ثم قال « قد دعوتك لامر سريّ انا شديد الحرص على كتمانه وطيد الامل بالحصول عليه ... اذا اسعفتني »

قال « اما ما تشير اليه فهو سرٌّ عن كل الناس الا عني والملفان سعدون لا يقال له ذلك »

فاستغرب ابن الفضل دعواه واحب ان يمتحن صدقه فقال « وهل انت عالم بسري؟ »

وكان سلمان قد سمع بعض خدم القصر المأموني يذكر حب الفضل لميمونة وقد سمعه من عبادة وهي تقصه بالامس على دنانير وهم يظنون انهم يقولون سرًّا — وكان الخدم يومئذ من اكثر الناس اطلاعاً على اسرار مواليهم لانهم لم يكونوا يحذرون التكلم بحضرتهم استخفافاً بهم — فقال « اظنني اعرف سرك الا اذا كنت تعني غير حبك لتلك الفتاة التي تظن نفسها مجهولة النسب »

فبغت ابن الفضل عند مفاجأته بهذا التصريح وبانت البغتة في وجهه وهان عليه مكاشفته بما يكنه ضميره وقال « اما وقد علمت سرّي فلا اخفي عنك اني احب تلك الفتاة حباً مبرحاً ... احبها من كل قلبي واتعشقها بكل جوارحي .. » قال ذلك وبانت دلائل الحب في وجهه فابرقت عيناه واحمر وجهه

فضحك سلمان وقال وهو يهزّ رأسه « ان الحب سلطان . انت تحبها ؟ »

فقال « نعم اني احبها فهل هي تحبني ؟ »

قال « لا ادري ولعلها لو كانت معنا الآن لعرفتُ مكنونات قلبها غير ان ذلك يحتاج الى مندل »

قال « هب انها لاتحبني ... بل يظهر لي انها لا تحبني الآن فما الحيلة ؟ .. — اني انما دعوتك لاستعين بك على ذلك فما قولك ؟ »

فتناول سلمان الدرج من حجره وفتحه واخذ يقلبه بين يديه ويتظاهر انه يقرأ شيئاً منه ويعيد القراءة ويطرق ثم يرفع بصره الى السقف ويعيده الى الكتاب ثم ينظر الى وجه ابن الفضل ويتفرس فيه واخيراً اطرق ويده على لحيته كانه يفكر ويأسف ثم قال « ان حبيبتك انتقلت من مكانها »

فاجفل ابن الفضل وقال « اين كانت واين صارت ؟ »

قال « الم تكن في المدائن ؟ »

قال « بلى »

قال « ليست هي هناك الآن »

قال « واين هي .. اين ذهبت ؟ »

قال « اعلم انها خرجت من المدائن ولا ادري اين اقامت . ان ذلك يحتاج الى بحث »

قال « لعلها في الطريق الآن ؟ » قال ذلك لاعتقاده انها لو كانت في مكان معين لما خفي ذلك عليه

قال « ربما كانت على الطريق .. وليس هذا بالامر الهام .. هب انها في السماء او في الارض او ما بينهما فهي لا تنجو من يدي .. »

فابرقت اسرة الفضل واطمأن خاطره وقال « جزاك الله خيراً .. افعل ما يدالك ولا تبخل بالنفقة على إتمام هذا العمل فاني ابذل ما املكه في سبيل الحصول عليها وانا انما اريد ان آخذها بشرع الله .. لاني احبها حباً صادقاً ولا ادري ما الذي يحملها على مخالفتي »

فابتسم سلمان واظهر الاستخفاف وقال « اظنك تدري السبب . ان عداوة الآباء متصلة بالبنين . »

فازداد ابن الفضل استغراباً لكشف هذا السر وقال « صدقت .. ذلك هو السبب ولكن لو علمت هي مقدار حبي لها واني سانسيها ما أتاه والدي نحو والدها اظنها ترضى »

قال « قد علمتُ ذلك ولم ترض ولكن هذا لا يهمنا انها سترضى .. ان هـذا القلم (واشار الى دواة مغروسة في منطقتهِ) يجعل الصخر ماءً والماء صخرًا الا يقدر ان يلين قلب تلك الفتاة ؟ »

قال « افعل ما تراه ولا تسل عن النفقة »

فالتفت اليه شذرًا وقال « الم تكن حاضرًا بالامس عند صاحب الشرطة ؟.. انكم لا تزالون تهينون الاصدقاء . ولكنكم تعودتم عشرة المتملقين المتزلفين فلا لوم عليكم . »

فابتدره ابن الفضل بالاعتذار وقال « عفوًا يا سيدي فاني اقبل منك هـذا الجميل وارجو ان تقبل توسطي مع صاحب الشرطة في ان تكون رئيس المنجمين عند امير المؤمنين .. على اننا اذا فعلنا ذلك انما نؤدي خـدمة عظمى للخليفة لان وجود مثلك في بلاطه نعمة من نعم الله .. فما الذي تفعلهُ الآن »

قال « دعني ابحث عن مقرما وسا كتب لك كتابًا اذا استطعتَ ايصالهُ اليها على ما ساصف لك انتك هي مذعنة تستهلك في مرضاتك »

فلم يتمالك ابن الفضل عند ذلك عن الوقوف بغتة وقال « وهل ما تعنيه صحيحًا .. اني لا اعرف كيف اشكرك .. ومتى تكتب الكتاب ؟ »

قال « اكتبه متى فرغت من بحثي .. لا تضجر ... ولا تستعجل »

قال « افعل ما يتراءى لك الاَّ امرًا واحدًا ارجو ان يطيعني فيه »

قال « وما هو ؟ »

قال « ان تبيت عندي الليلة وتصحبني غدًا الى دار الخلافة فاقدمك لامير المؤمنين ليجعلك رئيس المنجمين »

قال « الامر لك ولكنني لا ابيت عندك وانما آتيك غدًا اذا شئت »

قال « بل تبيت عندي فان القصر واسع اختر المخدع الذي يناسبك لا يزعجك فيه احد وقد ارسلت الى صاحب الشرطة ان يوافينا غدًا الى قصر الخلافة في مدينة المنصور . لان دار الخلافة انتقلت بعد مبايعة الامين من قصر الخلد الذي تعرفهُ خارج باب خراسان الى داخل المدينـة [1] » قال ذلك وصفق فدخل غلامهُ فقال لهُ « اعدد لنا المائدة للعشاء وقل لقيم الدار ان يعدَّ مخدعًا ليبيت فيه الملقان الليلة » قال ذلك وهو مصمم على اجرائه فلما رأى تصميمه خاف ان يخالفـهُ فيفسد عليهِ تدبيره فاطاع وبعد هنيهة نهض للعشاء وبات تلك الليلة هناك

(١) ابن الاثير ج ٦ وسير الملوك

الفصل السادس والعشرون

مدينة المنصور

وفي صباح اليوم التالي ركب ابن الفضل في موكبه وعليه الحية السوداء التي يقابل بها الخلفاء العباسيون وامتطى سلمان بغلته وهو في قيافته المعهودة وخرجوا من الرصافة غرباً نحو الجسر حتى اذا قطعوه جاؤا الطريق المؤدي الى قصر الخلد فتجاوزوه لان الامين انتقل منه بعد البيعة الى قصر المنصور داخل مدينة المنصور المعروف بباب الذهب كما تقدم

وكانت مدينة المنصور مستديرة الشكل حولها سورٌ ضخم طوله ٢٠,٠٠٠ ذراع وعرض اساسه ٩٠ ذراعاً ثم ينحط حتى يصير في اعلاه ٢٥ ذراعاً وارتفاعه ٦٠ ذراعاً . وهو السور الاعظم يحيط به من الخارج فراغٌ عرضه مثل عرضه . وحول الفراغ المذكور سورٌ آخر يقال له الفصيل له ابرجة عظام وعليه الشرفات المدورة . وخارج الفصيل وحوله كما يدور مسنّاة بالآجر والصاروج متقنة محكمة . وخارج المسناة وحولها خندق أجري فيه الماء ووراء الخندق الشوارع للمارة والباعة ووراءها الارباض

وداخل السور الاعظم سورٌ آخر اصغر منه وبين السورين فراغ فيه ابنية لاهل الاسواق ينتهي الى كل من السورين بشارع مرصف بالحجارة . فسور المدينة عبارة عن ثلاثة اسوار اعظمها أوسطها

وللسور اربعة ابواب كبار سميت باسماء المدن التي تتجه نحوها وهي باب خراسان وباب الشام وباب الكوفة وباب البصرة . وكل منها مؤلف من عدة ابواب عليها الابراج ولها الشرفات والكوى . ولكل باب اربعة دهاليز عظام طول كل دهليز ٨٠ ذراعاً كلها معقود بالآجر والجص . فاذا دخل الرجل في الدهليز الذي على الفصيل او السور الخارجي وافى رحبة مفروشة بالصخر ثم دهليز السور الاعظم وعليه بابان حديديان عظيمان لا يغلق الواحد منها الا جماعة من الرجال وهما عظيما الارتفاع يدخل الفارس في كل منهما بالعلم والرامح بالرمح الطويل من غير ان يميل العلَم أو يثني الرمح . فاذا مرَّ الراكب من دهليز السور الاعظم سار في رحبة الى طاقات معقودة بالاجر والجص فيها كوى رومية مصنوعة على كيفية خاصة بحيث تدخل منها اشعة الشمس او الضوء ولا يدخل منها المطر

وفيها منازل الغلمان

وفوق كل باب من ابواب السور الاعظم قبة معقودة عظيمة مذهبة حولها مجالس ومرتفقات يجلس فيها المرء فيشرف على كل ما يعمل به . ويصعد الى هذه القباب على عقود مبنية بعضها بالجص والآجر وبعضها باللبن العظام قد عملت آزاجاً بعضها اعلى من بعض [1] بشكل عجيب رهيب

فأطل ابن الفضل بموكبه على باب خراسان وبجانبه الملفان سعدون على بغلته فلما رآهما الحرس وسعوا لهما اجلالاً لابن الوزير فتقدما وهما راكبان والخدم في ركابهما فدخلوا من الدهليز على الفصيل او السور الخارجي . ثم سمعوا قرقعة حوافر دوابهم على الرحبة المفروشة بالصخر الى دهليز السور الاعظم . وكان البوابون لما علموا بقدوم ابن الفضل تعاونوا على فتح احد البابين العظيمين فسمع لفتحه صرير هائل لثقل حديده وعلوه فدخل الفرسان فيه وهم ركوب على افراسهم وما زالت العتبة العليا تعلوهم كثيراً . وكان سعدون في اثناء ذلك ينظر الى ما وراء تلك الرحبة من الطاقات المعقودة والى شكل كواها الرومية وقد تأكأ فيها الغلمان يطلون منها على ذلك الموكب

فلما خرجوا من الباب المذكور الى الرحبة بينه وبين الطاقات حوّل سعدون بصره نحو القبة العظمى المعقودة فوق الباب وما يغشاها من الزينة المذهبة ويتعلق بها من المجالس والمرتفقات المشرفة على كل ما حولها وما عليها من المصاعد المبنية بالجص بعضها فوق بعض وقد وقر في نفسه شكلها وعظمها

الفصل السابع والعشرون

قصر باب الذهب

فلما تجاوزوا تلك الطاقات وصلوا الى باب آخر غير ابواب السور استطرقوا منه الى الرحبة الكبرى في منتصف المدينة وفي وسط الرحبة قصر المنصور وهو الذي يسمونه قصر باب الذهب نسبة الى بابه المذهب . وبجانب القصر المسجد الجامع

(١) كتاب البلدان لليعقوبي ١٠

المعروف بجامع المنصور ومشوا في الرحبة مسافة كبيرة في خلاء لا بناء فيه حتى انبلوا على القصر والجامع في وسط الرحبة وحولهما فناء خال من الابنية الا داراً من ناحية الشارع المؤدي الى باب الشام يقيم فيها الحرس الخاص وسقيفتين ممتدتين على عمد مبنية بالآجر والجص يجلس في احداهما صاحب الشرطة وفي الاخرى صاحب الحرس وحول الرحبة كما تدور منازل كانت لابناء المنصور الاصاغر ومن يقرب من خدمته وعبيده . وابنية لبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وسائر الدواوين وبين الطاقات الى الطاقات السكك والدروب تعرف بقواد المنصور ومواليه (١)

وكان الفضل كلما اقبل على باب وقف له حراسه فلما دخل الرحبة الكبرى استلفت انتباهه الصهيل والحمحمة والنهيق وغيره من اصوات الدواب لان الرحبة كانت غاصة بالافراس والبغال والحمير فضلاً عما ادخل منها الاسطبلات ومعها العبيد والخدم في انتظار من جاء عليها من الامراء والقواد لتهنئة الامين بالخلافة او من جاء لغرض آخر . وكان سعدون (او سلمان) ينظر الى ذلك ويراقبه ولا يبتعد ببغلته عن ابن الفضل حتى اذا دنوا من القصر تحول ابن الفضل نحو السقيفة التي يقيم بها صاحب الشرطة لمقابلة ابن ماهان قبل الدخول على الخليفة فارسل بعض من في ركابه من الخدم ليتقدمه بالسؤال عنه في السقيفة فعاد وهو يقول انه في حضرة امير المؤمنين بعث اليه من بضع دقائق

فلم يتعجب ابن الفضل لذلك ولكنه كان يرجو ان يراه قبل دخوله على الامين ليتفق معه على تقديم الملفان سعدون اليه . ولكنه لم يربدًا من النزول عن الفرس ونزل سعدون عن بغلته ومشيا الى باب القصر فوقف لهما الحرس وهم ينظرون الى ذلك الملفان ويستغربون شكله وقيافته ومشيته بعكازه والدواة في منطقته وهو يمشي بجانب ابن الفضل وقليلاً الى ورائه . فمشيا في باحة تنتهي بباب القصر الداخلي وفي الباحة جماعات من القادمين على الخليفة وفيهم الامراء والقواد والشعراء وغيرهم من الوفود في مثل ذلك الحين . وكان الامين كريماً جواداً ولا سيما على الجند رغبة في استنصارهم لما يعلمه من صعوبة مركزه ولذلك رأيته اعطاهم رزق ٢٤ شهراً يوم مبايعته ففرحوا وفرح معهم اهل بغداد كافة لان هذه الاموال تنفق في المدينة فيدفع الجند منها ما عليه ويبتاع ما يحتاج اليه من الآنية او الطعام

(١) اليعقوبي ١١

او اللباس فلا غرو اذا سرَّ البغداديون بتبديل الخلفاء بعد ان جرت العادة ان يأمروا بمثل هذا العطاء عند مبايعتهم

وعرف ابن الفضل كثيرين من الوقوف هناك وخاطبه بعضهم وتزلف اليه آخرون لانه ابن الوزير والوزير يومئذ صاحب الحل والعقد. فسال بعضهم عن سبب وقوفهم هناك فقالوا « ان الخليفة في شاغل مع صاحب الشرطة بعد ان جاءه هذا الرسول » واشاروا الى رجل واقف في بعض جوانب الباحة . فعرف ابن الفضل انه من موالي ابيه وكان الرجل قد رأى ابن الفضل مارًّا فلم يجسر على مبادأته بالحديث فلما رآه ينظر اليه و يبتسم هرول نحوه وقبل يده فقال له « ما وراءك .. ؟ وما الذي جاء بك ؟ »

قال « ارسلني مولاي الوزير برسالة الى امير المؤمنين »

قال « اين والدي الآن ؟ »

قال « هو قريب من بغداد وقد ارسلني لابشر بقدومه »

قال « وهل جئت بكتاب منه »

قال « جئت بكتاب دفعته الى امير المؤمنين ولعله هو السبب في تاخير الاذن للناس في الدخول اليه كما ترى وانما دخل عليه صاحب الشرطة .. »

فاشتد ميل ابن الفضل للدخول على الامين وان لم يؤذن لسواه فيفاخر اهل البلاط بدالته على صاحب الخلافة فظل ماشيًا وابن سعدون بجانبه حتى اقبل على باب القصر والحرس الشاكرية وقوف بالاسلحة . فتأدبوا عند مشاهدته ثم خرج الحاجب لملاقاته وتلطف بالترحيب به وفي غنة صوته وملامح وجهه شبه اعتذار عن عدم ادخاله . فادرك ابن الفضل غرضه فابتدره قائلاً « استأذن امير المؤمنين بدخولي ودخول رفيقي هذا » واشار الى سعدون

فتردد الحاجب حينًا ولم يجسر على التصريح بان امير المؤمنين لا يؤذن لاحد ثم غلبت عليه الطاعة فدخل على الامين وظل ابن الفضل في انتظاره والناس ينظرون اليه و يتوقعون ان يرد طلبه فيفشل في ما اراده من التقدم عليهم جميعًا . اما هو فكان لا يتوقع غير الاذن له لما يعلمه من نفوذ ابيه . و بعد هنيهة عاد الحاجب وهو يبتسم وقال « تفضل ادخل اذا شئت »

فدخل الى مكان تخلع فيه الاحذية فخلع حذاءه وفعل سعدون مثل فعله وتقدم بعض الخدم تناولوا الحذاءين ووضعوهما في اماكن معدة لذلك . ومشيا على الابسطة

المفروشة في الدهليز وتطرقا من قاعة الى قاعة والحاجب يمشي بين يديهما حتى وصلا الى مجلس الامين وعلى بابه ستر من الديباج المطرز فتقدم الحاجب وازاح الستر وصاح « ان مولاي ابن الفضل ورفيقه بالباب »

فقال الامين « يدخل »

الفصل الثامن والعشرون

مجلس الامين

وكان الامين جالساً في صدر القاعة على سرير من الابنوس المنزل بالعاج بلا ترصيع ولا تذهيب لانه السرير الذي كان يجلس عليه المنصور قبل اغراق العباسيين في الحضارة والترف واستخدام الذهب والجوهر في آنيتهم ومجالسهم . وفي ارض القاعة طنافس ثمينة قليلة الزينة عليها الوسائد والكراسي . وكان على الامين لباس نحو لباسه يوم المبايعة لانه ما زال يستقبل المهنئين والمبايعين . فدخل ابن الفضل ورفيقه فرأيا بين يدى الامين ابن ماهان صاحب الشرطة وقد قعد على وسادة قعود اهل الدالة بلا كبير تهيب لان الامين لم يكن في مثل هيبة ابيه ولا سيما مع من تعود مجالستهم من خاصته في مجالس الشرب او الطرب . وعلى الخصوص ابن ماهان ونحوه من ذوى شوراه ممن يحتاج الى رأيهم اومساعدتهم . وكان الامين شديد الثقة بابن ماهان وبالفضل بن الربيع يستشيرهما في مهامه . وجاءه كتاب الفضل في ذلك الصباح ينبئه بقدومه ومعه الاحمال ومن بقي من رجال الرشيد وانه لا يلبث ان يصل بغداد ويقص عليه تفصيل ما فعله . فاهتم الامين بذلك الكتاب وبعث الى ابن ماهان ليطلعه عليه وامر ان لا يدخلوا احداً من الزوار . فجاء ابن ماهان فدفع اليه الامين كتاب الفضل ولم يكد يتم قراءته حتى جاء الحاجب يستاذن لابن الفضل ورفيقه فسأل الامين عن ذلك الرفيق فقال الحاجب « هو رجل من علماء حران كانه حاخام او ملفان »

فقال « وما شأنه »

فعلم ابن ماهان انه الملفان سعدون فتبسم وقال « اظنه الملفان سعدون الحراني ... ان لهذا الرجل شاناً عظيماً وله قوة غريبة على استطلاع الغيب .. »

فالتفت الامين الى ابن ماهان وقال « هل تعرفه ؟ »

قال « اذا كان هو الملفان سعدون فقد عرفته لاني اجتمعت بهِ في جسهِ ورأيت منه المعجزات »

فهزَّ الامين رأسه وقال « اني قليل الثقة بهؤلاء الدجالين »

قال « ليس الرجل دجالاً يا مولاي بل هو منجم »

قال « المنجمون كثيرون عندنا وقلما يصدقون »

قال « سترى ما لم تعهده في سواه فاذا اذنت بدخوله انبأك نبأً غريباً وعند الامتحان يكرم المرء او يهان »

فاشار الامين الى الحاجب ان يدخلها فخرج وادخلها

فلما اقبل ابن الفضل على الامين حياه بتحية الخلافة ووقف حتى اشار اليه بالجلوس والتفت الى الملفان فابتدره هذا بالسلام ايضاً فقال له « اجلس يا ملفان »

فجلس على البساط جاثياً وتأدب في مجلسه وهو مطرق ساكت فقال له الامين « اخبرنا صاحب شرطتنا انك من اهل التنجيم .. »

فاجاب سلمان « اني من عبيد امير المؤمنين .. »

قال « وهل أنت صادق في تنجيمك ؟ »

قال « عليَّ ان اصدق في ابلاغ امير المؤمنين ما أراه واقرأه حسب قواعد هذا العلم وله الرأي في تصديقه او تكذيبه .. »

فحوَّل الامين نظره الى صاحب الشرطة كانه يستشيره في ما يمتحنه به فقال « هذا كتاب الوزير يقول فيه انه سيقص على امير المؤمنين ما فعله في طوس فيمتحن الملفان بذلك »

فاستحسن الامين هذا الامتحان فالتفت الى سعدون وقال « جاءنا كتاب وزيرنا الساعة انه قادم الينا فهل لك ان تخبرنا بما سيتلوه علينا ؟ »

فاحنى الملفان رأسه احتراماً ثم مد يده الى جيبه واخرج ذلك الدرج فحل المنديل عنه واخذ يقلبه بين يديه ويتمتم ويظهر انه يقرأ ويتفهم ويتفطن . ثم رفع بصره الى الامين وقال « ان الوزير حفظه الله يحمل اليك خبراً هاماً يتعلق بالخلافة »

فضحك الامين ضحك الاستخفاف وقال « طبعاً انه يعلم بمبايعتي وليس في ذلك شيء من الغيب .. ! »

قال الملفان « نعم يا سيدي صدق امير المؤمنين ولكن الوزير سينقل اليك شيئاً جديداً يتعلق باخيك المامون .. هل يسيئك انه اخرجه من البيعة ؟ »

فبغت الامين لهذا السؤال وقال « وهل أخرجه منها ؟ »

فهزّ الملفان كتفيه وقال « يظهر لي مما اقرأه في هذه الاوراق انه فعل ذلك ولم يجد مشقة فاذا كان فيه ما يسوء امير المؤمنين فلا ذنب لي .. »

فتظاهر الامين باستيائه لاخراج اخيه من البيعة وقال « وهل فعلها الفضل ... ؟ اظنه لم يفعل فاحذر مما تقوله واعلم انك تقول قولاً تقطع عليه الرقاب »

فقال بجاش رابط « قلت لمولاي اني لا أقول شيئاً من عند نفسي وانما انا اقرأه في ما بين يدي .. واذا اقفلت الكتاب نسيت ما قلته .. »

فقال الامين وهو يظهر الغضب « انها وشاية تعاقب عليها .. »

قال وهو ساكن الجاش « العفو يا مولاي لاذنب لي في ما قلته فاني اقول ما اراه ولا اعهد هذا العلم يخدعني من قبل .. »

فبالغ الامين في اظهار التهديد وقال « يكفي .. » والتفت الى ابن الفضل وقال « هل جاءك من ابيك شيء من هذا القبيل . ؟ »

قال « كلاً يا مولاي انه لم يكتب اليّ بشيء » ولم يجسر ان يخبره بما قصه عليهم الملفان بالامس

والتفت الامين الى ابن ماهان وقال « قلت لكم ان هؤلاء المنجمين يتقربون الينا بكذبهم .. »

فابتسم ابن ماهان ابتسام المستعطف وقال بصوت منخفض كأنه يسارّ الامين « ولكنني أعرف صدق الملفان سعدون بالاختبار . واذا شاء مولاي ان يختبر صدقه فعل .. ان الوزير لا يلبث ان يصل بغداد الليلة او في صباح الغد فاذا جاء سأله مولاي عما فعله والرأي بعد ذلك لامير المؤمنين .. »

وكان الملفان في اثناء ذلك يتشاغل بتقليب الدرج بين يديه وهو يتمتم كأنه لا يسمع ما يقولون حتى سمع الامين ينادي « يا غلام »

فدخل الحاجب وتادب فقال « قل لصاحب الانزال ان ياخذ هذا الملفان الى دار الاضياف . يقيم هناك في كرامة ورعاية حتى اطلبه » والتفت الى الملفان وقال « تفضل ان شئت وكن مطمئناً حتى ندعوك »

فنهض سلمان واستعاذ بالله من الانتظار مخافة ان يبطىء على اهل القصر المأموني وهم في قلق على تاخر الطبيب بهزاد ولكنه لم يرَ بدًّا من الطاعة فاخذوه مكرماً الى منزلٍ بجانب

مطبخ العامة وامروا له بما يحتاج اليه من الطعام والشراب

الفصل التاسع والعشرون

الامتحان

فمكث هناك كانه على الجمر وكاد ينـدم على مجيئه . قضى في ذلك طول النهار وفي ضحى اليوم التالي جاءه رسول الخليفة يستقدمه الى المجلس الخاص فسار بعد ان اصلح هندامه واتقن تنكره وهو يتظاهر بالسذاجة وصفاء النية وخلوص السريرة حتى دخل على الخليفة كالامس وعنده ابن ماهان وابن الفضل فامره الامين بالجلوس وقال له « ان وزيرنا الفضل آت بعد هنيهة وسنسالهُ عن امره بحضورك ونرى ما يكون »

فاحنى راسه مطيعاً ووقف فامر له الامين بالجلوس فجلس

ثم جاء الحاجب وهو يقول « ان الوزير الفضل بالباب يا مولاي .. »

فابرقت امرة الامين وصاح « يدخل وزيرنا الفضل .. »

وما عتم ان عاد الحاجب ووسع الستر فدخل الفضل وآثار السفر بادية في وجهه فحياً بتحية الخلافة وقال « يعذرني امير المؤمنين ان ادخل عليه قبل اصلاح شاني .. »

وكان الفضل يومئذ في اواسط الكهولية وقد وخط لحيته الشيب وتغضن جبينه وظهر تغضنه مع ان اكثره مخبأ تحت القلنسوة . وقد تردى بالقباء الاسود على عادة الداخلين على الخلفاء العباسيين

فهشَّ له الامين واجلسه على كرسي بجانبه . فاخذ الفضل يعزيه بالرشيد ويدعو له بطول البقاء ثم هناه بالخلافة وسكت وهو يردد نظره بين الجلوس كانه يلتمس الخلوة ليقص عليه ماجاء به من الخبر الهام

فابتدره الامين قائلاً « اذا كنت قد جئتنا بخبر اقصه علينا »

قال « اقصهُ الآن .. ؟ »

قال « نعم قل ما عندك ان هذا المنجم يزعم انه عرف ما فعلته وأحبُّ ان امتحن معرفته فاذا كان مصيباً انعمنا عليه والا كان عقابه شديداً »

فقال ابن ماهان « هل يؤذن امير المؤمنين بكلمة »

قال « قل »

قال « اذا كذب هذا الملفان كان جزاؤه القتل اما اذا صدق فهل يأمر مولاي ان يجعله كبير المنجمين في قصره لعله ينفعنا بعلمه »

قال « حسناً اني فاعل » والتفت الى الفضل وقال « قل ما الذي فعلته باخينا عبد الله المأمون والخلافة ؟ »

فاستغرب الفضل سؤاله على هذه الصورة وقال « فعلت ما اعتقده عائداً على مصلحة الدولة بالخير .. لا يخفى على امير المؤمنين ان مولانا الرشيد كان عند سفره قد بايع للمأمون بالخلافة باغراء بعض ذوي الاغراض واوصى له بجميع ما في عسكره مع ان البيعة سبقت لاخيه الامين صاحب هذا العرش . فلما قبض الرشيد رأيت بقاء بيعة المأمون سيأول الى انقسام الخلافة واستفحال الفتنة واستشرت اصحابي وقرّ رأينا على الرجوع الى الصواب فابطلنا بيعة المأمون وجعلنا الخلافة مستقلة لمولانا امير المؤمنين »

قال « والمأمون ماذا فعلتم به ؟ »

قال « لم نفعل به شيئاً فانه باق على خراسان كما كانت الوصية له من قبل على ان يكون ولياً للعهد »

« فما اتم كلامه حتى بانت الدهشة في وجه الامين ونظر الى الملفان سعدون فرآه مطرقاً هادئاً لا يخامره خوف ولا اضطراب فلم يتمالك الامين ان صاح به « ويلك من اين اتاك علم الغيب ؟ »

فرفع بصره الى الامين وقال « لا فضل لي يامولاي ان هذا العلم معروف عند المنجمين ولكن الذين يصدقون في استخدامه قليلون »

فقال « انما اعجبني صدقك من غير ادعاء وقد جعلناك رئيس المنجمين »

فوقف سلمان وانحنى بين يدي الامين ودعا له بطول البقاء ثم قال « ان هذه نعمة لا استحقها .. »

قال « بل انت اهل لذلك وهذا جزاء الصادقين » وصفق فجاء الحاجب فقال له « قل لقيم الدار ان يعد للملفان منزلاً يقيم فيه وان يفرض له العطاء انه قد صار رئيس المنجمين .. » واشار الى الملفان ان يجلس

فانحنى ثانية وكرر الدعاء وجلس وهو يقول « ان منازل امير المؤمنين واسعة وحيثما اقمت فانما اكون في حياطته غارقاً في نعمائه واذا سمح ان اقيم حيث شئت كان ذلك ادعى لمرضاته

لاني لا استغني عن الانفراد في منزلي احياناً لعمل المندل او مطالعة كتب التنجيم على ان اكون بين يدي امير المؤمنين متى شاء .. ولو جاز ان ترد هبته لتقدمت اليه ان يجعلني خادماً رقاً بلا اجر ولا اجرة فان من يتعاطى هذه الصناعة على حقها وجب عليه انكار نفسه والبعد عن ملاذ الدنيا وعن التوسع في اسباب العيش ولكن نعم امير المؤمنين لاترد .

فاستغرب الامين هذا التعفف ولم يخطر له سماعه من مثل هذا الرجل وهو يعلم ان امثاله انما يتقربون الى دار الخليفة طمعاً بالمال فالتفت الى ابن ماهان والاستغراب باد في وجهه كانه يستطلع رأيه فقال ابن ماهان « ان الملفان سعدون هذا طبعه والامر لامير المؤمنين »

فقال « ولكننا قد نحتاج اليه في ساعة لا نجده فيها »

فقال الملفان « اني اقيم في دار امير المؤمنين على ان يؤذن لي بالخروج الى منزلي متى رأيت في الخروج فائدة لا يعترضني احد ولا اظن الحاجة تمس الى حضوري الاَّ واكون حاضرًا »

فقال الامين « انت حرٌّ في ذلك »

وكان الفضل في اثناء الحديث ينظر الى الملفان سعدون ويتفرس فيه وقد دهش لما سمعه منه وكانه ارتاب في امره

اما الامين فكان شديد الرغبة في سماع تفصيل الخبر من الفضل فالقى قضيب الخلافة على السرير الى جانبه وتزحزح من مكانه فادرك الحضور انه يريد انصرافهم فوقفوا واشار الى الفضل ان يبقى وخرج الباقون . اما سلمان فذهب الى بغلته ليركبها ويسير الى القصر المأموني

الفصل الثلاثون

الى المدائن

اما القصر المأموني فقد تركنا اهله بعد ذهاب سلمان قبل الامس على موعد منه ان يبحث عن بهزاد ويعود اليهم بالخبر فانقضى النهار ولم يعد فباتوا على احر من الجمر واصبحوا في اليوم التالي وهم يتوقعون قدوم بهزاد او قدوم سلمان بخبر عنه . فمضى معظم النهار ولم يعد حتى

اخذ القلق منهم ماخذاً عظيماً . ومما زاد قلقهم ان زينب بنت المأمون اصابها في ذلك الصباح حمى شديدة على اثر ما انتابها من الحزن مع عدم انتظام طعامها وشرابها فتلبكت معدتها واحست بالسخونة . ولا تسل عن حال دنانير عند ذلك فاصبحت شديدة الخوف وتقدمت الى زينب ان تدعو لها احد اطباء القصر وهم كثيرون وفيهم المهرة من كل طبقة فلم ترض الاَّ بهزاد وارسلوا الغلمان يستشرفونه من الطرق او على الشاطىء وقد كاد القلق يذهب براحتهم ولا سيما ميمونة فان قلقها كان اثقل على الطبع من قلقهم جميعاً لانها تحاذر ان تظهره وتخشى اذا صرحت بكل ما يخطر لها ان ينتقد عليها

على انها لما رأت زينب مصابة بالحمى هان عليها اظهار قلقها بحجة خوفها على صحة بنت المامون واخذت تطل ساعة من الشرفات على الطرق واخرى من الابواب الى دجلة لعلها تراه قادماً على فرسٍ او في قارب . ولما اعياها البحث جلست في غرفة منامها وقد كلَّ دماغها من الاهتمام وبان التعب في محياها فعلاه شحوب وتقطبَ فاستلقت على الفراش وهي تحسب لتأخر بهزاد الف حساب وتراجع ما دار بينها وبينه في ساعة الفراق فلا تزداد الاَّ رغبة في لقائه لتحقق ما في نفسه . وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب فاظلمت الدنيا في عينيها قبل غيابها ولم تعد تصبر على البقاء هناك فخرجت وهي تتوقع ان تلاقي من يخبرها بقدومه أو تسمع صوته في الدهليز — وانما توقعت ذلك لان رغبة الانسان في الامر تصور له سهولة الحصول عليه وان يكن مستحيلاً بنفسه فكيف ومجيء بهزاد يعد من اقرب الامور لانهم على موعد منه

وخرجت ميمونة في الدهليز الى الباب المطل على دجلة وجلعت تتفرس في ما يمر امامها من السفن الصاعدة والنازلة وتتمنى ان يكون بهزاد في واحدة منها . وتوهمت غير مرة انه هناك فلما تكررت خيبتها اصبحت تعتقد انه لن ياتي . ثم جلست الى مقعد بجانب نافذة تطل على دجلة واخذت تنكهن في قدومه وتتلاهى بالتفاؤل والتطير على ما يقتضيه الاضطراب في حين لا يرى صاحبه مصرفاً او شاغلاً . فصارت اذا رأت طيراً يسبح في الفضاء قالت في نفسها اذا غط هذا الطائر على هذه الشجرة كان بهزاد قادماً الليلة او اذا تحول الطير يميناً او شمالاً كان ذلك فالاً على قدومه او شؤماً على عدم قدومه . فاذا خالف الطائر ما تتمناه توهمت انها تمنت عكس ذلك فتنتقل الى التفاؤل بذبابة تحوم حول وجهها فتضمر ان الذبابة اذا غطت على وجهها دلت على قدومه فربما غطت على يدها فجوزت ان يكون ذلك مصداقاً لضميرها

قضت في ذلك حيناً فلما اظلمت الدنيا انتبهت لنفسها كانها تسمع خفق نعال على المسناة قرب الباب فخفق قلبها واطلت فلم تجد احداً . فنهضت واسرعت الى غرفة زينب فرأت جدتها بجانب سرير الفتاة ودنانير جالسة على السرير قربها . وقد توردت وجنتا زينب من شدة الحمى وكلهم سكوت . فلما اطلت ميمونة ابتدرتها دنانير قائلة بصوت مخنوق «أرأيت مافعله الطبيب ؟ . »

فقالت ميمونة « انه ابطأ علينا ولا بد من شاغل شغله عنا »

فقالت عبادة « واغرب من ذلك غياب سلمان بعد ان وعدنا بالبحث عنه . . . لا اخال بهزاد الاَّ في المدائن الآن وكنت اود انني ذهبت للتفتيش عنه هناك من هذا الصباح . . »

فقالت دنانير « اذا لم يات غداً ارسلنا في طلبه الى المدائن »

فقالت ميمونة « غداً اذهب اليها مع جدتي وارجو ان نجده في منزله . . »

قالت دنانير « سنتحملان المشقة في هذا الامر و . . »

فقطعت عبادة كلامها قائلة « لا مشقة علينا في ذلك ولا نظن احدا يعرف مكانه مثلنا لاننا نعرف البلدة ونعرف بيته فيها فاذا لم يات الليلة ولا صباح الغد ولا اتانا سلمان بخبره ذهبت انا وميمونة للبحث عنه هناك . . »

قالت دنانير « بارك الله فيكما وسننتظر الى الغد والاتكال على الله . فاذا لم يكن بد من ذهابكما سرتما في بعض سفن القصر ومعكما النوتية والخدم . . ولولا اصرار مولاتنا على الاستشفاء بدواء هذا الطبيب لكان لنا غنى عن هذه المشقة ببعض اطباء هذا القصر »

الفصل الحادي والثلاثون

في دجلة

فسرت ميمونة لهذا العزم وعادت الى التشاغل حتى آن الرقاد فناموا . واصبحوا في اليوم التالي وزينب احسن حالاً وقد خففت الحمى وأما ميمونة فالحت على جدتها ان تصرَّ على الذهاب الى المدائن قياماً بخدمة اهل ذلك القصر في مقابل ما لقوه من اكرامهم ورعايتهم . فاطاعتها جدتها وألحت على دنانير ان تامر باعداد حراقة تسيران بها الى المدائن فامرت فيم

القصر ان يامر باعدادها فاعدت نحو الظهيرة وفيها النوتية و بضعة من غلمان القصر . فركبتا فيها واشارت عبادة الى الربان ان يسير جنوباً فادار الدفة ونشر الشراع وساروا وجلست ميمونة على مقعد تشرف منه على الشاطيء الايسر لعلها ترى بهزاد مارًّا على جواده في البر ووجهت عبادة التفاتها الى النهر لعلها تراه في سفينة

مخرت الحراقة بهم ساعة وهي تسير بمجرى النهر اكثر مما بالشراع وكان سيرها سريعاً ولكن ميمونة كانت تستبطئها وتكاد تحسبها واقفة لفرط رغبتها في سرعة الوصول وكانت عبادة جالسة بالقرب منها صامتة وكل من في القارب سكوت لا يسمعون غير فقش الماء أمامهم من اختراق مقدم السفينة لعباب الماء

وهم في ذلك اذ سمعوا ضوضاء وجلبة وراءهم فالتفتت ميمونة فرأت حراقة تسير في أثر حراقتهم مسرعة فتفرست فيها فرأتها جميلة الصنعة عليها نقوش مذهبة ومقدمها على شكل الفيل بخرطومه وناببه فاستغربت منظرها واستلفتت جدتها الى ذلك فصاحت العجوز « هذه حراقة الخليفة انها من سفن الامين — وللامين خمس حراقات على صورة الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس انفق فيها مالاً كثيرًا »[1]

فخفق قلب ميمونة وتصاعد الدم الى وجهها فتوردت وجنتاها ثم ذهب الاحمرار فجأة وامتقع لونها وصاحت « ويلاه .. اني ارى اصحاب هذه الحراقة سائرين في اثرنا .. ماذا يريدون منا ؟ »

فاشارت اليها جدتها ان تستتر بالسارية واسرعت الى ربان حراقتهم فاشارت اليه ان يحل الشراع ويسير على مهل ويتحول نحو الشاطيء ويفتح الطريق لتلك الحراقة

فادار الدفة والتفت عبادة بثقابها وانزوت بجانب ميمونة . وكانت حراقة الامين قد دنت منهم فعرفتا من خلال تلك الضوضاء انها تحمل جندًا وعيارين وسمعت رجلاً منهم يقهقه قهقهة السكارى ويقول « هذه غنيمة باردة »

فاجابه آخر « مالكم وللغنائم الم يكفكم ما نلتموه من بيت المال ... رزق ٢٤ شهرًا فقبض راجلكم ٤٨٠ درهماً دفعة واحدة فضلاً عن حصتكم من الغنائم ...[2] انكم لا تشبعون .. اما نحن العيارين فلا رزق لنا من غير الغنائم اذ لا رواتب لنا من رزق خاص .. »

فضحك ذاك وقال « انكم معشر العيارين اكثر منا رزقاً لانكم ربما ذهبتم في مهمة

(١) ابن الاثير ١٢٠ ج ٦ (٢) تاريخ التمدن الاسلامي ٢٥٢ ج ٣

خصوصية تنالون منها دفعة واحدة مالا يتيسر لنا في اشهر . مثل هـذه المهمة فاذا توفقتم الى القبض على ذلك الخراساني أصبتم رزقاً كثيراً ...»

فنفر الآخر منه وقال «لاظن امير المؤمنين يعطينا شيئاً كثيراً اذا قبضنا عليه . فقد طالما قبضنا على امثاله ولم ننل الاّ دراهم معدودة»

فضحك الجندي مقهقهاً وقال «العطاء يختلف مقداره باختلاف الاحوال اتريد ان يعطوكم على لص تقبضون عليه كما يعطونكم على مثل هذا الرجل ؟.»

فقال «وما الذي يميزه عن سواه ... دعنا من هذه الآمال الفارغة»

قال وهو يحسب انه يهمس في اذنه وصوته ما زال مرتفعاً بحيث تسمعه ميمونة «ان هذا الخراساني له شأن عظيم عند امير المؤمنين لم نكن نعلمه قبل مجيء الوزير في هذا الصباح ..»

وكانت ميمونة منزوية وراء السارية تسمع مايدور بينهم فلما سمعت ما قالوه عن الخراساني اختلج قلبها في صدرها لئلاّ يكون المراد حبيبها فاصاخت بسمعها وركبتاها ترتعدان فسمعت رجلاً آخر يقول «مالكم ولهذا الهذيان ؟ فاذا سمعكم مولانا الهرش أسمعكم ما تكرهون . وما نحن في معرض جدال وانما جئنا للقبض على ذلك الرجل المتستر فاذا ظفرنا به فكلنا يكسب ...»

وكانت الحراقة قد حاذت حراقة المامون ولما سمعت ميمونة الاشارة الى حبيبها على تلك الصورة لم تتمالك عن النهوض والالتفات نحو المتكلمين فرأت جمهوراً كبيراً من الجند والعيارين في جلبة وضحك وصياح كأنهم سكارى يعربدون وقد تقلدوا الاسلحة ورأت على مقعد في طرف السفينة رجلاً قصيراً ممينا عليه قيافة الرئاسة فوخزت جدتها وسألتها هل تعرف هؤلاء فرفعت عبادة بصرها وحالما رأت الرجل همست في اذنها «انه الهرش رئيس العيارين»

ووقع بصر احد العيارين في اثناء ذلك على ميمونة وقد زادها الخوف والقلق رقة ورونقاً فصاح «اني ارى جارية حسناء ... لعلها من القيان .... اربط يا ريس ... لنسمع غناءها ..»

فارتعدت ميمونة خوفاً وجمد الدم في عروقها وادركت جدتها خوفها فنهضت لتستحث صاحب الدفة على الفرار او الدفاع فسمعت رجلاً من تلك الحراقة يقول بصوت منخفض «دع عنك الفضول .. ألا ترى الراية ...»

فتجمهر جماعة ونظروا الى راية منصوبة في مقدم الحراقة وهم يقولون والسفينة تجري بهم وقد تجاوزت حراقة المأمون « انها راية المامون .. اخي امير المومنين . دعونا منها »

فسرّت ميمونة بانصراف الخطر عنها ولكنها اصبحت في قلق عظيم على حبيبها ورجحت انهم سائرون في طلبه فالتفتت الى جدتها والدمع يترقرق في عينيها وقالت « انهم يطلبون بهزاد ؟ .. ويلاه » قالت ذلك وقد نسيت انها تكتم حبها عن جدتها

فقالت عبادة وقد حملت خوفها محملاً آخر « لا تخافي يا حبيبتي .. لا اظنهم يطلبونه ولكننا على كل حال سنسبقهم اليه ونتنبهه الى الخطر فينجو باذن الله » ونهضت الى صاحب الدفة وامرته ان ينشر الشراع ويسير سريعاً في اثر تلك الحراقة

الفصل الثاني والثلاثون

اللهفة

فمخرت السفينة على عجل وميمونة يكاد يشتعل قلبها لهفة وهي واقفة وعيناها شائعتان تنظر تارة الى الحراقة وطوراً الى الشاطيء لا تعلم ماذا تعمل وتحيرت في امرها وهي لم تعد تمتلك التكتم والاحتراس فابتدرتها جدتها قائلة « لا تخافي يا بنية اننا سنصل الى بهزاد قبلهم وان سبقونا بحراقتهم » واسرعت الى مقدم السفينة وجعلت تنفرس بالشاطيء على اليسار وتنظر الى ابعد ما يقع عليه بصرها في عرض الافق وميمونة واقفة الى جانبها وهي ترتعد وركبتاها تصطكان وقد امسكت بكتف جدتها تتوكأ عليها خوفاً من السقوط والسفينة تشق الماء والريح تنقر على الشراع وحراقة المامون اسرع من حراقتهم . فسارت الحراقتان ساعتين وهما متقاربتان وتلك الى الامام وعبادة واقفة وبصرها شاخص الى الافق وهي صامتة حتى اشرفت على بناء شامخ تراءى لها عن بعد فصاحت « هذا هو الايوان ... اننا على مقربة من المدائن .. »

ثم تحولت الى الربان وصاحت به « اترى هذه الناعورة (الساقية) امامك ؟ »

قال « نعم يا مولاتي اني اراها »

قالت « اوقف الحراقة عندها » ثم التفتت الى ميمونة وهمست في اذنها « اذا نزلنا هنا وطلبنا منزل بهزاد وصلناه قبل اولئك بوقت طويل .. »

فخلوا الشراع وادار الربان الدفة و بعد هنيهة رست بهم الحراقة عند الساقية فامسكت عبادة بيد ميمونة ونزلتا الى الشاطيء وقالت عبادة للربان « امكث هنا حتى نعود اليك . . »

فقال « الا تامرين بمن يسير في خدمتكما ؟ »

قالت « كلا »

فقال « سمعاً وطاعة »

وهرولت عبادة مسرعة وميمونة تعدو في اثرها وقد مالت الشمس نحو المغيب وعبادة تعرف الطريق جيداً وتعرف حناياها ومختصراتها فسارتا على هذه الصورة نصف ساعة فتعبت العجوز وكادت تخور قواها وتسقط وميمونة لا تبالي بالركض من شدة لهفتها ونسيت ضعف جدتها وشيخوختها فما لبثت ان رأتها تلهث من التعب والعرق يتصبب من جبينها وانفها وسالفيها ولم تعد تقوى على العدو فوقفت ثم قعدت على حجر واخذت تمسح عرقها وتلهث . فاستاءت ميمونة من قعودها وو ت لو كان لها اجنحة لتطير بها الى منزل بهزاد وتحيرت في هل تترك جدتها هناك وتسير وحدها وهي لا تعرف الطريق ولا يطاوعها قلبها على ترك جدتها منفردة في ذلك المكان ام تصبر ريثما تستريح فتضيع الفرصة فجعلت تمسح لها عرقها وتنشطها وتخفف عنها وعبادة لا تستطيع الكلام من شدة التعب و بعد بضع دقائق قالت « اننا على مقربة من البيت . . . الا ترين هذه النخلة الباسقة . ؟ . »

وكانت الشمس قد توارت بين النخيل على الشاطيء الغربي وراءها فنظرت ميمونة شرقاً نحو الافق فرأت تلك النخلة فصاحت « اليست هي النخلة التي تعودنا الاستظلال بها اذا خرجنا من منزلنا ؟ »

قالت « بلى هي بعينها ؟ »

فقالت « نحن اذاً على مقربة من بيت بهزاد هلمي بنا ثم مسيرنا ولو اتعبك ذلك فاني اخاف ان يسبقنا اولئك الرعاع اليه . »

قالت « لا تخافي انهم لا يزالون يخرون في دجلة » قالت ذلك ونهضت وهي تتشدد وتتجلد ومشت وميمونة تسير في اثرها وهي تستبطيء مشيتها وتصبر نفسها حتى وصلتا الى اسواق تلك البلدة فقطعتاها واقبلتا على منزل بهزاد والشمس كادت تغيب فرأتا الباب مغلقاً وليس عنده أحد فمشتا وهما تتلفتان والشاطيء بعيد عنهما فلم تجدا احداً قادماً فتحققت ميمونة ان الاعداء لم يدركوا البيت بعد وبعد هنيهة وصلتا الى الباب فوجدتاه مقفلاً فقرعتاه قرعاً عنيفاً فلم يجبهما احد

فلما ابطا عليهما الجواب بعد القرع العنيف تفرست عبادة بقفل الباب فرأته مقفلاً من الخارج فتحققت ان بهزاد ليس في داخله فانشرح صدرها وانبأت ميمونة بذلك فتنفست الصعداء وقالت « الحمد لله انه ليس هنا ولاسبيل لهؤلاء اليه ... ولكن اين هو يا ترى ؟ »

فقالت جدتها ربما كان في بغداد او في بلد آخر ... » قالت ذلك وقعدت على حجر عند الباب لتستريح

فقالت ميمونة « اخاف ان يكون عائداً الى بيته الآن فيظفرون به ... يا امي ما العمل . أرى ان نتربص له بالقرب من هذا المكان فاذا رأيناه انبأناه بالخطر الذي يهدده .. »

قالت « وهل نكون في امن على انفسنا ؟ »

فتحيرت ميمونة في امرها وقالت « ماذا نعمل اذاً اخاف ان يكون بهزاد آتياً الساعة وهو لا يعلم بما اعدوه له فيقع غنيمة باردة في ايديهم . يجب ان نتم سعينا في انقاذه » وكانها ادركت كثرة ما اظهرته من اللهفة عليه فخافت ظهور حبها له فاستدركت قائلة « يجب علينا ان نكافئه على فضله ولا ندخر وسعاً في انقاذه ولو تعرضنا للخطر .. »

فاستحسنت عبادة كرم اخلاقها وقالت « صدقت يجب علينا ان نبذل ما في وسعنا في سبيل خدمته ولكن ما العمل ؟ ... ها اني اسمع غوغاء القوم من جهة الشاطيء ... اسمعي انهم يترا كضون هلمي بنا من هذا المكان قبل ان يدركونا .. تعالي » قالت ذلك ونهضت وهي ممسكة بثوب ميمونة فتبعتها مسرعة نحو الشرق

ولما تحولتا عن الباب تعثرتا بتلال واحجار من انقاض قصر كبير فقالت ميمونة « اني ارى انقاضاً كانها من بقايا دولة الفرس تشبه ان تكون انقاض ايوان »

فقالت عبادة وهي تسرع في مشيتها جهد طاقتها مع ما يحول دون ذلك من شيخوختها « صدقت يا حبيبتي ان هذه التلال والاحجار من انقاض ايوان كان هنا غير ايوان كسرى و يعرف بايوان سابور وهو القصر الذي كان يقيم فيه المنصور قبل بناء بغداد وتهدم بعده كما ترين »

فقالت ميمونة « الظاهر ان بهزاد اختار السكنى بجوار هذه الانقاض استئناساً بآثار اجدادنا .. » قالت ذلك وهي تسرع امام جدتها وقد نبهها ذكر هذا الايوان الى شيء خطر لها فلما توارتا عن المنزل قالت ميمونة « اذكر اني سمعته يقول مرة انه يتردد الى

ايوان كسرى للبحث عن بعض العقاقير الطبية والحشائش التي تنبت على انقاضه فلعله هناك الآن ؟ »

فقالت عبادة « ربما كان هناك ... اتبعيني لنبحث عنه قبل ان تغرب الشمس . »

الفصل الثالث والثلاثون

ايوان كسرى

وهرولتا نحو الايوان المذكور وهو في ظاهر المدائن من جهة الشرق . فخرجنا من البلدة وهما تحاذران ان يشعر اهلها بما هما فيه و بالغتا في التقنع والتلثم حتى وصلتا الى الايوان فاذا هو قائم كالجبل العظيم وقد زاده الخراب وحشة . وكانت الشمس قد توارت وراء الافق وتلاحمت الاظلال واخذت تتحول الى ظلام — وساعة الغروب من اوحش الساعات على الانسان لقرب خروجه الى الظلمة فيشق عليه فراق النور فتنقبض نفسه و يستوحش ولو كان في قصره بين اهله وذويه فكيف اذا كان في بربة يغشاها الخراب و ينعق فيها البوم ولاسيما بين يدي ذلك البناء الذي كان رهيباً وهو عامر فكيف وهو خرب . وللخراب وحشة في ابان النهار فكيف في الليل على ان ميمونة شغلت عن الخوف باللهفة ولولا ذلك لكان لها في منظر ذلك القصر عبرة كبرى لما يدل عليه تخربه من مصير الانسان الى الزوال — يكفيها التفكير في اهل هذا القصر وفيهم الاكاسرة والمرازبة والدهاقنة والاساورة وكان احدهم لا تكاد الارض تسع مطامعه . وكم ارتبطت خيولهم في باحة ذلك القصر . وكم دخلوه وعليهم الخز والديباج وعلى رؤوسهم التيجان وفي ايديهم الصوالجة . وكم جاءهم الملوك والامراء يلتمسون الهدنة او يتقربون بالهدايا وكم خضع لهم القواد وسيقوا اليهم بالاغلال والاصفاد يوم كان ذلك القصر آهلاً بالنساء والاولاد والوف من العبيد والجواري مما حمل اليهم بالاسر او الهدايا وفيهم غلمان من ابناء الملوك وفتيات من بنات الامراء وكلهم يرفلون بالبسة الحرير يتوسدون الرياش الوثير بين مزركش ومطرز بالوان تبهج النظر وانغام تطرب السمع . وكم كان على شرفات الايوان من الستائر الموشاة يطل من ورائها الجواري الحسان يتطلعن على ما كان يقام في باحة القصر من الالعاب على الخيول كالسباق او لعب الصوالجة والناس كلهم فرحون يحسبون الحياة نعيماً دائماً — فلو رآهم راء ثم جاء مع ميمونة في ذلك المساء ورأى

الايوان قد اصبح مقرًّا للحشرات رياشهُ التراب وما نبت عليه من الحشائش والطحالب وغارقهُ الاشواك والاحجار وقد تهدمت جدرانه وسقطت اساطينه وتصدعت اركانه لاعتبر وتهيب وغلبت عليه الوحشة ولو كان من الابطال فكيف اذا كان فتاة ربيت في مهاد الرخاء مثل ميمونة . فالتفتت الى ما حولها فلم تر الاَّ خلاءً قد تولاَّه الخراب فاستوحشت وندمت على مجيئها ولكن رغبتها في لقاء حبيبها شجعتها وثقتها بجدتها هونت الامر عليها

اما عبادة فكانت في شاغل بما لحقها من التعب وكانت اقل خوفًا من ميمونة فاسندت نفسها الى اسطوانة ملقاة هناك من انقاض الايوان وقالت لميمونة « هل ترين احدًا ام تسمعين صوتًا ؟ »

فاصاخت بسمعها ثم قالت « اني لا اسمع صوتًا ولا أرى شيئًا لكن ذلك لا يمنع ان يكون بهزاد داخل هذا البناء يبحث عن عشب او عقار . وبما اننا وصلنا الى هنا فلندخل الطاق فاذا لم نر احدًا رجعنا سريعًا قبل ان يشتد الظلام .. هل ندخل ؟ »

فلم تشأ عبادة مخالفتها وقد استصوبت رأيها فمشتا وهما تجسان الارض جسًّا باقدامهما وتحاذران العثور بالاحجار او الاشواك وقد سكنت الطبيعة وأوت الطيور الى اوكارها . ولما اقبلتا على باب الايوان هابتا سعته وارتفاعه فقد كان عرض فتحته ٣٤ ذراعًا وارتفاعه ٣٢ ذراعًا [1] ولم تقفا تحت قنطرته حتى سمعتا هبوب النسيم واحستا ببرده فاجفلت ميمونة وتراجعت وشعرت كأن يدًا باردة لمست وجهها فتلفتت وقد تولتها الدهشة فلم تر احدًا فابتدرتها جدتها قائلة « ما بالك يا بنية ؟ »

قالت « ماذا اسمع ... ؟ هل اسمع هبوب النسيم واشعر ببرده ام هي انفاس الجان .. قد كنا منذ لحظة خارج الايوان وكل شيء هادئ فما بالي اسمع هبوبًا واشعر بالبرد .. »

قالت « كانك لم تدخلي هذا الايوان قبل الآن ؟ »

قالت « كلاَّ .. وهل فيه جان ؟ »

قالت « لا تخافي يا بنية ؟ ليس في المكان جان ولا انس واما ما تسمعينه فهو اصوات مجاري الهواء الخارج من جدران الطاق .. »

قالت « وقد كنا بقربه الآن ولم يكن ثمة ريح ... فكيف هبت سريعًا على هذه الصورة »

قالت « ان في بناء هذا الايوان سرًّا لم ينكشف لاهل هذا العصر بعد .. انه مبني على

(١) راجع وصف هذا الايوان وتاريخه في الهلال السادس من السنة الخامسة عشرة

على هندسة تجعل الهواء يلعب في قاعاته ولو كان الناس خارجه في حرّ شديد فيخرج من منافذ في جدرانه مصنوعة على نمط عجيب حير مهندسي هذا الزمان وقد تأنق الذين بنوه في صنعه على هذه الصورة حتى لا يفارق النسيم مجالس الاكاسرة في اشد الايام حرًّا فلا تخافي ... هل تريدين الرجوع ؟ »

وكانتا قد دخلتا الباب واقبلتا على القاعة الكبرى التي يسمونها الطاق ويسمون الايوان بها فيقولون طاق كسرى كما يقولون ايوان كسرى . وكانت مساحة هذا الطاق في ايام عمارته ستين ذراعاً في ستين وقيل مئة في خمسين وكانوا يفرشون ارضه ببساط واحد مزركش ومرصع

الفصل الرابع والثلاثون

الدهشة

وكان في صدر الطاق على عهد الاكاسرة عرش من ذهب مرصع بالجواهر الكريمة يجلس عليه كسرى تعلوه قبة مرصعة وفي داخلها مروحة من ريش النعام والى جانبي العرش مجالس الاعوان والمرازبة . وقد ذهب ذلك كله في اثناء الفتح غنيمة للمسلمين وهم يومئذ عرب اهل بادية حفاة عراة لا يفرقون بين الكافور والملح ولا بين الجوهر والحصى فاقتسموا الآنية وقطعوا الابسطة ومزقوا الستائر . وكان نصرهم عبارة عن تغلب البداوة على الحضارة . فلم يبق هناك الا الاحجار وبعض الاساطين وقد تشوهت وتكسرت

ونظرت ميمونة الى ما حولها من الجدران الهائلة فرأت عليها صوراً ملونة منعها الظلام من تحققها . ولما سمعت جدتها تستخبرها في الرجوع وهي لا ترى في ذلك المكان الا ما يبعث على الوحشة ناهيك بما كانت تخافه من الحشرات التي تكثر في مثل تلك الخربة عزمت على الرجوع وارادت أن تجيبها بالايجاب وتتحول فاذا هي تسمع دبدبة خارج الايوان ولا تسمع كلاماً فاختلج قلبها في صدرها وارادت ان تصيح فارتج عليها ولصق لسانها بحلقها . وادركت جدتها ذلك ولم تكن اقل خوفاً منها فامسكت بيدها واومأت اليها ان تتبعها الى الداخل وهي تهمس في اذنها « لعل اولئك العيارين ظنوا مثل ظننا

فأتوا للبحث عن بهزاد في الايوان وهو الحمد لله ليس هنا واذا رأونا ربما قتلونا فلنختبئ وراء هذه الاسطاطين حتى اذا اطلوا ولم يجدوا احداً رجعوا فنجو نحن ... » قالت ذلك وصوتها يرتجف وهي تجرُّ ميمونة بيدها . فاسرعنا فوق الحجارة وما يتخللها من الاعشاب والاشواك وقد سمع لخطواتهما خشخشة وطقطقة رغم ما ارادتاه من التستر ولم يكن لهما بد من ذلك . ولم تنتبها لدهشتهما وبغتتهما وهما تسرعان لما كان يسرح بين اقدامهما من الجرذ والاورال ونحوها من الحشرات حتى وصلتا الى كوة واسعة لعلها موضع ذلك العرش في ايان صولة الفرس . وبين يدي الكوة اسطاطين متفرقة اذا دخل الطاق داخل لا يفطن لمن يقيم وراءها . فدخلتا الكوة وانزوتا فيها وهما تمسكان انفاسهما من الخوف واصغتا وعيونهما محملقة تنظران نحو الباب بلهفة وجزع وقد ندمتا على تلك المخاطرة ولا سيما ميمونة فكانت وهي منزوية تضم جدتها اليها استئناساً بها وقد اخذتها الرعدة وجدتها تخفف عنها وتستغيث بالله

ولم تمض هنيهة حتى كفت الدبدبة وسمعت ميمونة همساً عند الباب كأن المتكلم يحاذر ان يسمعه احد وعاد السكوت لحظة سمعت في اثنائها صوت قدح الزناد . ثم رات اشعة النور اندفعت الى الطاق من سراج يحمله شبحٌ طويل القامة قد تلثم بلثام اسود والتف بعباءة سوداء حتى لا يبدو منه غير يده يحمل بها السراج . فدخل صامتاً وفي اثره بضعة رجال في مثل لباسه . فلا تسل عن ميمونة وخفقان قلبها واضطرابها حتى كاد الدم يجمد في عروقها من الخوف لئلا يتقدم الرجل بسراجه الى مكانها فبالغت في الانزواء وهي معانقة جدتها

اما حامل السراج فلما توسط الطاق التفت يمنة ويسرة وقال « هل ترون أناساً ؟ .. اني لا ارى احداً ... ومن يأتي هذا المكان في مثل هذا الوقت ... ليس ما سمعناه الا خشخشة بعض الحشرات السارحة لما أحست بقدومنا » ثم نظر الى ما بين يديه كانه يبحث عن مكان يضع السراج عليه فراى بقية اسطوانة قد ذهب معظمها وظلت قاعدتها قائمة فوضع السراج عليها واخرج يده الاخرى من تحت العباءة واذا هو يحمل بها صندوقاً اسود اللون لامعه فوضعه بجانب السراج ثم التفت الى رفاقه وهم ستة وقال بصوت ضعيف « هل نحن في سلام »

فاجابه بعضهم « نعم قل ما بدالك »

وكانت ميمونة لما سمعت صوت الرجل الاول استأنست به لانه يشبه صوت حبيبها

فاختلج قلبها وشاعت عيناها وهي تحسب نفسها في حلم . ثم رات الرجل الطويل قد خلع عباءته وخلع رفاقه عباءاتهم فافترشوها واشار اليهم فقعدوا عليها وظل هو واقفاً وقد بدت ثيابهم من تحت العبي على غير المألوف في بغداد — رات على كل رجل قباءً اخضر وعلى راسه قلنسوة لها عمامة خضراء وقد تمنطقوا بالسيوف وتقلدوا الاقواس كانهم يتأهبون للحرب

ووجهت ميمونة انتباهها على الخصوص للمتكلم الاول وكان قد ولاها ظهره فلم يفتها انه بهزاد بعينه فحدقت فيه وددت تناديه لو لم تمالك وتتجلد واشارت الى جدتها ان تنظر اليه ومع ضعف بصرها عرفته واومأت الى ميمونة ان تصبر وتبقى صامتة فصبرت نفسها واخذت تتفرس بالقوم فعرفت من وجوههم ولحاهم انهم من الفرس ولكنها لم تعرف احداً منهم واذا بهزاد قد تحول نحو قاعدة الاسطوانة وتناول الصندوق فوضعه بين يدي الجماعة وقعد القرفصاء وهو يقول « اقسموا على ما في هذا الصندوق انكم تكتمون ما يدور بيننا »

فتصدى رجل منهم رقيق البدن خفيف العضل تدل سحنته على عصبية مزاجه وحدة ذهنه وجرأته فقال « ولكنك لم تخبرنا بما فيه وقد وعدتنا ان تطلعنا على ذلك قبل كل عمل »

فتناول مفتاحاً من جيبه وفتحه وقال « انظروا ولا تتكلموا »

فنظروا في الصندوق وتراجعوا وقد تولتهم الدهشة وقالوا « انا لله وانا اليه راجعون ما هذا ؟ »

قال « هذا شعارنا من اليوم ... هذا هو راس القتيل المظلوم اقسموا به انكم تكتمون حديثنا وتسعون في الانتقام له ولمن قتل قبله »

قال ذلك واقفل الصندوق وهو جاث فقرأوا الفاتحة معاً ثم اقسم كلٌّ منهم انه يبذل ماله ودمه في سبيل الانتقام

الفصل الخامس والثلاثون

كسرى انوشروان

ثم وقف بهزاد واعاد الصندوق الى موضعه وحمل المصباح وتقدم نحو جدار الطاق والسراج مرفوع بيده حتى يبدو ما على الحائط وقال « اترون ما على هـذا الجدار من الرسوم ؟ »

قالوا « انا نرى كسرى انو شروان بجنده يحاصر انطاكية »

قال « ألم يفتحها ؟ »

قالوا « بلى »

قال « ونحن فاتحون باذن الله .... الم يكن انو شروان عادلاً ؟ »

قالوا « انه كان عادلاً حكيماً »

قال « السنم خلفاءه وابناءه »

قالوا « بلى »

قال « الم تنصروا هؤلاء العرب وتملكوهم رقاب الناس »

قالوا « بلى »

قال « ألم يكن اجدادكم الذين بذلوا ارواحهم في هذا السبيل فسفكوا الدماء وابلو بلاء الرجال الاشداء وارتكبوا في طاعة امامهم الاول أموراً عظاماً فقتلوا على التهمة وغدروا وخانوا رغبة في مصلحة تلك الدولة وما كان جزاؤهم ؟ »

فاجابه الجميع بصوت واحد « لقد جوزينا جزاء سنمار ... رحم الله ابا مسلم ... »

قال « ليس ابو مسلم اول شهيد منا ولكنه اعظم شهيد قتله اولئك العرب غدراً بعد ان ايد سلطتهم وسلم الدولة اليهم اترضون ان يذهب دمه هدراً فضلاً عن دماء آبائكم ؟ »

فقال رجل منهم كبير السن جليل الطلعة « انك تدعونا الى امر عظيم ولم تخبرنا من انت ... نعم انك فارسي مثلنا وشريك لنا في هذا الامر ... ولكننا نحب ان نعرف الغرض الحقيقي الذي اتينا به الى هذه الخرائب وقد كنا في غنى عن ذلك ببيوتنا »

قال « ان هذا المكان يعدّه الناس خرباً وما هو كذلك ... انه اثر حي لعظمة دولتنا التي عجز المنصور بعد أن غدر بابي مسلم عن هدمه ... ان بقاء هذا الايوان رمز

عن بقاء دولة اصحابه .. واحببت ان نتذاكر بالانتقام بين جدرانه . وهذا انوشروان العادل كانه يرانا ويسمعنا فاذا تعاهدنا في حضرته كان عهدنا وثيقاً .. »

ثم رفع السراج الى رأس كسرى وقال « انظروا انه ينظر اليكم بعينيه نظرة عاتب كانه يقول : لقد تقاعدتم عن نصرة امتكم ورضيتم الرضوخ لقوم استخدموكم واذلوكم وقتلوا خيركم غدراً فكيف تصبرون على الذل وانتم الفرس ومنكم العظماء والحكماء والقواد ومنكم رستم وفورش ودارا وسابور وبرويز وانوشروان وبزرجمهر وقد حاربتم اليونان والرومان والهند والصغد ووطئتم بلادهم وفتحتم مدنهم .. كيف يغلبكم على امركم اعراب كانوا يفدون علينا للاستجداء فننعم عليهم بالطعام واللباس وكان احاسنهم من جندنا وموالينا . فتسلطوا عليكم بالسيف ثم نصرتموهم فقتلوا كباركم غدراً وملكوا رقابكم وانتم صابرون .. ولو لم تصبروا لكنتم الملوك وهم عبيد لكم . ومع ذلك أليست مقاليد الاحكام في ايديكم ومنكم وزراؤهم وقوادهم ورجال العلم والسياسة فيهم كيف تخنون رقابكم لرجال ما فيهم الا الضعيف وانما غلبوكم بالحيلة والمداجاة ان الصبر اذا طال اصبح مذلة وعجزاً : هذا خطاب انوشروان ولاجله جئت بكم الى هذا المكان .. اما انا فاذا كنتم من الناقمين لابي مسلم فاعرفوني ... اني رسول اخوانكم في خراسان فما قولكم ؟ . »

فما فرغ بهزاد من كلامه حتى ارتفع صوته ونسي التكتم والتستر وقد اشرق وجهه حماسة وشهامة . وكانت ميمونة تسمع اقواله وقلبها يرقص فرحاً لما سمعته من التحريض على الانتقام . ولكنها ظلت مشغولة الخاطر بما في الصندوق وقد فهمت من حديث القوم ان فيه رأس رجل مظلوم واصبحت شديدة الميل الى معرفة صاحبه . على انها شغلت بالفرح لما ظهر لها من تحريض حبيبها للانتقام من اصحاب الدولة ولبثت تتوقع ما يكشف لها الغامض

اما بهزاد ففرغ من قوله والسراج في يده وهو ينظر الى القوم فنهض ذلك الكبير وقال « هل انت رسول الينا من اخواننا الخرّمية في خراسان ؟ »

قال « اني رسول اليكم منذ بضعة اعوام »

قالوا « وما الذي اخرك عن دعوتنا الى الآن ؟ »

قال « تربصت حتى جاءت الساعة وسنحت الفرصة لان الامور مرهونة باوقاتها .. فالان مات الرشيد ... مات الرجل الذي غلبنا بمبادرته وكيده فقتل كبيرنا وعمدتنا وعرقل مساعينا ... فتربصنا حتى مضى وخلفه غلام غرّ همه اكله وشربه و... »

فقطع الرجل كلامه قائلاً « ولكننا اقمنا دولة فارسية اساسها الآن في خراسان .

هذا أخوه المأمون ولي العهد بعده لايلبث ان يتولى العرش وهو كما تعلم آلة في يد الفضل ابن سهل وهذا انما اسلم وتقرب منه رغبة في نصرة الفرس وتطلعاً الى هذه الفرصة . فاذا افضت الخلافة الى المأمون بلغنا الغرض المطلوب على اهون سبيل »

قال « الم أقل لكم انكم غافلون عن مصالحكم ؟ ان مساعي الفضل اوشكت ان تذهب ادراج الرياح بمادبره هذا الغلام وانصاره من اسباب الغدر — فكما اسس المنصور دولته بقتل ابي مسلم غدراً وانقذها الرشيد بقتل جعفر غدراً فان هذا الغلام عرقل مساعي الفضل بن سهل بخلع المأمون غدراً .. »

فصاح الرجل « وهل خلعه ؟ »

قال « نعم خلعه ولا يلبث ان يقتل انصاره وانتم نيام .. ان مساعي الفضل مؤسسة على الدهاء والسياسة فاذا لم تبادروا الى تأييدها ذهبت عبثاً فلا ينفعنا اسلامه ولا تقربه من المأمون »

فقال الرجل « هل انت واثق من الخلع ؟ »

قال « لست نائماً مثلكم اني ساهر على مصلحتكم منذ بضعة اعوام وقد بثثت العيون والارصاد حتى في بلاط الخليفة واعرف كل حركة تجري في بيت الامين واعرف اهواء العامة واغراض الخاصة — قد علمت يقيناً ان الامين خلع اخاه المامون ولا ندري ما ياتيه بعد ذلك — اما العامة فقوم طغام يباعون و يشرون وهم لا يعلمون واما الخاصة فانتم عمدتهم فبادروا الى العمل .. فقد بلغ السيل الزبى »

فاطرق القوم هنيهة ثم وقف الرجل الجليل وقال بصوت هادىء « اما وقد ثبت خلع المامون فالامر هام ولكن سعينا لا يضمن فيه الفوز الاَّ بالتؤدة فان هؤلاء العامة لايقادون الاَّ بالدين وهذا الامر كان اوله في خراسان ولا يقوم الاَّ من هناك »

قال « ان تدبير ذلك هين علينا وخراسان سيفنا وذخيرتنا . واما الدين فهو الوسيلة لجمع كلمة العامة وهذا في ايدينا سندبر ذلك في خراسان . ان هذه الالوية الخضراء ستملك امر الدين باذن الله ؟ »

ففهم الرجل مراده من اتخاذ مذهب الشيعة سلاحاً لنيل الخلافة فقال « متى صارت الخضرة شعار الخلافة وذهب سواد العباسيين تلنا المراد ولكن انى لنا ذلك ؟ »

قال « ذلك يكون لنا ان شاء الله في خراسان ولا بد من اعمال السيف فكونوا انتم في يقظة من امر شيعتنا في بغداد . واذا اتت الساعة يحاسب كل منا على عمله » ثم اشار الى

الصندوق وقال « واما شعارنا الحقيقي فهو ما رأيتموه في هذا الصندوق وسأضيف اليه رأساً آخر اذا رأيتموه علمتم انكم اذا بذلتم اموالكم وانفسكم انما تبذلونهما في سبيلٍ حسن . اذا كنتم من الخرّمية فانكم تنتقمون لامام قديم ورجل عظيم . تنتقمون لابي مسلم صاحب الرايات السود مؤسس الدولة العباسية وهو يناديكم من اعماق قبره ان تقلبوا هذه الدولة وتعيدوا دولة الفرس وتؤيدوها بالشيعة العلوية صاحبة الدعوة الاصلية التي اضاعها المنصور بغدره ودهائه . وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون »

الفصل السادس والثلاثون

الى المنزل

وكان بهزاد يتكلم والعرق يتصبب من جبينه وقد اخذت منه الحمية ماخذاً عظيماً واستنهض عزائم اولئك الرفاق وسحرهم بحماسته و بسالته حتى توهموا ذلك الايوان الخرب آهلاً بالجند والاعوان وكأن متكلمهم كسرى انوشروان . وكانوا يعرفون بهزاد قبل ذلك المساء طبيباً فارسياً وهو بالطبع ناقم على العباسيين ولم يكن يخطر لهم انه رسول من الاحزاب السرية القائمة في خراسان للانتقام من دولة العرب — ومن اشهر تلك الاحزاب جماعة الخرّمية وهم طائفة ظاهرها ديني واختلفت الاقوال في حقيقة مذهبها ولكنها كانت حزباً سياسياً يستخدمه رجال المطامع في طلب السيادة وفي جملتهم اصحاب ابي مسلم واهله ولا سيما ابنته فاطمة فان الخرمية كانوا يقدسونها ويذكرونها في ادعيتهم . وللخرمية دخل كبير في تاريخ الاسلام وكانوا اذا اشتدوا ظهروا واذا ضعفوا اختفوا وكانت لهم مخابرات سرية في المدائن الاسلامية يتعاونون و يتكاتفون وفيهم المسلمون والزردشتيون والمجوس وانما تجمعهم جامعة الفرس

ولا بدع اذا كان منهم جماعة في بغداد كالذين جاؤا مع بهزاد وهم من وجهاء القوم واصحاب الثروة والنفوذ هناك وفي نفوسهم اشياء على الخلفاء لما رأوه من قتلهم ابا مسلم وجعفراً البرمكي وغيرهما . وكانوا يتحدثون بذلك سرًّا وهم ينتظرون تبدّل الاحوال وآمالهم عالقة بالمامون اذا تولى الخلافة ولم يخطر لهم ما اتاه الامين من خلعه . فلما انبأهم بهزاد بذلك ثارت الغيرة في نفوسهم وتحمسوا ونهض احدهم وقال « اننا على ما اقسمنا عليه لا نذخر في

سبيل ذلك مالاً ولا رجالاً ولكن لا بدَّ لنا من التؤدة »

فقال « ذلك ما عزمنا عليه .. اقيموا انتم في اعمالكم كالعادة حتى تاتي الساعة وانا اعرف اماكنكم فكونوا على استعداد .. » قال ذلك وتحوَّل والسراج لا يزال في يده فوضعه في مكانه وهو يقول قد آن لنا الانصراف وهذا آخر اجتماع لنا في هذه الديار على هذه الصورة وسنجتمع على غير كلفة او حذر قريباً ان شاء الله .. »

فنهض رفاقه واخذوا يتأهبون للخروج فالتفوا بعباءاتهم وهموا بالانصراف وتناول بهزاد عباءته فالتف بها واطفأ السراج وتركه في مكانه وخرج . فلما اظلم الطاق لم تعد ميمونة تستطيع ضبط نفسها والصبر على التستر فهمت ان تنادي بهزاد فامسكت جدتها بيدها وطلبت اليها ان تصمت ريثما يتفرق القوم ونهضت واشارت اليها ان تتبعها بخفة وهدوء فاطاعتها ومشت وركبتاها تتلاطمان من الارتعاش لا تكاد تحملانها وزادت رعدتها وارتجافها حتى اصطكت اسنانها كانها اصيبت بتشنج

ولم تتوسطا الطاق حتى رأتا الجماعة امتطوا خيولهم بعد ان صافحوا بهزاد وودعوه وانصرفوا وبقي هو وحده فتحوَّل نحو مربط جواده ليركبه فسمع وقع خطوات تتبعه فالتفت فرأى شبحين بلباس النساء فتحوَّل نحوهما بهدوء رباطة جأش وقال « من أرى ؟.. »

فتراكضت ميمونة نحوه وترامت على ذراعه وصاحت « انا ميمونة وهذه جدتي عبادة »

فشعر بهزاد برعدتها فتجلد وقال « وما الذي جاء بكما الى هذا المكان ؟ »

فقالت عبادة « جئنا للتفتيش عنك فقد شغلت خاطرنا بغيابك ومولاتنا بنت المامون اصيبت بحمى لا ترضى معالجتها الاَّ على يدك . فلما ابطات بالرجوع لم نر احداً اولى منا بالبحث عنك هنا لاننا نعرف منزلك وطرقك .. »

فاطرق وهو ممسك لجام الفرس بيده والصندوق باليد الاخرى ثم قال « وما الذي جاء بكما الى هذا المكان وكيف عرفتما اني اجيء اليه .. »

فقالت ميمونة « قد ساقتنا اليه العناية والحديث في ذلك يطول وانت الآن في حاجة الى الراحة ونحن كذلك .. »

فقال « هلم بنا الى المنزل » ثم التفت الى عبادة وقال « اظنك اكثرنا تعباً فاصعدي الى الفرس فاركبيه ونحن نمشي بجانبه »

فقالت « العفو يا سيدي هذا لا يكون ... لا يركب فرسك سواك ... ولكن الى اين تذهب .. ؟ »

قال « الى المنزل »

قالت « الى المنزل في المدائن ؟»

قال « نعم »

فامسكت يده بكلتا يديها وقالت « لا . بالله . لا تذهب الى هناك »

قال « ولماذا ؟ »

قالت « لان في الذهاب خطراً عليك »

فاجابها وهو لا يزال ماشياً « واي خطر ؟ »

قالت « رأينا الجند والعيارين جاؤا للبحث عنك في منزلك » وقصت مختصرما شاهدتاه الى ان قالت « فاخاف ان يصيبك سوء »

فقال وهو لم يتغير « انت تخافين واما انا فلا اخاف »

فقالت « بالله اطعنا في ذلك وتعال نذهب معاً في هذا الطريق نحو الشاطيء فان الحراقة في انتظارنا هناك »

فقال « لا بدّ لي من الذهاب الى منزلي يا خالة »

فلم تصبر ميمونة على السكوت فهمت ان تتوسل اليه ليغير عزمه فاذا هي تسمع وقع اقدام مسرعة فالتفتوا جميعاً فرأوا شبحاً قادماً نحوهم من جهة المدائن فاجفلت ميمونة وصاحت « ويلاه اظنه واحداً من العيارين »

فسمعت الرجل يقول « كلاّ لست منهم »

فعرفوا صوت سلمان فدهشوا وصاح بهزاد « سلمان .. ؟ »

قال « نعم يامولاي .. » فوصل اليهم وهو يلهث من سرعة الركض فابتدره بهزاد قائلاً قائلاً « ماوراءك ؟ »

قال بصوت منقطع من التعب « ان المنزل يا مولاي محاطٌ بالجند والعيارين وهم جماعة كبيرة ارسلهم الامين للقبض عليك .. »

قال « وكيف اتيت المدائن حتى رأيت ذلك وعهدي انك في بغداد »

قال « عرفت هذا العزم من مصدره فاحتلت في الخروج باسرع ما يستطيع الناس فادركت المنزل وقد سبقوني اليه ورأيتهم محيطين به يتشاورون في فتحه فعلمت انك لست في داخله وتذكرت انك تاتي الايوان بعض الاحيان فاتيت لعلي اراك وانذرك بما هناك حتى لا تعرض نفسك للخطر .. »

قال « وهل افرّ منهم ؟ »

قال « وكيف اذاً .. ؟ وهل تلقي بنفسك في الخطر ؟ بالله اطعني »

قال « هذا لا يكون ولكن اذهب انت بهذه الخالة وميمونة الى الحراقة وانا لا بد من ذهابي الى المنزل لامر هام فاذا لقيت فيه جنداً يحكم الله بيني وبينهم »

فلم تعد ميمونة تتمالك عن التصريح بما في خاطرها فقالت « وهل نحن خائفون على حياتنا ؟ وحياتك هي العزيزة .. ان حياتك عزيزة يا سيدي . اتظننا لم نسمع حديثك .. ؟ فقد عرفنا مهمتك وفي نفسي من هذا الصندوق شيء فاحبّ الاطلاع عليه .. »

قال « ربما اطلعت عليه بعدئذ وأما الآن فلا بد من الذهاب الى البيت اني لم اتعود الفرار »

فازدادت ميمونة اعجاباً به ولم يروا بدّاً من اطاعته فقالوا « نسير جميعاً حيثما تشاء ويصيبنا ما يصيبك »

فمشى وسلم زمام الفرس الى سلمان واراد هذا ان يحمل الصندوق عنه فابى ومشت عبادة وهي تتثاقل في خطاها وتبالغ في اظهار عجزها وكذلك سلمان وميمونة كانهم مساقون الى القتل رغم ارادتهم وبهزاد يطاوعهم بالتأني

الفصل السابع والثلاثون

حديث الغرام

أما ميمونة فلا تسل عن قلبها وما قاساه من الاضطراب في ذلك المساء بما تضارب فيه من الامل والخوف والفرح والاسف . فكانت تمشي معهم وهي سابحة في ابحر الهواجس تراجع ما سمعته او شاهدته في الطاق فاذا تصورت مساعي حبيبها في نصرة الفرس اختلج قلبها فرحاً فيعترض فرحها ما تخلل ايوانه من التعريض بسفره الى خراسان فتنقبض نفسها وهي مع ذلك لم تفهم محلها من قلبه . واحست بافتقار كلي الى خلوة تستطلع فيها افكاره واذا تصورت مجالسته على انفراد شعرت بتهيب وخجل

قطعوا مسافة الطريق والظلام شامل وهم سكوت يمشون الهوينا وكل منهم يفكر في امره ويتشاغلون بتجسس الطريق لان اكثرها وعر . وكلما اقتربوا من البلد تطلعوا

الى ما عساه ان يكون من امر أولئك الجند . فلما دخلوا الاسواق استأذن سلمان بالمسير امامهم ليستطلع حال المنزل فمضى ثم عاد وهو يقول « ان الجند انجلوا عن البيت بعد ان كسروا ابوابه ونهبوا ما فيه .. »

فقال بهزاد « لا يهمني مما في البيت الا شيء واحد اذا ابقوه فهو يكفيني »

فظنه سلمان يعني كتبه واوراقه فقال « انهم أخذوا الكتب ومزقوا الاوراق »

فقال « وهذا لا يهمني » وظل ماشياً وهم يتبعونه حتى وصلوا المنزل فراوا الباب مكسوراً فدخلوا منه وسبقهم سلمان الى غرفة يعهد فيها مسرجة فاضاء السراج وعاد ليضيء طريقهم فرأوا آثار النهب ظاهرة في كل خطوة وبهزاد يسير والصندوق بيده وهو يتفرس في الارض . فمروا في باحة كبيرة فيها كثير من الآثار الدالة على ان ذلك البيت بني على انقاض ايوان شابور حيث كان المنصور يقيم قبل بناء بغداد . فاستطرقوا من الباحة الى باب آخر هو باب البيت الداخلي فرأوه مفتوحاً فدخلوا فيه وبهزاد لا يزال يتفرس في الارض وهم يعجبون لسكوته وقلة اهتمامه بما اصاب بيته من النهب . وبينما هم يسيرون في الدهليز رأوا بهزاد تحول عنهم الى كوة في جداره الايمن فتناول منها معولاً كان هناك وقد بدا البشر في محياه ودفع المعول الى سلمان وقال « احتفظ بهذا » ومشى ولم يعد يلتفت الى شيء حتى دخل غرفة كبيرة في وسط المنزل في ارضها بساط عليه تراب من اثر المشيء واوراق مبعثرة من اثر النهب والى جوانبه وسائد فاشار الى عبادة وميمونة بالجلوس وامر سلمان ان يتبعه ودخل من باب في صدر الغرفة الى حجرة واغلقا الباب وتركا السراج في الغرفة

فلما خلت ميمونة بجدتها نظرت اليها فرأتها تلهث من التعب والعرق قد بلل خمارها وهي في حاجة الى الاستراحة فودت لو انها تنام فتغتنم الفرصة لمحادثة بهزاد . فتشاغلت عنها ولم تخاطبها في شيء فراتها تكبو وتتثاءب من النعاس فقالت لها « توسدي يا سيدتي واستريحي » ونهضت فاتتها بوسادتين استلقت عليهما وهي تقول « اذا خرج بهزاد ايقظيني »

فقال « سافعل ذلك »

ولم تمض دقائق قليلة حتى نامت عبادة وشخرت وظلت ميمونة وحدها كانها في بحر تتقاذفها امواجه واستغرقت في التفكير عن سبب تنتحله لمخاطبة بهزاد

وهي في ذلك فتح باب الحجرة فاجفلت والتفتت فرات بهزاد خارجاً وقد بدل

ثيابه فالفّ برداء خفيف واعتم عمامة صغيرة . وخرج سلمان في اثره والمعول بيده فاشار الى سلمان بالخروج بمعوله فخرج وظل بهزاد واقفاً فوقفت ميمونة احتراماً له وهي مطرقة حياء وهياماً فالقى يده على كتفها وهو يقول « اجلسي يا ميمونة يا بقية البرامكة »

فلما سمعته يكنيها باهلها وهذه اول مرة اظهر انه يعرف نسبها خجلت وجلست وقد ارتج عليها . فبادر الى وسادة ثناها واشار اليها ان تجلس عليها وهو يقول « اقعدي على هذه الوسادة يا ابنة جعفر »

فازدادت ميمونة استغراباً من هذا التصريح وتجلدت حتى لا تضيع هذه الفرصة منها وقالت وهي مطرقة وقد تواردت وجناتها « اراك تخاطبني بلقب جديد »

فقال وهو يتناول وسادة أخرى ليقعد عليها « اني اخاطبك باسمك الحقيقي وان كنت تحسينني اجهله ... رحم الله جعفراً واحياه »

فرفعت بصرها اليه وقد ابرقت عيناها بما غشيهما من ماء الحبّ وقالت وصوتها يتقطع من شدة تأثرها وهي تحاول اخفاء ذلك بالابتسام « هل ترجو قيامة الاموات في هذه الدنيا ؟ »

قال « ان لم يحي بدنه فسيحي ذكره ... ان جعفراً لم يمت يا ميمونة لان الرشيد قتل بدنه ولا سلطان له على ما خلفه من الذكر الحميد .. »

فقالت وهي تتشاغل بتثنية طرف كمها وقد انقبضت نفسها عند ذكر مقتل ابيها « اني أشكر احسانك ومجاملتك يا سيدي . فانك طالما احسنت الينا وسترت فقرنا .. » قالت ذلك وشرقت بدموعها

فلما رآها تبكي تفطر قلبه وكاد يبوح بما في نفسه ولكنه لم يكن يرى التصريح بحبه في ذلك الحين فغالطها وقال « ان فضل جعفر واحسانه شملا الملأ كافة وما من مسلم او غير مسلم الا وهو مديون له واذا وفينا بعض الدين فأي فضل لنا »

فلم يعجبها هذا الجواب وهي انما كانت تتوقع ان يقول كلمة غير هذه .. كانت ترجو ان تسمع منه كلمة الحب .. فخافت ان يكون ضميرها خانها فتنهدت وسكتت وارسلت يدها الى وجهها وأخذت تمسح عينيها باناملها . فامسك معصمها ورفع يدها عن وجهها وقال وصوته يكاد يختنق « ما بالك تبكين ؟ »

فقالت وهي لا تزال مطرقة وقد احست بمجرى كهربائي يجري من يده الى كل

عروقها « اني حزينة يا سيدي دعني افرج كربتي ... »

فقال « وما سبب حزنك ... »

قالت « تسألني عن حزني وانت تعلم سببه . وهل اتعس من فتاة يتيمة الابوين .. تخاف ان يعرفها الناس ؟ . ان انتسابي الى جعفر بن يحيي وبقائي حية بين هؤلاء الاقوام من اكبر اسباب شقائي .. » قالت ذلك وجذبت يدها من يده وقد غصت بريقها

فاستأنف القبض على يدها وضغط عليها بين كفيه وهو يغالب حبه وقال « معاذالله ان تكوني تعيسة كما تقولين .. »

فحاولت اخراج يدها من بين يديه وهي تقول « بل انا تعيسة .. وكيف لا اكون كذلك وقد عرفت الليلة ان ... » وتشاغلت بابتلاع ريقها وامسكت عن الكلام . ونظرت اليه فاذا هو يتفرس في عينيها ويتجاهل غرضها والهوى يكاد يشف عن سريرته . وتخاطبت العيون بافصح من مخاطبة الالسن

العين تبدي الذي في قلب صاحبها ... من الشناءة او حب اذا كانا
ان البغيض له عين يصدقها ... لا يستطيع لما في القلب كتمانا
فالعين تنطق والافواه صامتة ... حتى ترى من صميم القلب تبيانا

فادركت ميمونة من تلك النظرة ان بهزاد يحبها ولكنها احبت ان تسمع ذلك من فيه فحولت نظرها عنه الى جدتها وكانت قد استغرقت في النوم وقد علا صوت غطيطها . ثم اطرقت وسكتت فابتدرها قائلاً « كملي حديثك .. قولي ما هو الذي عرفتِه الليلة يا ميمونة ؟ »

قالت « ان ذكرهُ يؤلمني .. دعني وشأني ... لا أحب ان تهتم بي ... فانك في شاغل عن مثلي بما انت فيه من المطالب الهامة ... فلا اريد ان اشغلك بما تحدثني به نفسي من احلام الصبا »

فقال « لعلي مشتغل بمثل هذه الاحلام .. قولي .. »

فاستبشرت بقرب التصريح فرفعت بصرها ونظرت اليه نظرة عتاب وهيام وابتسمت والدمع يترقرق في عينيها وقالت « اعذرني يا سيدي على تطفلي وصغر نفسي . انى على يقين من خيبة املي وحاشا لبهزاد القائد العظيم ان يقع في ما وقعت فيه فان اشتغاله بجمع الاحزاب لقلب الدول واستنهاض الامم ينزهه عن الالتفات لفتاة مثلي . وقد تقتضي مساعيه ان يدوس الجماجم ويقتل المئات فهل يبالي بقلب فتاة يتيمة مسكينة مثلي ؟ »

وكانت يدها لا تزال بين يديه فاجتذبتها وغطت بها وجهها وأخذت في البكاء

فلما سمع قولها ورأى بكاءها غلب عليه الهيام ولكنه تجلد وقال « وهل تريدين ان امسك عن السفر ؟ »

فتنهدت وقالت « آه .. حبذا ذلك ... ولكن ما الفائدة لي من بقائك .. لا .. انا لا اطمع بعدولك عن السفر ولكن .. » وسكتت

فصاح فيها « ولكن ماذا ؟ قولي »

الفصل الثامن والثلاثون

احبك بلا شرط

فعظم عليها صغر نفسها والتجاؤها الى الحيلة في استطلاع حبهِ لها فاطرقت وقد شق عليها تحيلها على تلك الصورة وشعرت بتقيد قلبها وحبس احساسها وعلمت انها انما سيقت الى ذلك من عظم حبها وخافت مع ذلك ان تسمع منه ما يخيب املها . فغلبت عليها الانفة ونقمت على نفسها لتصاغرها الى هذا الحد فاسترجعت رشدها وعزمت على امساك امالها فظهر عليها الانقباض وحدثتها نفسها ان تجافيه وتقطع الحديث فنهضت وهمت بالخروج فامسكها بطرف ثوبها وقد استغرب نفورها فجأة وجذبها نحوه وهو يقول ويظهر العتاب « الى اين يا ميمونة ؟ »

فقالت وهي لا تلتفت اليه « دعني يا بهزاد .. » قالت ذلك وغصت بريقها وهي تحاول التملص من يده

فقال « اقعدي يا ميمونة لاسبيل الى الذهاب الآن ... فانك غريبة هنا ولا منزل لك تلجأين اليه »

فاثر قوله في نفسها وتذكرت مصائبها فوقفت وغطت عينيها بكفيها واطلقت لنفسها عنان البكاء

فرقّ لها قلبه وسكت وقد كاد يختنق ووقع في حيرة وهو يتجلد في كتمان احساسه وقال « كنت تريدين ان تقولي شيئاً ... قولي »

فظلت واقفة وهي تغالب عواطفها وتحاول كتمان هيامها ولا تجد الى ذلك سبيلاً

وشعرت انها مغلوبة على امرها وهيهات ان تقوى على التجلد فاصطكت ركبتاها ولم تعد تستطيع الوقوف فقعدت وهي تتشاغل بمسح عينيها بطرف كمها ثم نظرت الى عينيه فرأت فيهما شيئاً يكاد ينطق بمكنونات قلبه فهمت ان تصرح بما ترجوه منه فغلب عليها الحياء فاذا هو يبتسم لها وعيناه تبرقان وجداً وهياماً ومع ذلك ما زالت خائفة من التصريح فظلت ساكتة

اما هو فاستأنف الكلام قائلاً « قولي يا ميمونة ... قولي » واختنق صوته

فنظرت اليه وقد احمرت عيناها وذبلت اجفانهما فازدادتا سحراً وفتنة وقالت « اراك تبالغ في المجاملة ... كفى يا سيدي .. كفى استخفافاً بي .. قل انك لا يهمك امري وهذا يكفيك مؤونة الاهتمام بي .. »

فقال « بل امرك يهمني كثيراً .. الا يشعر قلبك بذلك ؟ اراك تتجاهلين اكثر من تجاهلي ام انت لا قلب لك » واخشوشن صوته

فابرقت اسرتها وحدقت في عينيه كأنها تستطلع حقيقة مايعنيه وابتسمت والدمع يجول في عينيها كما يضحك الطفل اذا منعته لعبة يطلبها ثم دفعتها اليه فجأة ... وتجلدت والحياء يغالبها وقالت « يهمك امري كثيراً ... كثيراً ؟ قل اذاً انك ... »

ففهم مرادها لكنه اظهر انه لم يفهم فقال « ماذا اقول يا ميمونة .. قولي انت اولاً .. »

فقالت « وهل تحتاج حالي الى قول وهذه دموعي تقول عني فقل انت .. قل بالله .. قل انك تحبني .. او دعني وشأني » قالت ذلك وحولت وجهها عنه وهي تكاد تختنق من تضارب الحب والخجل وخوف الفشل

فلم يعد بهزاد يستطيع امساك هواه ولكنه تراجع وفكر في ما هو فيه من الامر الهام فخاف ان يحول ذلك التصريح دون مشروعه فقال « ان ذلك لا يحتاج الى تصريح .. نعم اني أحبك .. »

فلما سمعت تصريحه غلب عليها السرور حتى كادت تضحك فغصت بالضحك كما كانت تغص بالبكاء وتساقطت دموعها رغم ارادتها ولم تتمالك ان صاحت « انت تحبني يا بهزاد ؟ .. تحبني ؟ تحبني ؟ . أحقيقة ما اسمعه ام وهم ؟ انا في يقظة ام في منام ؟ حبيبي بهزاد انت تحبني ؟ »

فلما أرى لهفتها تذكر ما يسيئه فبدا الاهتمام في وجهه وقال « نعم .. اني .. »

وتشاغل ببلع ريقه وحك ذقنه وسكت

فخافت ان يكون قد ندم على ما قاله فنظرت اليه وقد امتزجت في عينيها ملامح الخوف والرجاء وقالت « ما بالك ؟ اراك تتردد .. ما ذا جرى ... الا تحبني ؟ »

قال « بلى أحبك ولكن ... »

قالت « ولكن ماذا ؟ »

قال « ولكن اسمحي لي ان أقول شيئاً آخر .. »

قالت وقد بان الوجل في محياها « اما وقد قلت انك تحبني فقل بعد ذلك ما شئت ... » ثم قالت « لا .. تمهل ... لا تقل .. اخاف ان تهددني بالفراق .. »

قال « لا اهددك به ولكنه شرط من شروط حبك .. »

فنظرت اليه شزراً وقلبها يختلج وفي عينيها امارات العتاب وقالت بصوت خافت ناعم « أراك تشترط في الحب ... وانا احبك بلا شرط »

فاطرق خجلاً من ذلك التوبيخ اللطيف ثم رفع بصره اليها وقال « صدقت .. لا خير في الحب اذ تقيد بشروط .. ولكني اشترط امراً يعود لمصلحتك .. أأذني لي بذكره واطيعيني فيه »

قالت « اني أحببتك بلا شرط ومن مقتضيات هذا الحب المطلق ان لا اضع عائقاً في طريق حبك فاشترط ما شئت »

فقال « قد علمت الآن اني مسافر ... فاذا سافرت فانما أسافر في خدمتك .. وقد تحسبين انك عرفت حالي وهان عليك الحكم على مستقبلي .. سمعت اني رسول من جماعة الخرّمية ... اني لم أكذب ولكنني اكثر من ذلك وأقول بالاسف اني لا استطيع التمتع بهذا الحب الا بعد الانتقام فاذا بقيت حياً وعدت ظافراً فتلك هي السعادة اذ اكون قد انتقمت لابيك وللقتيل قبله والا فما انا قادر على مقاومة الاقدار ولا اجهل ان هذا الشرط صعب عليك بل هو ظلم مني ولكن لا خيرة في الواقع »

قال ذلك ونهض وهو يقول « انهضي الآن الى فراشك »

فنهضت وقلبها يرقص طرباً وان ساءها فراقه وتأجيل الاقتران ولكن سرّها سعيه في الانتقام لوالدها على انها شغل ذهنها بما قاله عن نفسه من انه اكثر مما عرفت عنهُ فقالت في نفسها من عساه ان يكون . ولكنها لم تجسر على مراجعته او استفهامه فاطاعته

وهمت بالذهاب الى الفراش . فاشار بهزاد الى باب في تلك الغرفة يستطرق الى حجرة وحمل المصباح بيده ومشى بين يديها وهي تتبعه وافكارها تائهة فدخلت الحجرة وفيها سرير عليه فراش من جلد فوقه وسادة وغطاء وقال « هذا هو فراشك الليلة .. » ورجع والمصباح في يده ولم تمض هنيهة حتى توارت اشعة ذلك المصباح عنها فنزعت الخمار ونامت

الفصل التاسع والثلاثون

الحفر

توسدت الفراش كما هي وتغطت واستولى السكوت على ذلك البيت الا شخير جدتها فانه مازال يشوش ذلك الهدوء وقد خيم الظلام . فلما خلت بنفسها عادت اليها هواجسها وتذكرت ما مرّ بها في مساء ذلك اليوم من الاهوال منذ كانت مختبئة في الايوان الى ان اطمأن خاطرها وتحققت محبة بهزاد لها فانشرح صدرها ولكنها انتبهت لامر كانت شديدة الميل للاطلاع عليه وقد شغلت عنه بحديث العتاب — انتبهت لذلك الصندوق ورغبتها في معرفة ما فيه فعوّلت على اغتنام فرصة ثانية لاستطلاعه

قضت ميمونة ساعة وساعتين وهي تتقلب على الفراش واجفانها لا تغمض لعظم تنبهها على اثر ذلك الحديث رغم ما شعرت به من التعب البدني والعقلي . وطال ارقها حتى ملت الوساد وحدثتها نفسها ان تنهض ولكن الظلمة اقعدتها عن كل حركة فصبرت نفسها على ملازمة الفراش ريثما يطلع النهار

وهي في تلك الحال من الارق والقلق وقد زادها السكوت وحشة سمعت حركة وراء الحائط فاصغت فاذا هي تسمع ضرب معول في الارض . فخفق قلبها وظنت لاول وهلة انها واهمة فتنصت فسمعت تهامساً فنهضت مذعورة وتلفتت الى جدران الحجرة فرأت فوق سريرها نافذة صغيرة يبدو منها بصيص نور ضعيف . فاخرجت رأسها من النافذة فرأت خلاءً بين البيت والسور على ارضه مصباح عرفت انه مصباح بهزاد ورأت رجلاً طويلاً قد حسر عن ساعديه وشمر عن ساقيه وكشف راسه وبيده معول وامامهُ حفرة وقد اخذ ينبش بمعوله وبين يديه رجل آخر عرفت حالاً انه بهزاد وتفرست بصاحب معول فاذا هو سلمان . فزادت دقات قلبها وارتعدت ركبتاها

وتعاظم ارتعاشها حتى كادت تسقط فتجلدت واسندت نفسها الى النافذة وهي تحاول الاختفاء لئلا يراها بهزاد . وتربصت فسمعت بهزاد يقول « لا بد ان يكون هنا .. احفر ايضاً »

فقال سلمان « اخاف ان تكون مخطئاً يا سيدي فقد اخرجنا تراباً كثيراً ولا اجد أثراً للجثة »

فقال « لا .. لست مخطئاً .. الم يكن هنا ايوان شابور ؟ .. »

قال « بلى .. »

قال « وقد أكد لي ذلك الشيخ الهرم ان المنصور كان يجلس في قاعة الايوان مكان هذا البيت وانهم دفنوا الجثة في بستان الايوان ولا يمكن ان يكون البستان في غير هذا الخلاء وقد نبشنا كل بقعة منه ولم يبق غير هذه ... فاحفر »

قال « ليت ذلك الشيخ كان معنا الليلة فيهدينا الى ... »

قال « الم اقل لك انه مات ونشكر الله لبقائه حياً حتى دلنا على المكان وهو على ثقة من قوله لانه كان في عهد المنصور شاباً واصابه مما شاهده تأثير محزن لم ينسه في عمره .. احفر .. انا على هدى »

فعاد سلمان الى الضرب بمعوله وجرف التراب الى الخارج وهو يقول « اني لا أرى اثراً للجثة يامولاي »

وكان بهزاد في اثناء ذلك يتفرس بما يخرج من التراب ثم انحنى وقبض على قطعة من نسيج نفض التراب عنها وقال « اليست هذه قطعة من ذلك البساط ؟ »

فامسك سلمان عن الحفر وتناول ذلك النسيج وقد تهرأ وتقطع وقال « بلى .. بلى .. انها جزء منهُ .. » وعاد الى الحفر بهمة ونشاط وميمونة تتفرس فيهِ وتستغرب حركاتهِ

وبعد ان اشتغل برهة تعب وصار يلهث وتصبب العرق عن ساعديه ووجههِ فوقف واسند يدهُ على المعول وتنهد تنهداً شديداً فابتدره بهزاد قائلاً « اظنك تعبت ولكن لا بدَّ لنا من اتمام عملنا في هذه الليلة .. هات المعول » ومدَّ يده فتناول المعول واخذ يشتغل بالحفر بسرعة ونشاط ولم يحفر هنيهة حتى سمعت ميمونة مصادمة المعول لجسم صلب كأنهُ اصاب حجراً ورأت بهزاد توقف عن الحفر ومد يده فاستخرج قطعة عظم مستطيلة وصاح « هذه ساقهُ او فخذه ... ابشر يا سلمان »

فتقدم سلمان ونزل الحفرة بنفسه وجعل يجرف التراب بيديه ويبحث فيهِ حتى عثر

على شيء تناوله بين السبابة والابهام ودفعهُ الى بهزاد وقال « هذا خاتمٌ »

فاخذ بهزاد الخاتم وتقدم نحو المصباح وتفرس فيه وقال « انهُ خاتمه بعينهِ »

قال « وكيف عرفت ذلك يا سيدي ؟ »

قال « ألا تذكر انهُ واحسرتاه عليهِ لما استقدمه المنصور من خراسان اوصى كاتبهُ اذا جاءه كتابه وعليهِ ختمه كاملاً لا يعمل بهِ وانما يعمل بالكتاب اذا كان عليه نصف الختم فقط ؟ »

قال « بلى .. »

قال « انظر ان هذا الخاتم عليهِ اسمهُ وهو ممحو من احد جانبيهِ .. فهو خاتمهُ وهذه هي ساقه فابحث عن الجمجمة .. »

فاخذ سلمان يحفر بيده ويخرج قطعاً من اقمشة متهرئة او من عظام نخرة واخيراً اخرج الجمجمة وناولها الى بهزاد فنفض التراب عنها وقد بدا البشر في وجهه بتخلله انقباض ثم امتقع لونهُ وقال « هذا هو رأسهُ .. هذا هو رأس المقتول ظلماً .. ان عثورنا عليهِ يساوي نصف الخلافة واذا انتقمنا لهُ فقد نلنا الخلافة كلها » وما تمالك ان قبلهُ واكب سلمان عليهِ فقبله واخذ يمسح التراب عنهُ بطرف ثوبهِ بلطف واحترام وبهزاد واقف ينظر الى الرأس وقد تغيرت سحنتهُ وتجلى الغضب في عينيهِ فابتدره سلمان وقال « اهنئك ياسيدي بما توفقت اليهِ فقد وقعت على ضالتك وكفى الآن .. فاذا شئت رجعنا الى المنزل للراحة فقد كان هذا الليل شاقاً عليك .. » قال ذلك وتحوّل نحو المصباح فحمله باحدى يديه والجمجمة باليد الأخرى ومشى بهزاد في اثره وقد تولاه السكوت والغضب كانهُ اصيب بجمود

اما ميمونة فلما رأتهما تحولا نحو المنزل قعدت على فراشها وقد انهكها التعب وزادت هواجسها وتهيبت من الخروج الى بهزاد في تلك الساعة للاستفهام عن سرّ ما شاهدتهُ وصبرت نفسها الى الصباح

قضت بقية ذلك الليل كانها في بحر هائج ولم تغمض عينيها الاَّ قبيل الفجر فاستغرقت في النوم ولم تستيقظ حتى ايقظتها جدتها ففتحت عينيها فرأت جدتها واقفة عند رأسها وهي تقول لها « قومي يا ميمونة اننا على اهبة المسير »

الفصل الاربعون

الفراق

فنهضت مذعورة وندمت على استغراقها في النوم وتلثمت بخمارها واحتذت نعالها ومشت في اثر جدتها حتى خرجتا من البيت الى الدهليز فسمعت صهيلاً فالتفتت فرأت بهزاد على جواده وقد تزمل بعباءته وجعل الصندوق بين يديه على القربوس والتفت الى ميمونة وعبادة واشار اليهما اشارة الوداع واومأ الى سلمان قائلاً « اذهبا مع سلمان .. » وهمز جواده

فاحست ميمونة كأن قلبها نزع من مكانهِ وهمت ان تستوقف بهزاد فاذا هو يسوق فرسهُ مسرعاً فبهتت وكاد الدم يجمد في عروقها ونسيت موقفها ولم تتمالك عن البكاء حتى انتبهت واذا جدتها قد امسكت بيدها وقالت « هلم بنا الى القارب فانهُ في انتظارنا على الشاطىء . واما الطبيب فانهُ سيوافينا الى قصر المأمون . »

فمشت وقد تولتها الدهشة وعيناها شائعتان نحو بهزاد حتى توارى وجدتها لاتعلم بما يكنهُ قلبها او لعلها علمت ببعض ذلك وتجاهلت رفقاً بعواطفها خلافاً لعادة العجائز في حب الاستطلاع والبحث عن الاسباب وان كانت لاتهمهن خصوصاً اذا لم يكن لهنَّ مايشغلهن عن امور الناس فانهن يجدن في الحديث عن الآخرين لذة . واذا توسمت احداهن في جارتها شيئاً جديداً بذلت كل وسيلة في استطلاع كنهه . اما عبادة فقد ربيت في بيت رجل كبير وتعودت معاناة العظائم ومشاهدة الغرائب وانقطعت لتربية ميمونة وتولت كفالتها ولازمتها ملازمة الظل فهي لاتخاف ان تأتي امراً يخالف ارادتها . ولو لحظت فيها ميلاً الى رجل لا ترضاه لها ما سكتت عنها واما بهزاد فانها اكثر ميلاً منها اليهِ فآثرت السكوت حتى ترى ما يأتي بهِ القدر

ساروا الهوينا نحو الشاطىء وسلمان بلباسه الاصلي وقد التفع بعباءته وما زالوا سائرين حتى اقبلوا على دجلة فرأوا الحراقة في انتظارهم فركبوا فيها وامروا الربان فادار الدفة نحو بغداد وأرخى الشراع وجلست عبادة بجانب حفيدتها على مقعد في صدر الحراقة وكل منهما في هاجس . وجلس سلمان بجانب الربان وهو يتلفت نحو الشاطىء على الجانبين كأنهُ يراقب امراً يتوقع حدوثهُ

ولم تصعد السفينة بهما ساعة حتى رأيا حراقة نازلة من جهة بغداد تشق عباب الماء وعليها علمٌ عرف سلمان حالا انهُ علم الفضل بن الربيع وان السفينة من سفنهِ فاختلج قلبه في صدره واسرع الى ميمونة وعبادة واشار اليهما ان تنزلا عن المقعد وتستترا . فلما رأت ميمونة اشارتهُ ولهفتهُ خافت ونزلت وعيناها تراعيان الحراقة حتى دنت منهم وقد فرشت بالسجاد والوسائد . فرأوا فيها جماعة من الخدم وقوفاً وفي صدر المجلس شابٌ جميل الخلقة عرفت عبادة حالاً انهُ ابن الفضل والتفتت الى ميمونة فرأتها تنظر اليهِ وحالما تحققتهُ انقبضت نفسها وضاقت حتى صار لون وجهها كلون التراب واغضت بصرها وتشاغلت باصلاح خمارها

اما عبادة فنظرت الى سلمان كانها تستطلع رأيه فاذا هو يبتسم تشجيعاً لها وقال بصوت منخفض « لا تخافي يامولاتي ان هذا الغلام لايتجرأ على امر ونحن في حراقة مولاي المأمون»

فقالت « وما الذي كان يفعله لو كنا في سواها ؟ »

قال « ربما اوقفها واستفهم عمن فيها لانهُ ذاهب الى المدائن للبحث عن . . . » واومأ بعينهِ الى ميمونة

فقالت « قبحهُ الله انهُ لايزال على عزمهِ ؟ »

فقال وهو يبتسم « وقد استشار المنجمين واستكتبهم الارصاد التماساً لمحبتها فقالوا لهُ انها خرجت من المدائن فالظاهر انهُ لم يصدق قولهم فذهب ليتحقق ذلك بنفسه . . »

وسمعت ميمونة قول سلمان وتجاهلت حياءً واتقة ولكنها عجبت لاطلاع سلمان على خبرها مع ابن الفضل وتركت الكلام لجدتها فقالت هذه « خسيء النذل انه لا ينال قلامة من ظفرها وانا حيةً »

وكانت حراقة ابن الفضل قد حاذت حراقتهم ووقف بعض الخدم على حافتها يتفرسون في ركابها فلم يقع نظرهم على غير سلمان وهب انهم رأوا غيره فان هيبة المأمون تمنعهم من التحرش بها

مرت حراقة ابن الفضل وميمونة ترتعد خوفاً وكرهاً فلما تجاوزتهم اراد سلمان ان يعبث بالفتاة ليخفف ما بها فقال « ارى مولاتي كثيرة النفور من ابن الوزير وهو يكاد يموت شغفاً بها . . »

فرفعت ميمونة نظرها اليهِ لتتحقق غرضه من ذلك الكلام فرأته يبتسم فامسكها الحياء عن الكلام فقالت جدتها « اننا لا نقدر على النظر الى هذا الشاب . »

فقطع كلامها وقال « ولا الى ابيهِ »

وكانت عبادة تظن سلمان يجهل حقيقة حالها فلما سمعت ما قالهُ استغربتهُ ورنت اليه كانها تنكر عليهِ قولهُ فابتدرها قائلاً « يحق لك يامولاتي ان تكرهيه وتكرهي اباه ولا تعجبي لاطلاعي على سبب هذا الكره فاني خليفة مولاي الطبيب في نصرتكما .. اركنا اليَّ وثقا بي فاني خادم لكما .. »

فلما سمعت عبادة قولهُ توسمت الصدق في لهجتهِ فاطمأن بالها . واما ميمونة فلما سمعت ذكر حبيبها تنبهت لما هي فيهِ وقالت وهي تظهر السذاجة « العل الطبيب مسافر ؟ »

قال « نعم انهُ مسافر للبحث عن بعض العقاقير الطبية » وضحك

فادركت ميمونة انهُ يمازحها وهو لاشك عارف باسرار مولاه فابتسمت وقد استأنست بمزاحهِ وارتاحت الى خفة روحهِ وقالت « هل تظنهُ يسافر قريباً ؟ »

فاجابها وهو يضحك « انك تسألين هذا السؤال قلقاً على مولاتنا بنت المأمون لانها لا ترضى العلاج الا من يده ... بارك الله فيك .. نعم اظنه مسافراً قريباً ... والحق يقال اننا اذا حتمنا بعمل يعمله فانما نتكهن ونخاف ان يخطىء ظننا لانه يعمل ما يعمله فجأة .. »

فقالت عبادة « بلوح لي انك تتجاهل يا سلمان فان الطبيب لا يخفي عنك شيئاً على ما يظهر ... وانت تقول انك لا تعلم بوقت سفره »

فلما سمعها تتكلم بصيغة الجد اراد ان يغالطها لئلا تعتمد على قوله فيكون قد باح بما يعلمه وان كان لا يخاف عاقبة اطلاعهما عليه فقال « ان مولاي الطبيب حريص على مقاصده ضنين بما يكنه ضميره وهب انه ينوي سفراً فهو لا يكاشفني به صريحاً فلعله كاشفك بذلك يا مولاتي ؟ » قال ذلك ووجه كلامه الى ميمونة

اما هذه فاحترست مما احترس هو منه وهب انها لم تخف التصريح بما تعلمه فالحياء يمنعها من الخوض في هذا الشأن فاطرقت وتصاعد الدم الى وجهها فتوردت وجنتاها فاكتفى سلمان بذلك واراد تغيير الحديث فتحول نحو الربان وقال له « العلنا لا نزال بعيدين عن بغداد ؟ »

فاجابه وهو يشير باصبعه الى الامام « اليست هذه قصور كلواذة ؟ »

فالتفت سلمان وتفرس في الافق وقال « بلى اني ارى ابنية هذه البلدة عن بعد ... فاذاً نحن على مقربة من دار السلام »

قال « نحن على مقربة منها ولا نلبث ان نرى مأذنة جامع المنصور . ثم نشرف على قصر مولانا »

ولما سمعت ميمونة ذكر القصر تذكرت دنانير وزينب وكيف ذهبت مهمتها من حيث استقدام بهزاد للطبيب عبثاً . وأخذت تفكر في ما تقوله لدنانير هل تخبرها بحقيقة الحال ام تكتم ما اطلعت عليه . وهي تفكر في ذلك واذا بسلمان يدنو نحوها باهتمام فلما اقترب منها قال وهو يوجه خطابه الى عبادة « لا يخفى على مولاتي ان ما شاهدناه الليلة من حال مولانا بهزاد يجب ان يبقى مكتوماً »

فقالت عبادة « وماذا نقول لدنانير اذا سألتنا عنه ؟ »

قال « نقول اننا لم نجده في بيته »

فقالت « حسناً »

الفصل الحادي والاربعون

السفر

تركنا دنانير في صباح الامس بعد ذهاب عبادة وميمونة وهي قلقة على سلامة زينب تنتظر رجوعهما بالطبيب . فانقضى ذلك النهار وهي في انتظارها على احر من الجمر . على ان الفتاة تحسنت حالها قبل انقضائه وبرحت الفراش وعادت الى اللعب كالعادة كأنها لم تكن تشكو مرضاً . وباتوا تلك الليلة وهم يتوقعون رجوع عبادة وميمونة في الصباح فلما مضى نصف اليوم التالي ولم يأت احد اشتغل بال دنانير وحسبت لذلك التأخير غير حساب . وفي اصيل ذلك اليوم جاء بعض الخدم ينبئها بقدوم الحراقة . فخرجت لاستقبالها على المشناة فلم تر الطبيب فيها وبعد ان رحبت بعبادة وميمونة ورات سلمان معهما سألتهم عن الطبيب فقال سلمان « اننا لم نقف له على خبر ألم يأت اليكم ؟ »

قالت « كلاَّ .. ان امره لعجيب .. اين ذهب يا ترى ؟ »

فقال « لا ادري .. وهذه عادته في غيابه كأنه مشتغل بامور خاصة لا يعرفها احدٌ وسابحث عنه في بغداد »

وكانوا في اثناء الحديث قد دخلوا القصر فاتهم زينب ووجهها مشرق لا بأس بها

فقبلتها عبادة وميمونة وشغلاها عن الطبيب والسؤال عنه . وبعد ان استتب بهم المقام اظهر سلمان انه ذاهب للبحث عن مولاه في بغداد وخرج ومكث اهل القصر في انتظاره

وعاد في اليوم التالي وهو يظهر الاهتمام وطلب مقابلة دنانير وكانت مع عبادة وميمونة في الحديقة فجاءها بعض الغلمان يقول « ان سلمان يرجو مقابلتك الآن اذا شئت »

فاسرعت وتركت رفيقتيها في حيرة من امر تلك الدعوة ولا سيما ميمونة فاضطرب بالها لما عساه ان يكون المراد منها

اما دنانير فلما لقيت سلمان تقدم اليها وخاطبها سرًّا « اني وجدت مولاي الطبيب على الجسر وكان عازماً على المجيء اليك فلما رآني عهد الي برسالة ابلغك اياها »

فقالت « وما هي ؟ »

قال « اخبرني انه جاءهُ كتاب من مولانا المأمون يستقدمه اليه حالاً .. »

فقطعت كلامه قائلة « من ولي العهد ؟ وهل به بأس ؟ »

قال « كلا . ولكنه أمرهُ بالشخوص الى مرو بلا سبب يعلمه . فانابني بابلاغ ذلك اليكم وامرني ان ابقى هنا تحت امرك بما تريدين »

قالت « وهل يطول غيابه ؟ »

قال « لم يخبرني عن مدة الغياب »

فاطرقت حيناً وقد ساءها ذلك السفر السريع لانها كانت تستأنس ببهزاد وتعتمد عليه على الخصوص بشأن زينب كما علمت . فقالت « سامحه الله ... ولكن لعل له عذراً ... ما الذي حمل مولانا المأمون على استقدامه اليه بهذه العجلة .. » قالت ذلك وتحولت تطلب الرجوع الى الحديقة وهي تقول « فانت تقيم عندنا الآن ؟ »

قال « لا استطيع الاقامة هنا ولكنني اتردد اليكم وقت الحاجة .. كوني مطمئنة »

وعادت دنانير الى الحديقة فرأت ميمونة قد تركت جدتها جالسة في مكانها وتقدمت للاقاة دنانير وقد بدت اللهفة في محياها فلما رأتها تذكرت ما لحظته فيها من الميل الى بهزاد وعلمت ان خبر سفره يسوءها فارادت التظاهر بعدم الاكتراث وكتمان خبر سفره فرأتها تنظر اليها والحياء يمنعها من الاستفهام فادركت مرادها فابتدرتها قائلة « ما بالك يا بنية .. لماذا تركت جدتك وحدها ؟ » قالت ذلك والقت ذراعها على كتفها بتحبب فاحست بارتعاشها فقالت « كأني اشعر بارتعاشك .. »

فرفعت ميمونة نظرها اليها وفي وجهها ملامح الاستعطاف وقد اطمأنت الى ملاطفتها

فقالت « ما الذي اتانا به سلمان ؟ »

قالت « أتانا برسالة من الطبيب »

قالت « وما هي ؟ هل سافر ؟ »

فاستغربت دنانير صدق ظنها وأرادت مداعبتها فقالت « وهل دلك قلبك على سفره؟ فقد قيل من القلب الى القلب دليل »

فخجلت الفتاة لتلك العبارة وهي الى تلك الساعة لم تشعر باطلاع دنانير على شيء مما يكنه قلبها فلما سمعت هذا التلميح احمرّ وجهها وتشاغلت باصلاح احدى ضفائر شعرها وقالت « لماذا تقولين ذلك يا خالة ؟ فانما همني الامر بالنظر الى مولاتنا بنت ولي العهد لعلمي بتعلقها به .. »

قالت وهي تبتسم « بارك الله بمروءتك . واذا علمت انه سافر هل يسوءك سفره من أجل مولاتنا ؟ »

قالت وهي تظهر السذاجة وقلة الاكتراث « هل سافر حقيقة ؟ »

قالت « نعم سافر » قالت ذلك وتفرست في وجهها فرأت البغتة ظاهرة فيه وقد تحول احمرار الخجل الى صفرة الوجل فاستدركت بقولها « ولكنه يعود قريباً ... لان قلبه لا يطاوعه على طول الفراق »

فخافت ميمونة اذا ظلت بين يدي دنانير ان ينفضح امرها فتظاهرت بما يدعو الى ذهابها وانصرفت تطلب غرفتها لتخلو بنفسها فلقيها سلمان في الدهليز فلما وقع نظرها عليه بغتت وخفق قلبها وابتدرته قائلة « سافر بهزاد حقيقة ؟ »

قال « نعم يا مولاتي »

قالت « الى اين »

قال « الى مرو في خراسان حيث يقيم مولانا المأمون .. »

فقالت « كيف سافر وتركنا .. » وغصت بريقها

فقال « قد تركنا جميعاً الاّ انت .. وهذا كتابه اليك » قال ذلك ودفع اليها منديلاً ملفوفاً فتناولته وعلمت من ملمسه ان في جوفه كتاباً فاشرق محياها وخبأت المنديل في جيبها وهمت بالانفراد في غرفتها فاستوقفها سلمان قائلاً « هل تحتاجين الى شيء آخر ؟ »

فخجلت لعجلتها واهماله فقالت « اشكرك يا سلمان . اني لا انسى جميلك وهل استغني

عن مروأتك وقد قلت انه اوصاك بي فافعل بما تراه »

فقال « اني رهين اشارتك وساتردد اليك واقوم باوامرك » قال ذلك ومضى

الفصل الثاني والاربعون

الكتاب

اما هي فاسرعت الى غرفتها وما صدقت انها انفردت بنفسها فجلست على البساط وفتحت المنديل واستخرجت منه لفافة من الكاغد . وكان الكاغد لا يزال قريب العهد بالاستعمال في المكاتبات والفضل في ذلك لابيها جعفر فانه اول من استخدمهُ في الدواوين بدل الجلود ففضت الكتاب وقرأته بلهفة فاذا فيه :

« من المحب الذي تسمونه بهزاد الى ميمونة بنت جعفر بن يحيى المقتول ظلماً »

« اما بعد فقد كنت عازماً ان اكتب اليك بلسان اجدادنا العظام لو كنتِ تفهمينه ولكن قضت صروف الزمان ان نتفاهم بلسان امة ظلمتنا وغلبتنا على امرنا بالغدر والخيانة فقتلت رؤساءنا واستخدمت قوادنا وحكماءنا واستبدت في شؤوننا . وسيأتي يوم نقلب لهم فيهِ ظهر المجن ونأخذ بالثأر فيعلم الظالمون اي منقلب ينقلبون . وكنت احب ان اراك قبل سفري واودعك مشافهة لولا خوفي من ان يغلبني قلبي كما غلبني في اثناء ذلك الاجتماع ففضح سرًّا كتمتهُ عدة اعوام وكنت عازماً على كتمانه حتى يأتي وقتهُ فابوح بهِ في يوم آتي بهِ عملاً يؤهلني لحبك . ولكن ابيت الاَّ ان اقول لك اني احبك فقلت واقول اني احبك .. اني احبك يا ميمونة ... احبك حباً مبرحاً .. اقول ذلك الآن وانا لا احاذر ان يحول قولي دون ما عقدت النية عليهِ منذ عرفتك وقبل ان اعرفك . ولو كنت بين يديك ما قلت ذلك مخافة ان يغلب عليَّ الغرام فاطيعك بل اطيع قلبي في البقاء عندك فاضيع سعياً قضيت العمر في تدبيره . اما وانا في مأمن من ذلك فلا ابالي ان ابوح لك بمكنونات قلبي .... اعلمي يا منيتي اني اوقفت حياتي لك وللانتقام لوالدك وما انا بهزاد ولا انا طبيب ولا كيماوي ولا انا رسول من جماعة او جماعات وانما انا من ستعرفينه وتفتخرين بحبهِ . ولا اقول من انا حتى تاتي الساعة ودون الوصول اليها قطع الرقاب والاستهداف للحراب .. اني ذاهب الى خراسان لابدعوة المامون ولا بأمر احد من الناس وانما

انا ذاهب لاتمام امر بدأت بهِ ولا بد من اتمامهِ اني ذاهب طوعاً لصراخ صاعد من اعماق القبور ينادي اهل النجدة ان ينتقموا للمظلوم من الظالم — واما الصندوق فقد كنت احب ان أُريك ما يحويه ولكنني اشفقت على قلبك . وسأفتح لك الصندوق كما فتحت لك قلبي ولكل اجل كتاب . اقيمي في بغداد في حراسة الله وقد اوصيت غلامي سلمان ان يقوم بخدمتك وهو امين صادق فاعتمدي عليهِ وثقي بهِ واحتفظي بما اطلعت عليه من سري حتى ياتيك النبأ الصحيح من خراسان يوم تنقلب الاحوال وينتصر الحق على الباطل . واذا لم يسعدني الزمان بما ارجوه فاني أموت ناعم البال وقد فعلت فعل الرجال . وغاية ما يستطيعهُ الانسان ان يجود بنفسهِ في نصرة الحق . ولله ما وراء ذلك وهو على كل شيء قدير »

وما انت على آخر الكتاب حتى امتقع لونها وتغيرت سحنتها وكادت تسمع نبضان قلبها باذنها وقد خارت عزائمها وتوهمت نفسها في حلم ففركت عينيها . ولما تحققت يقظتها طوت الكتاب وخبأته في جيبها واستلقت على البساط واستغرقت في بحار الهواجس فراجعت في مخيلتها خلاصة علاقتها ببهزاد منذ عرفتهُ بالمدائن وما كان من عنايتهِ بها وبجدتها وكانت تحسبهُ يفعل ذلك رغبة في الاحسان وانهُ لا يعرف حقيقتها . وقد ظهر لها من ذلك الكتاب انهُ كان مشغوفاً بها عالقاً بحبها فندمت على ما اضاعتهُ من الفرص بمكاشفته الغرام

على انها تذكرت بعض ما جاء في كتابه من الوعود والاشارات فاشتاقت الى تلاوتهِ فاستخرجته واعادت قراءته ثانية وثالثة وهي تحاذر ان يدهمها قادم او يراها راءٍ . ثم سمعت خطوات قريبة فاخفت الكتاب واستقلت وهي تظهر الميل الى الرقاد . ثم تباعدت الخطى وعاد السكوت فعادت الى هواجسها فراجعت ما ارتسم في ذهنها من عبارات حبيبها فرأت انهُ معرض نفسهُ لخطر الموت فاختلج قلبها خوفاً عليهِ وفضلت رجوعه عن عزمهِ وبقاءهُ معها تتمتع برؤيته . فلما تصورت عزمهُ على الانتقام لوالدها هان عليها الفراق وتكبد مضض البعاد وخيل لها انهُ سيعود ظافراً منصوراً فتفتخر بهِ وتعوض عما قاسته من الذل والاستتار

الفصل الثالث والاربعون

الشاكري

على انها تحيرت في امره ومن عساه ان يكون اذا لم يكن بهزاد الطبيب ولا رسول الحرمية . ولما اعياها التفكير استسلمت الى التقادير وصبرت نفسها لترى ما تاتي بهِ الايام . ولما طال تفكيرها واستغرقت في هواجسها وهي مستلقية غلب عليها النعاس وكادت تنام واذا بقارع يقرع الباب فنهضت وفتحتهُ فرأت دنانير وحدها فرحبت بها . فدخلت وهي تضحك فأظهرت ميمونة انها كانت نائمة فقالت دنانير « ما لي اراك منفردة يا بنية ؟ »

قالت « استلقيت على هذا البساط لاستريح فشعرت بألم الرأس وغلب عليَّ النعاس »

فاظهرت انها صدقتها وتحولت تريد الخروج وهي تقول « نامي يا حبيبتي لعلك ترينه في الحلم »

فاستغربت تعريضها وانكرت قولها وقالت « وماذا تعنين ؟ »

قالت وهي تلتفت نحوها « لاتخافي يا ميمونة .. ان جدتك غائبة الآن فلا تكتمي . على ان تكتمك لا ينفعك وانا قهرمانة قد عانيت الزمان ولا فائدة من الكتمان لاني قرأت الكتاب من عنوانهِ »

فتوهمت ميمونة انها تشير الى ذلك الكتاب مع علمها انها لم تره فقالت « واي كتاب تعنين ؟ » وبدا الارتباك في وجهها

فقالت « لا اعني كتاباً مرقوماً » وتحولت نحوها بجملتها وقالت « وانما اعني ان دلائل الحب لا تخفى على احدٍ وقد عرفت حبك بهزاد من اول مقابلة ويسوؤني انهُ سافر قبل ان ... » واومأت بجفنها

فخجلت ميمونة من ذلك الايماء ولكنها سرَّت لبقاء الكتاب مكتوماً عنها وهان عليها مكاشفة دنانير بحبها وفي المكاشفة راحة للمحبين اذا وثقوا من كتمان حبهم فابتسمت واطرقت

فاستبشرت دنانير بقرب اقرارها وهي انما تلتمس ذلك منها لمشاركتها بالسعي في نيل مطلوبها فالقت يدها على كتفها واشارت اليها ان تقعد فقعدت وقعدت ميمونة الى جانبها وهي تلاطفها وتهش لها لتجرئها على المكاشفة ثم قالت « سامح الله طبيبنا كيف سافر قبل ان يتم العقد ... لاتخجلي يا ميمونة فانك تحبينهُ حباً طاهراً ولا شك انهُ يحبك أيضاً . وهو

من خبرة الشبان لا حرمك الله منهُ »

فتجرأت ميمونة على الكلام وقالت « وهل الحب عيب يا خالة ؟ »

قالت « معاذ الله .. الم اقل لك ذلك . ؟ فلا يصعب عليك فراقه فانهُ لا يلبث ان يعود . فلا تجزعي »

فتنهدت وسكتت والسرور بادٍ في اسرتها ثم قالت « اني يتيمة مسكينة فلعل الله شفق على ذلي واراد تعزيتي وفي كل حال فانا لاغنى لي عن مساعدتك لاني في حماك وتحت رعايتك »

قالت « انك مولاتي وبنت مولاي ولا انسى فضل والدك رحمهُ الله . فكوني على يقين اني عون لك بكل ما استطيعهُ وهذه مولاتنا زينب قد احبتك واستأنست بك ... »

ولم تتم كلامها حتى سمعت خطوات مسرعة نحو تلك الحجرة وصوتاً مرتجفاً ينادي « اين مولاتنا القهرمانة ؟ »

فعلمت دنانير ان بعض الغلمان جاءها بمهمة فصفقت فجاء الغلام حتى وقف بالباب وصاح « أأدخل ؟ »

فقالت « ادخل »

فدخل وقد علتهُ البغتة وحياً

فصاحت بهِ « ما وراءك ؟ »

قال « ان شاكرياً بباب القصر يقول انهُ يحمل كتاباً اليك »

فقالت « شاكرى ؟ وما شان الشاكرية عندنا . انهم رسل الخليفة وليس في القصر رجالٌ .. لعلهُ مخطيءٌ برسالتهِ »

قال « قد اخبرتهُ بذلك فقال انهُ يحمل رسالة الى قيمة القصر » وسماك باسمكِ

قالت « اذهب وهات الرسالة لنرى فحواها »

فخرج وظلت دنانير وقد استغربت الخبر واما ميمونة فارتبكت في امرها وخافت ان تكون الرسالة بشأنها او لامر يسوها . ومن تتوالى عليه النوائب انما يسبق الى ذهنه ما يسوءُه و يغلب ان يصدق ضميرهِ

الفصل الرابع والاربعون

الكتاب

ولم تمض هنيهة حتى عاد الغلام وفي يده كتاب مختوم دفعهُ الى دنانير وخرج فنظرت في الختم فرأتهُ ختم الفضل بن الربيع وزير الامين فتشاءمت من رؤيته وأخذت في فضه وبدها ترتجف وادركت ميمونة بغتتها فاختلج قلبها ولبثت تنتظر ما يبدو منها . ففضت دنانير الكتاب وأخذت تقرأه والدهشة بادية في عينيها وميمونة تراقب حركاتها وتكاد تخطف الكتاب من يدها لتطلع على ما فيه . ولكنها تجلدت وصبرت نفسها فرأت دنانير بعد ان فرغت من تلاوة الكتاب اعادت قراءته وقد ظهر الارتباك عليها ثم تحفزت للوقوف فلم تتمالك ميمونة عن ان امسكتها بيدها وصاحت وصوتها يرتجف « الى اين ؟ .. قولي لي اليس هذا الكتاب بشأني ؟ اني أرى عليه ختم الفضل بن الربيع . لا ريب انه يتعلق بي .. »

قالت « واذا كان بشأنك فانه يخاطبني انا .. »

قالت « اذاً هو يتعلق بي .. قولي .. ماذا يريد مني .. ويلاه قولي .. »

فانتترت دنانير منها ونهضت وهي تقول « لا علاقة له بك .. »

فتبعتها وأمسكت بيدها وترامت عليها وقالت « اتوسل اليك ان تصدقيني .. بالله قولي ولا تخفي عني واعذري لطفي »

فخلصت يدها بلطف وقالت وقد بان الغضب بوجهها « ان هذا الرجل قد بالغ في القحة . وتجاسر كثيراً ... وكانه اغتنم غياب سيدي وحسب اننا نخاف سطوته ونطيع اوامره .. قبحهُ الله »

فزادت ميمونة تأكداً ان الكتاب يتعلق بها فصاحت « مهما يكن من فحوى هذا الكتاب فاني احب الاطلاع عليه والامر لك في كل حال .. اطلعني عليه ولو كان فيه قتلي بالله اطلعيني عليه »

فلم تر دنانير بدّاً من مسايرتها فدفعت الكتاب اليها فتناولته بيدها وهي ترتجف وقرأته وهاك نصه :

« من الفضل بن الربيع وزير امير المؤمنين الى القهرمانة دنانير

« اتصل بامير المؤمنين ان في قصر مولانا المأمون فتاة اسمها ميمونة جاءت القصر من عهد قريب ويحب ان يراها ويسألها عن بعض الشؤون ويطلب سرعة ارسالها مع الشاكري حامل هذا الكتاب »

وما اتمت ميمونة تلاوة الكتاب حتى غشي الدمع عينيها وكاد الكتاب يقع من انامِلها لفرط ارتعاشها وصاحت « ويلاه ان حبل تعاستي لا يزال متصلاً ... ويلاه .. ماذا افعل ... دعيني اخرج من هذا القصر ولا تحملوا غضب الخليفة من أجلي .. »

فاخذت دنانير تخفف عنها وقالت « لا بأس عليك ... ... لا تخرجي من هنا .. ولا نسلمك لاحد انك في ضيافتنا وجوارنا .. كوني مطمئنة .. » قالت ذلك وخرجت وظلت ميمونة وحدها . ولما صارت دنانير في الدهليز صفقت فجاء الغلام فقالت « قل للشاكري ان يذهب ولا جواب عندنا على الرسالة ... »

ورجعت الى ميمونة وهي ترتجف من الغضب فوقعت ميمونة في حيرة واخذت تندب حظها ودنانير تطمئنها وتخفف عنها . وهما في ذلك اتت عبادة وهي خلية الذهن من الامر فلما رأتهما في تلك الحال قالت « ما بالكما ... ماذا جرى ؟ »

فابتدرتها ميمونة قائلة « هلم نخرج من هذا القصر لئلا نكون سبباً في غضب الخليفة على اهله .. » قالت ذلك وهمت بالخروج

فاستغربت عبادة قولها وقالت « لماذا ؟.. ماذا حدث في هذه الساعة ؟ »

قالت ميمونة « ان وزير السوء كتب في طلبي وزعم ان امير المؤمنين يحب ان يسألني عن بعض الشؤون .. »

فاطرقت عبادة وفكرت هنيهة وقالت « قد علمت السبب في ذلك . ان هذا الكتاب لا يمكن ان يكون من أمير المؤمنين وانما كتبه الفضل لغرض في نفسه انا اعلمه واظنكما تعلمانه ايضاً . والاحسن ان نخرج من هذا القصر قبل ان يتفاقم الخطب ويحدث مالا تحمد عقباه بيننا »

فصاحت دنانير « انكما في ضيافتنا ولا تخرجان مطلقاً .. ايجسر هذا الوغد على اضياف ولي العهد .. حاشا لله ان تخرجا على هذه الصورة »

وتذكرت ميمونة سلمان وشعرت بافتقارها الى رأيه فقالت « واين سلمان الآن . فقد زعم ان بهزاد اوصاه بناء .. »

فلما سمعت دنانير اسم سلمان هدأ روعها واسترجعت رشدها وقالت « اذا جاء سلمان شاورناه في الامر فانه خبير ونرى ما يكون »

الفصل الخامس والاربعون

مجلس الفضل

اما سلمان فانه رجع من قصر المأمون في ذلك الصباح الى مخدعه ففير هندامه وجعل نفسه الملفان سعدون وسار حتى دخل مدينة المنصور وتوجه الى قصر باب الذهب وهو يتوكأ على عكازه ويسرح لحيته وقد تأبط كتابه ومشى يلتمس المنزل الذي اعدّ له في اثناء اقامته هناك بامر الامين . فدخل حجرته وتظاهر باستغراقه في المطالعة والاهتمام بكشف امر همه — ظل في ذلك الى العصر وهو يتوقع من يأتيه في استفتاء او استطلاع لعلمه ان الجواسيس والعيون مبثوثة بالابواب ينقلون خبر القادمين والذاهبين الى صاحب الشرطة سرًّا

وهو في ذلك سمع وقع حوافر جواد تقترب من حجرته فاصاخ باذنيه فسمع الراكب يجول ويخطو نحو بابه مسرعاً فادرك من رائحة الطيب التي فاحت انه ابن الفضل وعلم من سرعة خطوه انه جاء متلهفاً فظل جالساً حتى سمع قرع الباب فنهض وفتح له واستقبله بفتور واستخفاف على غير عادته فتهيب ابن الفضل من رؤيته لما سبق الى ذهنه من اقتداره على استطلاع الغيب فحياه وهو يبتسم وقال « كيف حال الملفان سعدون اليوم ؟ »

فاجابه بالاشارة ان يدخل ويجلس وظل ساكتاً

فابتدره ابن الفضل قائلاً « ما بالك يا ملفان ؟ مالي اراك غاضباً »

قال « تفضل يا ابن الوزير واجلس .. من انا وما هو غضبي ... ولكنني رايت اهل هذا الجيل لا يليق بهم غير الخداع والكذب » قال ذلك وجلس واشار الى ابن الفضل ان يجلس

فقال ابن الفضل « لا حاجة بي الى الجلوس .. اني لم آتك لامر يهمني وانما ادعوك لمقابلة والدي »

قال « اذا كان والدك يسيء الظن بي ولا يصدق قولي كما فعلت انت فلا فائدة لهمن سماع كلامي »

فاستغرب ابن الفضل تعريضه به وعلم انه يشير الى ذهابه للبحث عن ميمونة في المدائن بعد ان اكد له سعدون انها خرجت منها ولكنه تجاهل وقال « ما هذا التعريض والتلميح واي متى اسأت الظن بك ؟ »

قال « اظنك تحملت المشقة في الذهاب الى المدائن لانك صدقت قولي انها خرجت منها ؟ هل وجدتها هناك ؟ »

فخجل ابن الفضل وغلب على حجته ولكنه غير الحديث وقال « سنعود الى هذا الشأن في فرصة أخرى .. والآن تفضل الى والدي فانه سيسألك عن امر هام يتعلق بالدولة والخلافة .. »

ففهم من هذه العبارة على سذاجة قائلها ما يغنيه عن بحث طويل وقال « اني رهين اشارة الوزير .. اين هو الآن ؟ »

قال « هو في قاعة صاحب الشرطة بهذا القصر »

فمشى سعدون الى نعالهِ شدها بقدميه وناأبط كتابه وقبض على عكازه وخرج في اثر ابن الفضل وهو يفكر في ما عساه ان يسمع من الاسئلة وان كان قد ادرك ان الغرض الاول السؤال عن بهزاد . استنتج ذلك من القرائن الجارية ومن قول ابن الفضل ان اباه سيسأله عن امر يتعلق بالدولة . ولكنهُ كان يهاب الفضل ويخاف فراسته ودهاءه ولا سيما بعد ان رآه مطلعاً على خبر بهزاد ومجيئه الى بغداد وأمر بالقبض عليه ففشل . فسار سعدون في اثر ابن الفضل وهو مطرق يتمتم ولم يكن يخاف ابن ماهان صاحب الشرطة لعلمهِ بضعفهِ واغتراره بنفسهِ

وبعد هنيهة وصلا الى مجلس صاحب الشرطة فدخل ابن الفضل بلا استئذان وظل الملفان سعدون واقفاً . فلما وصل ابن الفضل الى القاعة ناداه فدخل فرأى الفضل متكئاً في صدر القاعة على وسادة كبيرة وقد اقطب حاجبيه وظهر الاهتمام في وجهه وبيده مذبة يذب بها عن وجهه وكتفيه ولاهوام هناك وانما كان يتشاغل بذلك لما تزاحم في خاطره في المشاغل الهامة وابن ماهان جالس بجانبه على وسادة وقد ارسل لحيته على عرض صدره وبالغ في صبغها بالحناء فجاءت شديدة الحمرة ومع طعنه في السن ما زال ينكر على نفسه عدد سني عمره ويغالب الشيخوخة فقعد متعنساً وفي وسعه ان يتكيء بين يدي الفضل

على غير كلفة وانما خاف ان يعدّ ذلك منه عجزاً وهرماً

فلما دخل ابن الفضل لم يتحرك ابوهُ من متكئه وانما وجه بصره الى سعدون وقال « هذا هو الملفان سعدون ؟ اظنني رأيته بالامس هنا ؟ »

فقال « نعم يا ابتي ... وهو رئيس المنجمين في دار مولانا الامين »

فاشار اليه ان يقعد فقعد وهو مطرق يتظاهر بالسذاجة وقلبه يخفق تهيباً من الفضل بعد تلك المقابلة الباردة « ويكاد المريب يقول خذوني » على انه تمالك وهدأ روعه وتشاغل بتسوية المنديل الحريري حول كتابه المعهود . ولم يمهله الفضل ان جلس حتى سأله « العلك رئيس المنجمين ؟ »

قال « هكذا يقولون يا مولاي ولكني لا استحق هذا اللقب »

قال « يظهر انك اهل لاكثر من ذلك لما بلغني من اخي صاحب الشرطة وابني هذا عن مقدرتك العجيبة على استطلاع المخبأات .. »

قال « اذا ظهر ما يعجب فالفضل فيه لهذا الكتاب ولما تلقيته من القواعد الحقة التي يستعان بها في كشف الغوامض . فانا اقول ما يظهر لي او يلقى اليّ وقد اتلو العبارة وانا لا افهم معناها »

فالتفت الفضل الى ابن ماهان كأنه يستطلع رأيه في ذلك فاجابه هذا باشارة حاجبيه وجبينه مصدقاً لما قيل كل التصديق . فابتسم الفضل ابتسامة تشف عن ارتياب وقال « انا اجربه وعند الامتحان يكرم المرء او يهان هل انت مجيب لما أسألك عنه ؟ »

فرفع الملفان رأسه نحو الفضل وبصره متجهٌ الى المذبة يتحرك بحركتها كانه يظهر التهيب من النظر الى وجهه وقال « اسال ما تريد وانما العلم عند الله فاذا فتح علي بشيء قلته والاّ اعترفت بعجزي بلا حياء ولا خوف .. تلك عادتي وذلك هو شاني .. »

فلما قال ذلك عقب ابن ماهان وابن الفضل على قوله معاً « تمام » لانهما خبرا ذلك فيه

فاعتدل الفضل بمقعده وقال « اني أسألك عن امر هام يتعلق بالخلافة فاصدقني خبره كما تراه ... ولا تظنني اسألك عن امر اجهله ولكنني اختبر معرفتك .. »

فابتسم الملفان ابتسام الاستعطاف وقال « اذا كنت في ريب من صدقي فالأولى اطلاق سبيلي فاني ... »

فقطع الفضل قوله قائلاً « لا .. لا اطلق سبيلك قبل ان اختبر صدقك او

خداعك .. فاذا كنت من اهل العلم الصحيح قل لي عما اضمره »

فلما سمع سعدون جفاء عبارته خافه فعمد الى الملاينة وقال « الامر لمولاي في ذلك وله ان يطلق سراحي او يقيدني او يقتلني او يفعل بي ما يشاء بلا اختبار »

فاحس ابن ماهان باستياء سعدون من تلك العبارة فقال « لا يريد الوزير بك الاّ خيرًا ولكنه تعود ان يرى في بلاط الخليفة جماعة من المنجمين الدجالين ولما قلنا له عن عملك وفضلك احب اختبارك ... فقل ما يبدو لك من امر الخلافة »

الفصل السادس والاربعون

التنجيم

ففتح الكتاب واخذ يقلب فيه و يتمتم و يطرق وهم سكوت ينتظرون ما يبدو منه الى ان قال وهو يوجه خطابه الى ابن ماهان « الم اخبرك عن امر الخلافة قبل ان يعرف احد بخبرها ؟ »

قال « بلى ولكن المراد ان نعرف اعداءنا وما عساه ان يكون من امرهم »

فعاد الى التفتيش في الكتاب وهو يقرأ حتى بدا التعب في وجهه وتصبب العرق من جبينه فاستخرج من كمه قطعة بخور مضغها في فيه واشار ان يعطوه قدحًا فيه ماء ووعاء فيه نار فاتوه بموقد صغير من النحاس كالمبخرة وضعوه بين يديه فالقى قطعة البخور في النار وتناول القدح واخذ يتفرس في الماء تفرس الخائف من امر يطرأ عليه ثم صاح بغتة « الى المدائن .. في قصر شابور ؟ »

وكرر التفرس في الماء جيدًا وهو يقول « اليس هذا قصر شابور ... ومن سكن فيه ؟ » وسكت وهو يختلس النظر الى سامعيه ليرى هل هم يضمرون بهزاد فرأى ابن ماهان يشير بالاعجاب فعلم انه اصاب ولكنه تظاهر بالتعب فالقى القدح من يده وتناول منديله واخذ يمسح العرق من جبينه وهو ساكت فقال له الفضل « وماذا جرى في ذلك القصر ؟ »

فالقى في النار بخورًا واعاد النظر في القدح وقال « اني أرى جندًا وعيارين ... نزلوا من المراكب الى البر مسرعين ... دخلوا ذلك القصر ... »

فقال الفضل « ثم ماذا .. »

قال « ذهب التعب سدى يا مولاي لانهم لم يجدوه في البيت .. »

فابرقت اسرة الفضل ولكنه ما زال يظهر الاهتمام وقال « بورك فيك قد عرفت ما في نفسي فاعلم اني اطلب الرجل الذي كان يقيم في ذلك القصر هل تعرف اسمه ؟ »

فاطرق كانه يراجع امرًا القي اليه ثم قال « يسمونهُ بهزاد الطبيب الخراساني .. »

فلم يتمالك الفضل عن اظهار الاعجاب فقال « هو الذي اطلبه ... اين هو الآن .. ابحث لنا عن مكانه .. »

فعاد الى الكتاب وقلبه وبحر ونظر في القدح قليلاً ثم وضع القدح من يده وصفق وقال وهو يشير بيده الى خارج بغداد « هو خارج بغداد على جواد في صحراء بعيدة وعليه لباس السفر »

فصاح الفضل « هرب .. هرب الخراساني الملعون ... وهل رأيت خادمه ؟ »

فاعاد نظره الى القدح وقال « لا أرى معهُ احدًا »

قال « وهل عرفت بالتنجيم شيئاً عن خادمه او رفيقه .. »

فعلم سلمان انهُ يعنيه لان الذي اطلع الفضل على خبر بهزاد ذكر رفيقه وانهما جاءا معاً لمهمة سرية من خراسان الى بغداد . سمع الفضل ذلك في خراسان فحالما دخل بغداد امر بالقبض عليهما فلم يظفر بهما — وقد علم سلمان باطلاع الفضل على خبرهما وارساله الجند للقبض عليهما وساعده ذلك على انقاذ بهزاد كما رأيت فلما سأله الفضل عن رفيق بهزاد تجاهل وقال « علمت ان له رفيقاً يسمونهُ سلمان .. »

قال « نعم سلمان .. اين هو الآن ... »

فلما بلغ السؤال الى هذا الحد اضطربت جوارحه ولكنهُ لم يربدًا من التجلد فقال وهو ينظر في القدح ثم يلتفت يمنة ويسرة « انهُ في بغداد ... واظنه في مدينة المنصور ولكنني أراه مستترًا وقد اقام بينه وبين المنجمين سترًا كثيفاً ربما غلبتُ عليه وكشفته في فرصة أخرى »

فقال الفضل « ان بقاء سلمان هذا في بغداد غنيمة كبرى تعوض عن فرار رفيقه وقد بلغني ان سلمان هذا يتزيا كل يوم بزي جديد ويتظاهر بقيافة جديدة ... »

فقال « ولهذا السبب ظهر لي بهذا المندل مستترًا ولكنه لا يخفى على الملفان سعدون ولو تمنطق بالنجوم وتعمم بالشمس وانتعل القمر .. والامور مرهونة باوقاتها »

ثم رأى ان يغتنم هذه الفرصة لنيل البغية التي يسعى فيها اعداء العباسيين فقال « وهل يظن مولاي ان فرار بهزاد خير من بقائه هنا ؟ »

قال « ان فراره منجاة له من ايدينا وكأنك ترى غير ذلك ؟ »

ففتح الكتاب وقلب صفحتين وقرأ ثم قال « ولكنه ذاهب لنصرة رجل كبير في خراسان »

فادرك الفضل انهُ يعني المامون فقال « وما الفائدة من نصرته وهو بعيد »

قال « أرى ذلك الرجل الكبير صاحب سلطان خوَّلهُ اياه امير المؤمنين فيخشى ان يحاربه به ان لم يتلاف امره و يقص جناحيه » وقد اراد سلمان ان يحرض الفضل على خلع المامون ليتسع الخرق بين الاخوين فتسنح الفرصة للطامعين

فادرك الفضل اشارته فالتفت الى ابن ماهان فرآه ينظر اليه مثل نظرته فتفاهما وعولا على تحريض الامين على خلع اخيه والفضل اكثرهما رغبة في ذلك لما يعلمه من حقد المأمون عليهِ لمساعيه ضده ولكنه تجاهل واراد تغيير الحديث فقال « بورك فيك يا ملفان .. » والتفت الى ابنه وقال « لقد اسأنا الى رئيس المنجمين واسانا الظن به واخشى ان نكون قد فرطنا في الامر ... »

فقال ابن الفضل « كنتُ واثقاً بالملفان ولكنك حملتني على الشك بهِ حتى فعلنا ماقعلناه .. »

ولم يكن الملفان عالماً بما فعله الفضل من مكاتبة دنانير بشان ميمونة فنظر الى الفضل وقال « ارجو ان لا يكون في مافعلتموه ضرر »

فقال « انما اسأت بك الظن لما رأيته من انكارك المكان الذي تقيم فيه تلك الفتاة ثم علمنا من جواسيسنا انها في قصر المامون فكتبت الى قهرمانته اطلب ارسالها الينا فاساءت الجواب وردت الرسول خائباً فارسلنا اليها جنداً ياتون بها قهراً ... »

فشق على سلمان ما قد يصيب الفتاة من الاذى ولكنه تجاهل وقال « لم انكر على مولانا (واشار الى ابن الفضل) مكانها ولكنني قلت له انها خرجت من المدائن ولم تكن نزلت ذلك القصر بعد ولو سألني بعد نزولها لاخبرته بمكانها وكنت عازماً على ان احملها اليه بالحسنى فاستعين على ذلك بهذا الكتاب فليته لم يستعجل » قال ذلك وقد ساءه ما توسمه من الغلظة التي استخدموها في هذا السبيل

فقال الفضل « ان قهرمانة القصر اساءت الادب في رد الشاكري ولعلها لا تعلم ان تلك الفتاة مغضوب عليها وعلى كل اهلها وانما اردنا تشريفها واستبقاء حياتها لانها وقعت من ولدي هذا موقع الاستحسان .. »

الفصل السابع والاربعون

مجلس الامين

وهم في ذلك جاء الحاجب وقال « ان رسول الوزير بالباب »

فقال « يدخل » والتفت الى الحضور وقال « هذا رسولنا مع الجند الى قصر المأمون لنسمع ما جاء بهِ »

ثم دخل الغلام وهو من الشاكرية والقى التحية وتأدب فقال لهُ الفضل « ماوراءك ؟ »

قال « هل اقول ؟ »

قال « قل ... هل اتيتم بالفتاة ؟ »

قال « نعم ولكنها لم تأت وحدها ؟ »

قال « ومن جاء معها ؟ »

قال « جاءت معها مولاتنا ام حبيبة بنت ولي العهد »

فاجفل الفضل وقال « اعوذ بالله وكيف اتيتم بها ومن قال لكم ذلك ؟ »

قال « لم يقل احدٌ ولا نحن رضينا بمجيئها ولكنها جاءت رغم ارادتنا فتعلقت بالفتاة وتمسكت باثوابها وقالت ان تاخذوها تخذوني معها .. »

قال « انا لله وانا اليه راجعون .. الم يكن في وسعكم اجتناب مجيئها ؟ »

قال « كلاً يا مولاي لانها تعلقت بالفتاة ولم تبال باقوالنا وتهديدنا حتى حدثتنا انفسنا ان نرجع بلا شيء ولكننا تذكرنا أمر مولاي ان لانأتي خائبين فأتينا بالاثنتين ومعهما القهرمانة دنانير »

قال « ودنانير أيضاً ؟ »

قال « نعم يا سيدي وعرضت نفسها للقتل وقالت انها تفضل الموت على تسليم ضيفتها فاتينا بالثلاث معاً »

قال « واين هنَّ الآن »

قال « هنا في دار النساء وام حبيبة تطلب مقابلة عمها الخليفة »

فتغير وجه الفضل عند ذلك لدخول المسألة في مركز خرج ولكنهُ كان واثقاً بتسلطه على ارادة الامين ولا سيما اذا اطلعهُ على سرّ الفتاة وانها بنت جعفر الوزير وانهُ

انما اراد القبض عليها ليقدمها للامين يرى رأيه فيها . فنهض وهم بالخروج ثم تحوّل الى ابن ما هان وقال « صدق من قال ان في العجلة ندامة ولو اطعنا الملفان ما وصلنا الى هذا المشكل ولكن لا باس » والتفت الى سعدون واشار مودعاً وكان الملفان قد وقف فاحنى رأسه شاكراً واطمأن على ميمونة لمجيء ام حبيبة معها اذ يطلع الامين على امرها ويحتفظ بها اكراماً لبنت اخيه وتنجو من ابن الفضل ثم خرج من المجلس وقد غابت الشمس واضيئت الشموع الكبيرة المشهورة بشموع محمد الامين

وكان الامين ساعتئذٍ مختلياً بمغنيه وندمائه في مجلس غناء هو عبارة عن ايوان كبير بين قاعات القصر في وسطه بركة يتدفق فيها الماء من انابيب بشكل رؤوس الثعابين وحولها اغراس الرياحين ومقاعد الجلساء والمغنين . وقد قام الوصفاء من الخصيان بخدمته وفيهم السقاة وعليهم الالبسة الثمينة الباهرة بزي الجواري وقد ارسلوا شعورهم جدائل مفردة ومزدوجة وفي ايدي بعضهم الدفوف او المزاهر او العيدان يدقون ويغنون . غير الجواري الحسان بالبسة الغلمان مما اهدته اليه والدته زبيدة ام جعفر . وكان الامين يغالي في اقتناء الخصيان من اقاصي البلاد وينفق في استجلابهم الاموال حتى صيرهم خلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه (١)

وكان في ذلك المساء بلباس المنادمة وهو غلالة صفراء مصقولة صقلاً شديداً وعلى راسه عمامة خفيفة وقد جلس على سرير من الابنوس المنزل بالعاج وبين يديه مائدة عليها انواع الاطعمة والاشربة والرياحين وقد فاحت رائحة المسك وغيره من الاطياب حتى ملأت الفضاء

وبينما هو في مجلسه هذا انبأه الحاجب « ان ابنة ولي العهد بالباب » فبغت وظن مخبره واهماً فاستفهمه قائلاً « ابنة اخي ؟ »

قال « نعم يا مولاي »

فتحير في امره ولم يدر بما ذا يجيب اذ يعزّ عليه ان تقابله ابنة اخيه وهو في مجلس الشراب على تلك الصورة . ولم يكن سلطانه وقوة بطشه ليمنعا خجله من فتاة صغيرة يسترضيها الناس بتفاحة او لعبة — لان سلطان الادب والحشمة اغلب على النفس من سلطان السياسة والشدة . ولذلك كان الادب قوةً ولأديب النفس هيبة يجلّها العقلاء وغير

(١) راجع رواية العباسة اخت الرشيد صفحة ٦٢

العقلاء . وصاحب الرذيلة مهما عظم سلطانه وان استغرق في المنكرات لا يزال في ضميره بقية من احترام الفضيلة واهلها . الا ترى ارباب المعاصي وان تساهلوا في ارتكابها يستنكفون من ان ينتسبوا اليها او يقال انهم من اهلها ؟ فهم اذلاء وان عزّوا ويغلب عليهم الجبن في موقف الانسانية وان كانوا ابطالاً في مواقف القتال او على سدة الملك . ان مرتكب المعصية محكوم عليهِ بالمذلة والضعة من عند نفسه لاعتقادهِ انهُ يخالف السنن الادبية فضلاً عن الدينية وقد يكون سيداً مطلقاً لاسلطان عليه ولا يخشى حكماً ولا قصاصاً وربما كان معطلاً لا يخاف عقاباً ولا يرجو ثواباً ولكنهُ يخاف شيئاً لا صورة لهُ في الوجود — يخاف « ما قيل عنهُ وما يقال » وقد لا يضرُّه ذلك ولا ينفعهُ ولكنهُ فطر على التماس حسن الاحدوثة وهي « الشهرة » ولولاها لكان الناس كالبهائم يا كلون و ينامون — الاَّ من عصمهم دينهم وهم قليلون

فهذا الامين مع تهتكه وسكره وعلمهِ بمخالفة ذلك للشرع والعرف وكم نصحه الناس ولم يرعو فانهُ خجل ان يقابل ابنة اخيه وهي فتاة صغيرة حرصاً على كرامته . وما ذلك الاَّ لعلمهِ بطهارة قلبها وصفاء سريرتها — وللجنس اللطيف هيبة في مثل هذا المقام

فلما أُنبيء باستئذانها عليه تردد بالاذن لها في الدخول واكبر من الجهة الثانية ان يظهر خجله من مجلسه هذا وينهض لمقابلتها في غرفة أُخرى وهو الخليفة صاحب السلطان الاكبر مالك رقاب العباد . ولا هو يستطيع من الجهة الثالثة ردَّها ولا عذر لهُ في ذلك فغلب عليه اجابة طلبها فقال « تدخل ابنة اخينا »

الفصل الثامن والاربعون

زينب ودنانير

وكان القدح بيده فوضعه على المائدة وتردّى بالحشمة على قدر ما يستطيع الجالس هذا المجلس . فلما رأى جلاسه ذلك جنحوا الى التهيب وتولاهم السكوت والقوا ادوات الشراب من ايديهم واشار الامين الى الغلمان والجواري فتباعدوا واستولت الحشمة على تلك الجلسة واصبح القوم سكوتاً كأن على رؤوسهم الطير

فدخلت زينب وعليها مطرف من خزّ قد التفت به وخمارٌ مزركش يكسو راسها الاَّ بعض وجهها وقد اشرق ذلك الوجه حياة وتجلت فيه الطهارة وسلامة القلب . وفي طهارة

الاطفال رونق للناظر وهيبة للمتامل وعظة للعاقل. فيستدل علماء الاخلاق من ذلك على ما فطر عليهِ الانسان من الميل الى الخير وانهُ انما يساق الى الشر بما يعرض لهُ من اسباب المطامع او يمارسهُ من اختلاف المشارب . واذا اتى شرًّا انما ياتيه في الدفاع عن نفسهِ او مالهِ — وقد يظهر انهُ مهاجمٌ متعدٍ ولو فحصت ضميره واستطلعت خبايا قلبه لرايت اساس ذلك التهجم الدفاع عن نفسهِ

فالاطفال مثال الفطرة البشرية الساذجة لا يعرفون الكذب او التملق او الخداع . يقولون ما يعتقدون لا يخافون ولا يحاذرون ولا سيما اذا ربوا كما ربيت زينب على يدي دنانير وقد تثقفت واستنار عقلها على قدر ما يسمح بهِ سنها وتعودت ان لا تردّ ارادتها فلما رات الجند يخالفونها في استبقاء ميمونة شق عليها اباؤهم واكبرته ولما زجرت ارادتها بكت وجاءت معهم كما تقدم فدخلت في تلك الساعة على عمها وقد ابرقت عيناها وفيهما اثر البكاء

فلما رآها الامين لم يتمالك ان بشَّ لها ونهض لاستقبالها فلم يبق احد من الحضور الاَّ وقف تهيباً ولم يروا بدًّا من تخلية المكان لينفرد الخليفة بابنة اخيهِ فخرجوا وغادروا المائدة وابار يقها واقداحها وزهورها ورياحينها وقد تبعثرت قطع الفاكهة واقداح الشراب ومنثور الازهار . وقد اضاءت منائر الشمع في جوانب الايوان وودّ الامين لو تنطفئ لتخفي تهتكه

فلما دنت زينب من عمها ترامت على ذراعيه وقد غلب عليها البكاء فضمها الى صدره وقبلها وهو يقول « لا باس عليك يا ابنة اخي ما ذا اصابك »

أما هي فما لبثت ان شمت رائحة الخمر في فيه حتى نظرت الى ما حولها نظر الاستغراب فاراد ان يلهيها عن الاستفهام فقال « ما بالك يا حبيبة ما ذا تريدين ؟ لماذا لم تدخلي دار النساء ؟ »

فقالت « قد كنت هناك واحببت ان اراك ولم اكن اعلم انك على المائدة »

فسرَّه انها تحسبهُ مشغولاً بالطعام فقال « الك حاجة نقضيها ؟ »

قالت « نعم لي حاجة .. » والتفتت نحو الباب وقالت « نعم لي حاجة .. اين دنانير ؟ .. هي تقص عليك خبري »

فتجلد الامين وهو يحسب لهذا المجيء الف حساب لما يعلمه من اساءتهِ الى ابيها ولكنهُ استبعد ان تطلع هي على شيء من ذلك فتجاهل وقال « هل القهرمانة معك ؟ »

قالت « نعم كانت معي في دار النساء وقد ارادت ان لا أفاجئك وانت في هذا المجلس » ثم نظرت في ما على الارض من الادوات وقالت « ارى مائدتك باعماهُ تختلف عن

مائدتنا العل هذه مائدة الخلفاء ؟ » قالت ذلك بسذاجة واخلاص ولكن قولها اصاب قلب الامين لما حواه من التوبيخ الصريح عن غير عمد فقال « انها مائدة بعض الاضياف كانوا عندنا الليلة ... هلم بنا ندخل دار النساء » قال ذلك ولم يعد يصبر على البقاء هناك لئلا يسمع توبيخاً آخر فنهض وهو قابض بيدها وهي تتوكأ عليه حتى دخلا دار النساء الى قاعة مفروشة بالبسط والنمارق ليس فيها احد فجلس واجلسها الى جانبه وهو مشتاق الى سماع شكواها ليطلع على جلية الخبر . ثم صفق فجاءه غلام فقال « ادعو القهرمانة دنانير »

وبعد قليل دخلت دنانير وهي مطرقة وقد غطت رأسها بالنقاب وهمت بتقبيل يده ثم وقفت متأدبة فقال « ما الذي جاء بكما يا دنانير ؟ »

قالت « يسوءنا اننا ازعجنا امير المؤمنين وكدرنا عليه مجلسه ولكن سيدتي ام حبيبة ابت الاّ ان نجيء الليلة ولم استطع منعها »

فقال « وما الخبر ؟ »

قالت « الم ترسل الينا في طلب ضيفتنا ؟ »

قال « واي ضيفة تعنين ؟ »

قالت « ضيفتنا ميمونة »

قال « لم افهم مرادك افصحي »

فادركت دنانير ان الفضل فعل ذلك من عند نفسه فقالت « نزلت عندنا منذ يومين فتاة غريبة اسمها ميمونة الفتها سيدتي زبيدة وأحبتها فجاء في كتاب من الفضل وزيرك يطلبها باسمك فاعتذرت انني لا استطيع تسليمها لانها ضيفة ولها حق الجوار فارسل الينا جنداً ليأخذوها قسراً فلما رأت مولاتي اصرارهم على أخذها تعلقت بها وأبت الاّ ان تأتي معها فلم استطع التخلي عنها فجئت معها »

فاطرق الامين وقد اكبر جسارة الفضل في انتحال اسمه بغير اذنه ولكنه تجلد وقال « ومن هي ميمونة هذه ؟ العلها من موالينا ؟ »

قالت « هي فتاة يتيمة لا ملجأ لها ولا معين وقد يكون في قصر امير المؤمنين عشرات او مئات مثلها »

قال « واين هي الآن ؟ »

قالت « هي في هذه الدار يا مولاي »

قال « استقدميها لاراها »

فلما خرجت ميمونة كان الامين واضعاً يده على كتف زينب فضمها اليه تحبباً وقال « تحملت هذه المشقة من اجل هذه الجارية »

قالت « اني احبها يا عماه .. لانها لطيفة وحلوة وستراها الآن وقد قلت للجند ان يتركوها فابوا .. الا تريد ان تعطيني اياها؟ »

فاستلطف الامين سذاجتها ولطف تعبيرها وقال « سافعل ما تريدين طيبي نفساً »

وبعد قليل عادت دنانير وميمونة تتبعها وهي مطأطئة رأسها تذللاً وقد توردت وجنتاها وتكسرت اهداب عينيها من البكاء

فلما اقبلت عليه ترامت على قدميه وصاحت « اني جارية امير المؤمنين »

فلما رأى الامين جمالها اعجب بها ورق لبكائها فامرها بالنهوض وهو يقول « لا باس عليك يا بنية طالما كنت في ضيافة بنت اخينا ولك هذه المنزلة عندها قومي .. » والتفت الى دنانير وقال « خذيها الى دار النساء وامكثوا الليلة عندنا ريثما أنظر في امرها .. وانت يا زينب ضيفة علينا الليلة كوني مطمئنة اننا لا نرد لك طلباً »

فاستانست الفتاة بعمها وهي في معزل عن احوال السياسة لا تعلم شيئاً مما جرى بعد وفاة جدها بين ابنيه ولما رأت عمها يضمها ويبش لها تذكرت والدها فقالت « ومتى ياتي والدي يا عماه »

فلما سمع سؤالها انقبضت نفسه وقال « قريباً ان شاء الله » ولم يزد

وكانها شعرت برغبته عن التوسع في هذا الموضوع فامسكت ونظرت في الارض وهي لا تستطيع التعبير عن شعورها ـ وهو شان النساء في احكامهن فانها مبنية على الاحساس بقطع النظر عن الحكم العقلي . فان المرأة اذا سالتها عن عمل انت عازم على الشروع به هل هي تتوسم فيه النجاح او تخاف الفشل اجابتك عن رأيها واذا طالبتها بالدليل على صحته قالت لا استطيع برهاناً ولكنني اشعر بذلك شعوراً داخلياً . ويغلب ان تصدق المرأة في شعورها كما يصدق الرجل بعقله على تفاوت في شعور النساء وعقول الرجال . فكما تتفاوت عقول الرجال قوة في الاستنتاج واستخراج الاحكام وتمييز الصحيح من الفاسد فكذلك يمتاز النساء في قوة هذا الشعور باختلاف ما فطرن عليه من دقة الاحساس وسلامة الذوق . ولا يكون هذا الشعور مستقلاً عن العقل ولكنه يغلب في المرأة كما يغلب العقل في الرجل — والرجل اذا جرّد من ذلك الشعور كان ضربة على الانسانية لان الانسان يعامل عملاءه بالعقل ويعاشر اصدقاءه واهله بالاحساس ويتفاوت . الاحساس في الناس فمن قلّ احساسه ساءت عشرته

واستثقل الناس روحه وان كان رجيح العقل قوي الارادة . ولذلك رأيت جماعة من الاذكياء المجتهدين يستثقل الناس دمهم ويتجنبون معاشرتهم . ويكون ذلك عثرة من سبيل نجاحهم لان الانسان يحتاج في اكتساب ثقة الناس الى شعور حي يجتذب به قلوبهم بحسن العشرة ووضع الشيء موضعه

وكانت زينب على صغر سنها كبيرة العقل دقيقة الشعور فحالما سمعت جواب عمها مع خلوه من الدلائل على ما في خاطره شعرت بانقباض نفسها عن الخوض في هذا الشان ولو سئلت وكانت مدركة ما استطاعت تعليل انقباضها

اما هو فاسرع الى قطع الحديث وصفق فجاء غلام فقال « ادع لنا قيمة الجواري » فلما اتت قال لها « خذي ابنة اخينا الى قصرنا واكرمي مثواها » واحتفظي بالجارية ميمونة وعامليها مثل سائر جوارينا » والتفت الى زينب وقال « اظنك تحتاجين الى الراحة والطعام فكوني مطمئنة لا يكون الا ما تريدين » وربت على كتفها ووقف فوقفت واصطحبت القهرمانة الى دار النساء

اما الامين فلما خلا بنفسه عاد الى التفكير في ما سمعه عن الفضل وكتابه الى بيت اخيه بشان هذه الفتاة واحب ان يستقدمه ليسأله عن حقيقة الخبر فاعترض ذهنه ما كان فيه من الانس قبل مجيء زينب فعاد الى مجلسه ولم يكد يستقر فيه حتى تسرب اهله من كل صوب وعادوا الى الغناء والشراب والمنادمة وعاد الغلمان والجواري الى ما كانوا فيه

اما الفضل فقد تركناه خارجاً من مجلسه وهو يستعيذ بالله مما آل اليه تسرعه في طلب ميمونة واخذ يعيء الاعذار للدفاع عن نفسه وهي كثيرة بما له من النفوذ والدالة على الامين وهو الذي أحله هذا المحل وايده في الخلافة . ولبث ينتظر ان يدعوه الامين ويسأله

اما سعدون او سلمان فانه مع تاسفه على وقوع ميمونة في قبضة الخليفة قد سرّه اغراء الفضل وابن ماهان على توسيع الخرق بين الامين واخيه لان اصحاب المطامع السياسية لا يفهمون لغة القلوب ولا يبالون بحركاتها وانما يهمهم الوصول الى الغرض الذي يسعون نحوه واذا اعترضهم رأس او قلب داسوه . على ان سلمان يعرف منزلة الفتاة من بهزاد وقد اوصاه بها خيراً فاصبح يهمه التخفيف عنها والمحافظة على سلامتها حتى يرى ماتأتي به التقادير

الفصل التاسع والاربعون

الامين والفضل

وفي صباح اليوم التالي بعث الامين الى الفضل فجاءهُ في دار الخاصة فاجلسه الى جانبهِ وتلطف في الاستفهام عن امر الفتاة فقال « لعل امير المؤمنين يستغرب جسارتي بطلب هذهِ الفتاة باسمه من بيت اخيه ولم افعل ذلك الاَّ اضطراراً وفي خدمة مصلحة الدولة . هل عرف امير المؤمنين من هي هذه الفتاة ؟ »

قال « كلاَّ »

قال « لو تأملها لرأى صورة ابيها فيها .. انها بنت جعفر الوزير السابق قتيل امير المؤمنين الرشيد جزاء خيانته .. »

فبغت الامين ونظر الى الفضل باستغراب وقال ابنة « جعفر بن يحيى » ... اظنك واهماً »

قال « كلاَّ يا مولاي ولو سالتها ما انكرت ذلك وقد علمتُ بنزولها بيت مولانا المامون في صباح الامس فكتبت الى قهرمانة القصر ان امير المؤمنين يريد ان يراها فارسليها فاجابت الشاكري جواباً قبيحاً . فصيانة لاسم امير المؤمنين شددت في طلبها قهراً ولم اكن احسب العلائق وطيدة بهذا المقدار بين طرائد امير المومنين وبيت اخيهِ ... وكان يجب ان يكون اهل ذلك البيت عوناً لنا في القبض على امثال هؤلاء . نعم انها فتاة لا خوف منها ولكننا نقدر ان نستفهمها وهناك اسباب للظن ... لانني ... » وسكت وهو يبلع ريقه و يظهر انهُ يكتم شيئاً يخشى ابداءهُ فابتدره الامين قائلا « قل ما بدالك »

قال « ان امير المؤمنين اعلم مني بهذه الاحوال ولا احب ان ادخل بينهُ وبين اخيه ولكنني لا استطيع السكوت عما يأول الى مصلحة الدولة وصيانة حقوق المسلمين .... ما معنى اقامة بنت جعفر الذي قتلهُ الرشيد انتقاماً لتداخله في امر الخلافة بين ولديهِ وهو الذي اطمع المامون بولاية العهد بعد ان كانت لامير المؤمنين وحده فاصبح لا ترضية ولاية العهد وربما طمع بالخلافة كلها ... »

فلما سمع الامين تعريضه بالخلافة اجفل وحملق عينيه في الفضل فازدادتا صغراً وغوراً ولو لم يكن الفضل قد تعوده لتهيب من منظره لانهُ كان شديد الهيبة قويَّ البدن

يلقى الاسد ولا يبالي به . فاستدرك الفضل قائلاً « لا اعني ان مولانا المامون يطلب الخلافة لنفسه ولكنني اخاف اذا طال حلم امير المؤمنين ان يغريه بعض خاصته الفارسيين بطلبها التماساً للكسب من وراء ذلك

فانصرف فكر الامين عن ميمونة الى الخلافة واخيه وانما جرّه الفضل الى ذلك عمداً ليشغله عن لومه في طلبها باسمه وليتدرج الى اغرائه على خلع المأمون لانه يخافه على نفسه وهو على يقين ان المامون حالما تفضي الخلافة اليه اذا كان الفضل حياً انتقم منهُ او انتقم من اهله وربما نكل بهم تنكيلاً ولا نجاة لهُ من ذلك الاّ بخلعه عن خراسان اذ يتفرق رجاله عنهُ و يضعف امره

فقال الامين « ان هؤلاء الفارسيين هم اصل بلانا وما زالوا من زمن ابي مسلم وهم يناوئوننا ويمتنونا لاعتقادهم انهم ساعدونا على نيل الخلافة مع انهم لم ينالوا شيئاً الاّ باسمنا كما تعلم ... وهم الآن يغرون اخي على التماسها لنفسه وانا حيٌّ ؟ »

قال « اذا كان امير المؤمنين لا يصدقني فهذا رئيس المنجمين اسألهُ عن الرجل الخراساني الذي تقدمت اليك بالقبض عليه يوم وصولي ولم اذكر لك سبب ذلك ... ان هذا الرجل رسول من حزب الخراسانيين انصار المامون ارسلوه لدس الدسائس علينا — انبأني بذلك جاسوس وانا في طوس وذكر لي مقر الرجل فلما وصلت بغداد ارسلت في القبض عليه فلم يجدوه في منزله ثم لقيت الملفان سعدون رئيس المنجمين بالامس واستطلعتهُ ما يعلمهُ وكان صاحب الشرطة حاضراً فعرف الرجل وقال انهُ هرب من بغداد الى احزابه الطالبين للسلطة وارجاعها الى الفرس ولا ريب انهم يستخدمون لذلك اسم مولانا المامون لانهم بدون دم قرشي لا يملكون واذا ملكوا لا اظنهم يستبقون احداً ولا المامون نفسه ... لا تغضب اذا قلت ما يخطر لي خدمة لمصلحة الدولة ومع ذلك فهذا الملفان حيٌّ ومولاك ابن ماهان صاحب الشرطة موضع ثقتك استشرهُ والراي في كل حال لامير المؤمنين ... » وكان الفضل يقول ذلك باهتمام و يتظاهر بالغيرة على الدولة والامين يصغي وقد همَّهُ الامر فامسك عن التصريح برأيه حتى يشاور ابن ماهان وعاد الى الكلام عن ميمونة فقال « سننظر في ذلك واما ميمونة التي تقول انها بنت جعفر البرمكي فانها في قصرنا بين جواريا ولا ارى ان نسيئها او نسيء احداً بسببها الاّ اذا ظهر لنا ما يوجب ذلك وانما اردت التعطف بها لان ابنة اخي كلمتني بشانها »

فقال الفضل « الرأي لامير المؤمنين » وهو لم يهمهُ امر الفتاة بقدر اهتمامه بخلع المامون

وان كان ابنهُ يفضل الحصول على ميمونة ولو ضاعت الدولة كلها لانهُ شاب ربي في الرخاء ولم يعان السياسة وقضى ما مرَّ من عمره متكلاً على ابيهِ وقد علق بميمونة وهو حسن القصد لا يريد بها الاَّ خيرًا وهي لو لا ما سبق من حبها بهزاد وحقدها على الفضل لما كان ثمة ما يمنعها من قبوله

ورأى الفضل ان الامين يريد فض الجلسة فنهض وخرج وظل الامين وحدهُ وهو يفكر بما وعد بهِ ابنة اخيهِ من اطلاق سراح ميمونة و يرى في اطلاقها من الجهة الاخرى خطرًا خوفه الفضل منه فوقع في حيرة واخيرًا نهض وسار الى دار النساء وسال عن مقر بنت اخيهِ فدلوه عليه

وكانت ميمونة قد شعرت منذ دخلت قصر الخلافة بانقباض شديد وقام بنفسها انها اضاعت آمالها لعلمها بما ينوبه حبيبها من نكاية الامين ومع ما حاولتهُ دنانير من التخفيف عنها لم تجف لها دمعة منذ دخلت ذلك القصر . وكانت زينب تزداد شفقة عليها ورغبة في انقاذها وقد طمانتها ان عمها وعدها باطلاق سراحها . فباتوا تلك الليلة وميمونة يئسة من الرجوع لعلمها ان الفضل لا يسكت عن كشف حقيقة امرها للامين حتى ينجو من اللوم

فاصبحت في اليوم التالي وقد جاءتها دنانير وزينب ودار الحديث بينهن ومداره التخفيف عن ميمونة وهي منقبضة النفس لا يفرج كربتها غير البكاء ولا سيما اذ تصورت نفسها منفردة هناك وجدتها ليست معها ولا هي تعرف اين هو سلمان . فمكثت صامتة ودموعها تتساقط على خديها بلا بكاء وقد ظهر عليها الذل والانكسار . وكلما زادت انكسارًا زادت زينب انعطافًا نحوها ولكنها كانت واثقة بموعد عمها . و بينما هنَّ في ذلك سمعن حركة وهرجًا في خدم القصر ثم جاءت بعض الجواري تقول ان امير المومنين قادم الى ابنة اخيهِ

فنهضت زينب للقائه بالباب و وقفت دنانير وميمونة موقف الاحترام . اما هو فدخل وقعد على وسادة هناك واجلس زينب الى جانبهِ وقال لها « العلك في شوق الى قصرك يا زينب ؟ »

قالت « كما يشاء امير المومنين »

فاستحسن تأدبها على صغر سنها وقال « اذهبي مع حاضنتك بامان وقد امرت القهرمانة باعداد هودج يحملكما الى دجلة ثم تركبان الحراقة الى القصر »

فنظرت اليهِ زينب نظر المدل الطامع وقالت « وميمونة ؟ »

فقال وهو يضاحكها « تبقى في ضيافتنا يومًا او يومين ثم نبعث بها اليكم معززة مكرمة »

قالت « لا ... انت قلت انك ترسلها معي »

قال « قلت لك وقد رأيت الآن ان تبقي عندنا ضيفة كما كانت عندك وهل هي ترفض الضيافة في قصر الخلافة يا حبيبة ؟ »

فشعرت الفتاة باصراره رغم تلطفه في الجواب ورفعت بصرها الى دنانير كانها تستغيث بها فنظر الامين الى دنانير وقال « قولي لمولاتك ان ميمونة ستبقى عندنا ضيفة ثم نرسلها .. »

فعلمت دنانير انهُ مصرٌّ على استبقائها عنده وادركت سبب استبقائها لانها تنسمت من اخبار القصر انهُ اختلى في ذلك الصباح بالفضل . فوقعت في حيرة ولكنها اجابت « ان امير المومنين لا يردُّ امره و بقاء جاريته في قصره شرف لها وتفضل منهُ .. »

فلما تحققت ميمونة انها باقية لا محالة ظلت ساكتة والدمع يتحدر على خديها فوقع نظر الامين عليها فرقَّ لها وكاد يامر باطلاق سبيلها ولكنهُ تذكر كلام الفضل فامسك نفسهُ ونهض وهو يقول لزينب « بحراسة الله يا ابنة اخي .. احتفظي بها يا دنانير » والتفت الى ميمونة وقال « لا باس عليك يابنية » وخرج وامر قيمة الدار ان تعدَّ مايلزم لنقل زينب وحاضنتها الى قصر المامون . فارادت زينب ان تتعلق بميمونة وتمتنع عن الذهاب فامسكتها دنانير وافهمتها بالتعقل ان امر الخليفة لا يردُّ لئلا يغضب وان ميمونة لا باس عليها . فلما خلت ميمونة بزينب ودنانير بعد خروج الامين اطلقت لنفسها عنان البكاء حتى كاد يغمى عليها فاخذت دنانير تهون عليها ووعدتها ان تخبر سلمان بخبرها وهو يسعى في انقاذها وانها ستتوسط سواء عند الاقتضاء فليكن ذلك ليخفف ما بها . ولما تحققت بقاءها امرت الى دنانير ان تبذل جهدها في تسلية جدتها المسكينة فانها تركت الدنيا من اجلها فوعدتها بذلك وخرجت وقلبها ينقطع حزنًا عليها ولما ودعت قهرمانة بيت الامين اوصتها بها خيرا فوعدتها بذلك

الفصل والخمسون

عبادة وزبيدة

ولما وصلت دنانير الى قصر المامون رات عبادة في انتظارها على المسناة وكانت قد عاينت ما اصاب حفيدتها من القسوة والاهانة في اخذها الى الامين وحدثتها نفسها ان تصحبها الى هناك لكنها خافت ان يكون ذهابها سببًا لزيادة النقمة عليها واشارت عليها دنانير بالبقاء في القصر ريثما تعود ووعدتها بارجاع ميمونة معها . فقضت بقية ذلك اليوم وطول ليله

ساهرة وقد اخذ القلق منها ماخذاً عظيماً واصبحت في اليوم التالي وهي جالسة على المسناة ترقب السفن النازلة حتى رأت حراقة عرفت من شكلها انها من سفن الامين . فلما وصلت ولم ترميمونة فيها صاحت « اين ميمونة .. ؟ »

فاخذتها دنانير بيدها وقصت عليها الخبر باختصار ووعدتها بقرب رجوعها فقالت « لا .. لن ترجع ان الامين اذا عرف من هي اوقع الاذى بها ... ويلي لماذا لم اذهب معها فيصيبني ما يصيبها ... لقد أضعت تعبي في خدمتها » وجعلت تندب سوء حظها وتبكي بكاء الثكلى

فاخذت دنانير تهوّن عليها عبثاً وبعد هنيهة سكن روعها ففكرت في ما تستطيعه في سبيل انقاذ حفيدتها فوقعت يدها على حق الزمرد في جيبها فخطر لها ان تستخدمه في هذا السبيل . وكان الناس يتحدثون منذ ايام بمجيء زبيدة ام جعفر والدة الامين من الرقة ومعها خزائن الرشيد فقالت في نفسها « لعلي اذا سرت اليها واستعطفتها باسم زوجها الرشيد استحث عاطفتها بما في هذا الحق من آثار الرشيد فتتوسط عند ابنها بالافراج عن حفيدتي . ولما خطر لها ذلك شعرت براحة وطمأنينة واستشارت دنانير في الامر فاستحسنت رايها وقالت « لم يبق انا باب نطرقه غير هذا ولعل هذه المرأة اذا رأت آثار زوجها وسمعت ما اصابك من البلاء تنسى حقدها .. سيري على بركة الله »

فخرجت عبادة في ظهر ذلك اليوم تطلب دار القرار قصر زبيدة وقد كان ذلك الذهاب صعباً عليها ولكنها استهانت كل صعب في سبيل انقاذ ميمونة

سارت من قصر المأمون في حراقة حتى نزلت الشاطيء بقرب دار القرار ومشت من هناك بثوبها الاسود وهي تتوكأ على عكازها وقد بدا الانكسار في محياها فضلاً عن الشيخوخة والانكسار يبدو في الشيوخ مضاعفاً

وصلت باب القصر نحو الاصيل فرأت عنده جماعة من الشاكرية وقوفاً باسلحتهم فوقفت وحيتهم فلم ينتبه لها احدٌ وظنوها من ابناء السبيل فتقدمت الى احدهم وقالت « العل مولاتنا ام جعفر في القصر »

فاجابها الرجل « هي هنا وماذا تريدين منها ؟ »

قالت « اريد ان اراها وانبرك بلثم ثوبها »

قالت « لا تقابل احداً الآن واذا كنت تلتمسين احساناً فليس اليوم موعده »

قالت « كلاّ يا ولدي لا اريد شيئاً من ذلك ولكن لديّ حديثاً اريد ان اقصه عليها »

قال « وما هو حديثك يا خالة »

قالت « انه حديث خاص بها اذا شئت »

فاستخف الرجل بقولها والتفت الى رفقائه وكانوا وقوفاً يسمعون ما دار بينهما فتقدم اليها شاكري آخر وقال « اتريدين مقابلة مولاتنا ام الخليفة نفسها ؟ »

قالت « نعم اطلب مقابلة ام الخليفة السيدة زبيدة .. اتقدم اليك ان تستأذن لي في ذلك ولا تماطلني فقد تعبت من الطريق ولا صبر لي على الوقوف .. »

قال « اراك مسكينة وسأطلب لك احساناً من قيمة القصر واكفيك مؤونة الدخول على مولاتنا ام جعفر لانها يندر ان تقابل احداً »

فأثر ذلك القول في نفسها وتذكرت سابق ايامها وكيف اصبح حالها لا يدل على غير الاستجداء فقالت وهي تكاد تشرق بدموعها « لا اطلب احساناً يا بني ولكن لدي امراً يهم مولاتنا ام جعفر اريد عرضها عليه . فاستأذن لي ولك الفضل »

فلما رأى الشاكري بكاءها رق لها ودخل للاستئذان وظلت هي بالباب وقد تعبت فقعدت على حجر . وبعد هنيهة عاد الشاكري وهو يقول « سألتني عن اسمك »

فتحيرت بماذا تجيب وفكرت قليلاً ثم قالت « قل لها ان اسمي ام الرشيد »

فاجفل الجميع واخذوا يتفرسون بها وهم لا يعرفونها واستغربوا هذا الاسم فقال احدهم « اسمك ام الرشيد ؟ واي رشيد تعنين ؟ »

قالت « الم تسألك عن اسمي فقل لها ان ام الرشيد بالباب تلتمس مقابلتك »

فعاد الشاكري ومكثت هي بانتظاره وقد سرها تقدمها الى زبيدة بهذا الاسم لعله يكون فألاً حسناً لهذه المقابلة . وما عتم الشاكري ان عاد وهو يقول « تفضلي يا خالة ادخلي »

فدخلت في اثر الشاكري وهي تتوكأ على عكازها حتى تجاوزت الحديقة الى باب القصر ونزعت نعالها ودخلت في الدهليز فانتهت منه الى غرف يستطرق بعضها الى بعض والجواري المقدودات يخطرن بين يديها وهن ينظرن اليها ويعجبن من حالها . اما هي فكانت تمشي مطرقة حتى افضى بها المسير الى قاعة كبيرة فاحت منها رائحة الطيب . فلما اطلت على القاعة رأت سقفها قبة مصنوعة من خشب الصندل ومكسوة بالوشي والسمور وانواع الحرير بالوانه الزاهية يتدلى على جدرانها ستائر مطرزة بابيات من الشعر ومعلقة بكلاليب من الذهب وفي ارض الغرفة بساط واحد من السجاد الثمين وعليه الوسائد والكراسي

مما يبهر النظر [١] ولكنه لم يبهر عبادة لانها تعودت نحو ذلك فى قصر ابنها ايام نعيمها واقبال سعدها وانما كان همها في ذلك اليوم ان تنال رضى زبيدة في انفاذ حفيدتها

الفصل الحادى والخمسون

التقاء العين بالعين

فلما وصلت الباب رات زبيدة فى صدر القاعة متكئة على وسادة من الحرير الموشى فوق سرير من الابنوس المرصع • فتركت عصاها خارجاً والقت التحية باحترام ونظرت الى زبيدة ووقفت تنتظر امرها بالدخول او الجلوس • وكانت زبيدة بثوب سماوي اللون ياخذ بالابصار وقد تعصبت بعصابة مرصعة بشكل الطاؤوس من الحجارة الكريمة على غير عادتها كانها فعلت ذلك عنوة فى تلك الساعة • ظلت عبادة واقفة وزبيدة متشاغلة بجام من العاج فيه فتات المسك وقد تساقط بعضه فاخذت بالتقاطه عن الوسادة فظنت عبادة انها لم تنتبه لها فتنحنحت فرفعت زبيدة بصرها اليها باستخفاف وقالت « من هذا ؟ »

فاستانست بذلك السؤال ومشت نحوها وهي تقول « اني جاريتك عبادة » ولما وصلت الى وسط القاعة نظرت اليها زبيدة شزراً وقلبت شفتها السفلى ورفعت حاجبيها اشارة الاستهجان وقالت « عبادة •• ؟ وقد قيل لي ان ام الرشيد تطلب الدخول عليّ •• »

قالت « هي جاريتك يا مولاتي •• انظري فى وجهي فعسى ان شحوبه لا ينسيك صاحبته »

فضحكت زبيدة وقالت « عرفتك ••• يا عبادة الا تزالين حية بعد ؟ »

فاستغلظت عبادة هذا السؤال الدال على الاحتقار ولكنها كظمت وقالت « بلى لا أزال حية لسوء حظي »

فقهقهت زبيدة وقالت « ذلك جزاء نكران الجميل يا عبادة •• اجلسي »

(١) راجع العباسة أخت الرشيد صفحة ٨٧

فجلست وهي ترتعد من الغيظ وندمت على مجيئها ولكنها تذكرت ضيق ميمونة وانها جاءت لانقاذها فهان عليها الصبر فقالت « لم انكر جميلاً يا مولاتي ولكن لله الامر يفعل ما يشاء »

قال « صدقت لله الامر ولكنه يجزي كل نفس وما فعلت ... أرأيت عاقبة سعيك وسعي زوجك واولادك في نزع الخلافة منا .. ارأيت عاقبة الغدر ؟ ارأيت عاقبة الجرأة على مولاكم .. أرأيت كيف رد الله كيدكم في نحركم .. وكنت احسبك قضيت نحبك قهرًا من الثكل فاذا انت لاتزالين حية تسعين »

وكانت عبادة وهي تسمع كلام زبيدة مطرقة فلما فرغت من قولها قالت « لم آتِ يامولاتي لاناقشك الحساب وانما جئتك الآن مستعطفة فانك والدة وتعرفين انعطاف الوالدات وقد صرتِ جدة وتعرفين انعطاف الجدات .. »

فقطعت كلامها وقالت « الآن عرفت حنو الوالدة والجدة .. ؟ اين كان ذلك الحنو لما اراد ابنك المقتول ان يخلع ولاية العهد عن ابني و يدبرها لابن مراجل (تعني المأمون) »

فقالت وقد جاشت احزانها في صدرها وكاد الكظم يخنقها « قلت لك يامولاتي اني انما جئت مستعطفة . ولا استعطفك بحسنة اتيتها وانما اتقدم اليك بكرامة صاحب هذه الاثار » واستخرجت حق الزمرد من جيبها ومفتاح الذهب معلق به ونهضت ومدت يدها نحوها لتعطيها اياه . فتباطأت زبيدة بتناوله مبالغة بالازدراء ويد عبادة ممدودة كأنها سائل يستعطي واخيرًا قالت لها زبيدة « وما الذي يحويه من الآثار »

فاخذت عبادة تعالجه بالمفتاح ويداها ترتعشان من ضعف الشيخوخة وشدة التأثر حتى فتحته وتقدمت الى زبيدة فوضعته بين يديها على الوسادة وتراجعت الى مكانها فنظرت زبيدة فاذا في الحق خصلة من شعر زوجها و بضع اسنان من اسنانه وقد فاحت رائحة المسك فقالت « ماهذا الشعر والاسنان ؟ »

قالت « انها شعر مولانا الرشيد واسنان طفوليته .. ألم اكن ظئره ؟ الم ارضعه وكان ينادني ام الرشيد .. ؟ بهذه الآثار اتقدم اليك ان تسمعي شكواي وترحمي ضعفي ... ليس من اجلي انا بل من اجل فتاة بريئة من كل ذنب كانت في عهد تلك الحوادث طفلة ربيت على مهاد الرغد والرخاء وهي الآن يتيمة طريدة لامجأ لها ولا نصير وحياتها او موتها بين شفتيك .. بالله الا عطفت عليها بكلمة تنقذها من الموت .. » قالت ذلك وقد شرقت بدموعها — وناهيك بعجوز تبكي وتستعطف

فلما سمعت زبيدة كلامها ورأت ثنايا زوجها وشعره كاد الحنو يغلب على عواطفها فسكتت هنيهة وعبادة تراقب حركاتها ولم تشك انها اصغت الى ندائها

ثم رأتها اقفلت الحق وهي تقول لها « ألم تتقدمي بهذه الآثار الجامدة الى الرشيد في حياته ؟ »

قالت « بلى فعلت »

قالت « ولماذا تقدمت بها اليه ؟ »

قالت « تقدمت اليه بها ليعفو عن زوجي يحيى »

قالت « وماذا كان جوابه »

فبلعت ريقها وحارت في الجواب ولكنها لم تر بدًّا من الصدق فقالت « انه ردني خائبة يامولاتي »

قالت « وهل ينبغي ان اكون انا اعرف منه لحقك ياعبادة ؟ »

قالت « اني تقدمت الى الرشيد مطالبة بحق كنت احسبه لي عليه واما الآن فاني استعطفك والتمس تفضلك ولا حق لي . اطلب احسانك على فتاة لادخل لها في امرنا — اما انا فاذا قلت اني ارتكبت ذنبًا نحوك فهذا عنقي بين يديك ولا اسف على حياتي . اما تلك الفتاة المسكينة فلا ذنب لها . . »

فقالت « واي فتاة تعنين »

فاستبشرت بسؤالها وقالت « اعني فتاة هي بقية ذلك القتيل السيء الطالع ساقها شقاؤها الى الفرار مما اصاب اباها واعمامها وجدها فبقيت في قيد الحياة وظلت انا حية لاعولها واتولى تربيتها فقضينا عدة اعوام ونحن نتستر ونعيش عيش المتسولين وقد قبلنا حكم القضاء بذلك فساقت لنا التقادير اناسًا وشوا بنا الى امير المؤمنين وحملوا الفتاة المسكينة الى قصره فخفت ان يغروه بقتلها فلم اجد لي بابًا اطلب الفرج منه سواك فاتيتك بهذه الآثار لعلها تعطفك على تلك المسكينة فتقولي كلمة يكون لها فيها الحياة فرأمر امير المؤمنين باخراجها فاذهب بها واقضي بقية الحياة معها في كوخ حقير او اغادر هذه البلاد الى حيث تأمرين . بالله ترفقي . . . اسألك برأس ابنك وبحنوك عليه الا أصغيت لتذللي . . وانت تعلمين اني لم استعطف احدًا على هذا الشكل في عمري حق ولا الرشيد رحمه الله . . » ولم تعد تستطيع امساك نفسها عن البكاء

وكانت عبادة تتوقع ان تسمع منها كلمة الانعطاف فاذا هي تسألها « وما اسم الفتاة ؟ »

قالت « ميمونة يا مولاتي »

فابتسمت وحول مبسمها هالة من الحقد والنقمة لا سبيل معها الى الانعطاف وقالت « ميمونة ! جئت تطلبين النجاة لميمونة ؟ لماذا لم ينجها حبيبها الخراساني شاهر سيف النقمة على آل عباس كافة ... الذي لو أتيح له ان يشرب دمنا لشربه »

فلما سمعت قولها ارتج عليها ودهشت لاطلاعها على ذلك السر وهي تحسبه مكتوماً عن كل انسان وقدفاتها تفشي الجاسوسية في ذلك العصر وان لكل انسان جاسوساً على صاحبه . حتى الاب يتجسس على ابنه والابن على ابيه وكان لزبيدة عيون في بيت المأمون يأتونها بالاخبار عن كل حركة فيه وقد علمت بخبر الخراساني بالامس وعزمت على ان تخبر ابنها به ولم تعلم انه غادر بغداد ونجا من حبائلها

اما عبادة فبغتت وجمد الدم في عروقها ولم تحر جواباً فظلت ساكتة ثم خافت ان يثبت سكوتها التهمة عليها فارادت التنصل منها على قدر الامكان فقالت « لم أفهم مرادك يا مولاتي ومن هو ذلك الخراساني وما هو شأنا بالدسائس والنقمة ونحن لا نكاد نملأ جوفنا طعاماً .. بالله اقبلي استعطافي فقد صغرت نفسي واكاد أتميز صغراً واستهانة وانما اطلب منك اخراج هذه الفتاة من قصر امير المؤمنين ومهما أمرت بعد ذلك فاني طوع ارادتك .. »

فحوّلت زبيدة وجهها عنها ومدّت يدها بالحق اليها وقالت « كفي يا عبادة خذي هذا الحق لعله ينفعك في غير هذا السبيل واذا كنت في حاجة الى عطاء من مال او طعام اعطيناك .. »

الفصل الثاني والخمسون

الغضب

فعلمت عبادة ان الكلام ذاهب عبثاً وان زبيدة تطلب انصرافها فتناولت الحق وهي تقول « كنت اقبل عطيتك يا سيدتي لو بقي لي مطمع في الحياة فاستغفرك على ما بدا

من جسارتي وأرجو ان يديم الله سعدك ويؤيد عرش ابنك » قالت ذلك وتحولت تظهر عزمها على الخروج وهي تتوقع ان يلين قلب زبيدة بما سمعته من التقريع فبلغت الى باب القاعة ولم تسمع صوتها ولا رأتها تحركت من مكانها . فكبرت ان تخرج من بين يديها ذليلة مغلوبة فعادت اليها انفتها وتذكرت حالها على عهد ابنها وما اصابها من البلايا بسبب زبيدة وما رأته من قساوة قلبها وشماتتها بذلها فالتفت اليها فاذا هي لا تزال جالسة على السرير وعيناها على الوسادة تتشاغل بالتقاط فتات المسك عنها وحول شفتيها ابتسامة تغني في شرح عواطفها عن مجلد لانها جمعت بين الاستخفاف وعز الانتصار وانفة الكبراء وشماتة الحاقدين

وكانت زبيدة تتوقع رجوع عبادة لانها لم تشف كل غليلها منها ولم تجبها ساعة الوداع رغبة في رجوعها وقد لذ لها الحديث مع امرأة ساعدتها الاقدار عليها حتى سحقها سحقاً بعد ان قتلت ابنها واذلت زوجها وسائر اهلها وشتتت شملهم وقبضت على اموالهم وضياعهم واصبح اسمهم فزاعة يخافها المنتمون اليهم — لان الرشيد انما نكب البرامكة برأيها وتحريضها وقد لذ لها النصر — وليس على قلب الانسان الذ من النصر . ولو حللت اسباب السعادة تحليلاً دقيقاً لرأيتها ترجع الى النصر او ما في معناه . فالغالب في الحرب يتمتع بالنصر على ابسط معانيه وناهيك بلذة القائد عند ما يرى جيشه ظافراً وجيش عدوه مدحوراً . وطلاب المال لا يجمعونه خوف الجوع فان الانسان يشبعه ما لا يعجز الفقر الفقراء عن الحصول عليه وانما يجمع المال ليستعين به في تنفيذ اغراضه او تقوية نفوذه في الدولة او الهيأة الاجتماعية وهو النصر او الفوز . وطلاب الشهرة على اختلاف وجوهها انما يطلبونها التماساً لمثل هذه اللذة — فطالب الشهرة من طريق السياسة يشعر اذا مدحه الناس على عمل اعجبوا به انه تغلب على آرائهم بقوة عقله وان اعجابهم به انما هو اقرار بتقصيرهم عنه في ذلك السبيل . وطالبها من طريق العلم او الشعر او غيرهما من المهن القلمية يلذ له اعجاب الناس بنفثات يراعه او بنات افكاره مثل شعور القائد بانتصاره على اعدائه — فزبيدة لذ لها الانتصار الباهر الذي توفقت اليه على البرامكة وجاءت مقابلة عبادة وتذللها تزكية للنصر فاستغرقت في تلك اللذة حتى نسيت عاطفة الشفقة او تناستها او لعلها ابعدت تلك العاطفة عمداً لان البرامكة تعمدوا اهانة ابنها واخراج الملك من زوجها

فلما التفتت عبادة نحوها ظلت هي مشتغلة بالتقاط المسك عن الوسادة وقلبها يخفق توقعاً لما عساه يبدو من تلك الوالدة المقهورة المغلوبة على امرها فاذا هي تقول لها « أأخرج من

بين يديك ولم أنل جواباً منك غير الشماتة والاستخفاف وقد تقدمت اليك بحرمة زوجك المدفون في طوس .. فاكتفيت بقولك ان الله انما اوصلنا الى هذه الحال جزاء ما جنته ايدينا ... ؟ وقد سرّني انك تعرفين ذلك وان الله قادر على مثله في كل زمان ومكان ...»

ولما قالت ذلك لم تتمالك زبيدة عن النظر اليها فاذا هي قد تغيرت سحنتها من الاستعطاف والتذلل الى الغضب والنفور واحمرت عيناها وجف دمعها وارتجفت شفتاها وارتعشت يداها ورجلاها حتى كادت تقع الى الارض وهي تتجلد وكانت قد تناولت عكازها فتوكأت عليها ولم تزد على ما قالته واخذت تبحث عن نعالها لتلبسها وتخرج فصاحت بها زبيدة «عبادة !»

فتغافلت وظلت سائرة في الدهليز فصاحت بها ثانية «عبادة ! يا ام الرشيد !»

فلما سمعتها تناديها بهذه الكنية استبشرت وتراجعت وكظمت ما في نفسها لعلها تستطيع ان تنفع ميمونة فالتفتت واحدى يديها على العكاز والأخرى على خصرها كانها تتماسك من الضعف فوقعت عيناها على عيني زبيدة وهي ترجو ان تقرأ شيئاً جديداً يشفّ عن انعطاف او حنو لعلها تغير رأيها في ميمونة فرأتها لاتزال تبتسم ولم يتغير شكل ابتسامها وقد زاده رهبة ما بدا في عينيها من دلائل الغضب فظلت عبادة في هذه اللفتة بضع لحظات وهي تتفرس في عيني زبيدة ومع انها قرأت الغضب فيهما ما زالت تغالط نفسها رغبة في انقاذ ميمونة واذا بزبيدة تقول بصوت مختنق «تدعين على ابني بالقتل ؟ .»

قالت «معاذ الله يا سيدتي ... اطلب اليه تعالى ان لا يريك مكروهاً به ... بل اتوسل اليه ان يحرس كل ابناء الناس لعلهُ يصيب حفيدتي المسكينة طرف من عنايته ...» ثم تغير صوتها واختنق

فقطعت زبيدة كلامها وقالت «الم تكوني تطلبين ذلك من قبل ؟»

فأدركت عبادة انها تشير الى ايام عزها قبل مقتل ابنها فقالت «ويلاه كنت ارجو ذلك ليبقى ابني ولكنني لم اكن اقوله بحرارة قلب ولهفة كما افعل الآن لاني كنت لم اجرب بعد ... كنت مثلك يا مولاتي لا اعرف من الدنيا الا نعيمها وراحتها وكنت احسب الدهر يدوم لي فاذا هو قد اذاقني ما لم يسمع بمثله في الارض ... واصبحت بعد ان عاداني الدهر أرى العناصر تغالبني ولا أرى من دنياي غير المصائب ولا اتوقع غير النوائب»

فادركت زبيدة انها تعرض بما تخافهُ عليها من النكبة فكرهت ان تسمع شيئاً يكدرها اذا هي اطالت الحديث معها فوقفت واخذت في اصلاح عقدها المعلق في صدرها والعصابة

التي حول رأسها كانها تأهب للخروج فاكتفت عبادة بما قالته وتحوّلت الى نعالها فلبستها وخرجت وهي لا تبالي بما اصابها من الفشل بعد ان اجابت زبيدة ذلك الجواب

سارت عبادة توًّا الى قصر المأمون وقضت الطريق وهي تمشي مسرعة وقد نسيت عجزها لفرط ما كان من تأثرها على اثر ما دار بينها وبين زبيدة وكانت دنانير في انتظارها فلما قصت عليها ما جرى اسفت لفشلها وجعلت تخفف عنها وتهوّن عليها

الفصل الثالث والخمسون

الفضل بن سهل

لنترك اهل بغداد في حالهم وننظر في ما كان من امر بهزاد بعد رحيله فقد قرأنا في كتابه الى ميمونة انه مسافر الى خراسان وقد فعل ذلك بعد ان اوصى سلمان بما عليه من السعي في اثناء غيابه . وغادر بغداد على فرسه وقد شدّ ذلك الصندوق الى السرج والتمس اقرب الطرق وكان اذا بات في خان او نزل ادعى انه طبيب وصندوق العقاقير معه فقضى في سفرته اياماً قطع في اثنائها جبالاً وسهولاً واودية وانهاراً حتى اشرف على مدينة مرو الشاهجان عاصمة خراسان في ذلك العهد وهي في منبسط من الارض حولها سور مربع الشكل وفي وسط المدينة قلعة ضخمة يقال لها في اصطلاحهم « القهندز » تظهر للطل على مرو عن بعد ويحسبها الناظر اليها بلداً و يغرسون على سطحها المباطخ والمباقل كانها بستان على رأس جبل ولم يكن ذلك المنظر ليؤثر على بهزاد فانه نشأ في هذه المدينة وشب فيها فدخل توًّا بالتمس منزل الفضل بن سهل

والفضل بن سهل اصله من سرخس نشأ مجوسياً وكان عالماً بالنجوم وقد ادخله في خدمة الدولة يحيى البرمكي في ايام الرشيد ولم يسلم الاّ سنة ١٩٠ هـ على مذهب الشيعة وانما اسلم رغبة في نصرة الفرس بخراسان . وكان هماماً فقدمه يحيى في الدولة حتى صار من خاصته ثم جعله قهرماناً له . وتوسم الفضل في المأمون نجابة وتعقلاً فتوقع ان تصير الخلافة اليه فلزمه وخدمه وتقرب منه . وكان المأمون يجله و يقدمه ولم يكن الفضل طامعاً بأقل من الوزارة — يحكى ان مؤدب المأمون قبل الخلافة لما رأى جميل رأيه بالفضل واكرامه

اباه نقل ذلك للفضل وقال لهُ « لا استبعد ان يحصل لك منه ٠٠٠و٠٠٠و١ درهم » فاغتاظ الفضل وقال « والله ما صحبته لاكتسب منه مالاً قلَّ او جلَّ ولكني صحبته ليمضي حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب »

وكان الرشيد لما بايع لاولاده بولاية العهد جعل للامين العراق والشام الى آخر المغرب وهو الخليفة بعده وجعل للمأمون خراسان وسائر المشرق على ان يتولى الخلافة بعد اخيه الامين ٠ وكل ذلك بتدبير جعفر وغيره من احزاب الشيعة وفي جملتهم الفضل بن سهل ٠ ولما اراد الرشيد سنة ١٩٢ هـ ان يسير الى خراسان امر ابنه المامون ان يبقى في بغداد حتى يرجع ٠ وكان الرشيد مريضاً فخاف الفضل ان يموت الرشيد في الطريق فيذهب سعيه هدرًا فجاء الى المامون وقال لهُ « لست تدري ما يحدث بالرشيد وخراسان ولايتك ومحمد الامين المقدم عليك وان احسن ما يصنعهُ بك ان يخلعك وهو ابن زبيدة واخواله بنو هاشم وزبيدة واموالها كما تعلم فاطلب الى امير المؤمنين ان تسير معه » فطلب المامون ذلك من ابيهِ فامتنع اولاً ثم اجاب — ولا بدَّ لامتناعه من سبب كان يجول في خاطره وهو يتوقع قرب اجله و يرى لاولاده عليهِ رقباء يحصون انفاسه و يستطيلون بقاءهُ

فسار المامون مع ابيه والفضل معهما واهتم الفضل في اثناء الطريق بتأييد أمر المامون فاخذ له البيعة على كل من في عسكر الرشيد من القواد وغيرهم وأقر له الرشيد بجميع مامعه من الاموال ٠ ثم نزل المامون مرو قصبة خراسان واشتد المرض على الرشيد وهو في طوس والامين في بغداد وله عيون مع الرشيد اشدهم غيرة عليه الفضل بن الربيع وزير الرشيد بعد البرامكة ٠ فلما بلغ الامين اشتداد المرض على ابيه بعث الى ابن الربيع وغيره يستحثهم على بيعته ٠ فلما مات الرشيد هناك سنة ١٩٣ هـ احتال ابن الربيع على من كان في ذلك العسكر والمامون غائب في مرو وحرضهم على اللحاق بالامين ٠ فاطاعوه رغبة منهم في الرجوع الى اهلهم واولادهم في بغداد واغفلوا العهود التي اخذت عليهم للمامون وحملوا ما كان في عسكر الرشيد الى الامين وتمت البيعة له كما تقدم خبر ذلك مفصلاً

فلما بلغ المامون موت ابيه ورجوع رجاله الى اخيه بالاحمال والاموال وقد نكثوا عهده خاف على نفسه فجمع خاصته ببرو وشاورهم في الامر واظهر لهم ضعفه وانه لا يقوى على اخيه فنشطوه ووعدوه خيرًا ٠ ولبث الفضل يترقب الفرص لنيل بغيته التي اسلم من اجلها وكان في جملة مساعيه قبل موت الرشيد في هذا السبيل انه انفذ بهزاد هذا طبيباً الى بيت المامون وهو يعرفهُ من زعماء الخرمية وفيه اقدام وغيرة على الشيعة ونصرة للفرس ومعه

سلمان خادماً له وهو من رجال هذه الطائفة . وكانت المخابرات السرية دائرة بين بهزاد والفضل فلما قتل الرشيد واستأثر الامين بالخلافة وآن العمل في خراسان ركب بهزاد اليها ليشترك مع الفضل في التدبير

وكان الفضل يوم وصول بهزاد الى مرو جالساً في قصره مع اخيه الحسن فجاءه الحاجب ان بهزاد بالباب فامر بادخاله فدخل وهو لا يزال بلباس السفر وفي يده الصندوق فوضعه بالباب وسلم فرحب به الفضل والحسن واجلساه في صدر القاعة . وكان الفضل ليفاوي المزاج رقيق البدن أصفر الوجه مع صحة ونشاط وهو يومئذ في حدود الكهولة اذا نظرت الى عينيه رأيتهما ينطقان بما في صدره من المطامع وما يضمره من المكائد ويفكر في نصبه من الحبائل مع صبر وتربص ولم يكن أخوه الحسن في مثل مزاجه ودهائه بل كان اقرب الى ظهور ما في نفسه وتجلي اغراضه في وجهه اذا غضب بان الغضب في وجهه او سرّ ظهر السرور عليه أما الفضل فكان وجهه لا يغيره تاثير ولا تظهر فيه عاطفة كانه لا يغضب ولا يفرح فلا تقف الحدة في سبيل اغراضه او يعرقل الغضب مساعيه كما يصيب اصحاب المزاج الدموي او العصبي فانهم لا يصبرون على ضيم ولا يستطيعون الكظم فاذا غضبوا غلبت عليهم الحدة حتى يخرجوا عن الصواب فربما بدرت من احدهم كلمة يقولها عن غير روية تذهب بها مساعيه هدراً بخلاف اصحاب المزاج اللمفاوي

فلما جلس بهزاد اخذ الفضل واخوه يسألانه عما فعله فقص عليهما ما جرى له وهما يعجبان بشجاعته وغيرته على الفرس وهو لا يرى انه فعل شيئاً يذكر فسأله الفضل عن حزب الحرمية ببغداد

فقال « انهم على دعوتنا لا يدخرون في سبيلها مالاً ولا انفساً »

قال « كيف فارقت ذلك الغلام » يريد محمداً الامين

قال « فارقته بين الكاس والطاس والجواري والغلمان »

فقال الحسن « ان دولته ذاهبة لا محالة ولكن ... »

فاجاب بهزاد على الفور « ولكن ذلك لا ينفعنا الاّ اذهبناها نحن »

فضحك الفضل ضحك الظافر وقال « ونحن فاعلون ان شاء الله انما ينقصنا ان يستحكم الخلاف بين الاخوين حتى يستنصرنا هذا على ذاك فنشترط عليه ما يضمن غرضنا »

قال بهزاد « لا تلبثون ان تسمعوا بذلك قريباً بفضل صاحبنا سلمان ... والاّ ذهب اسلامك عبثاً ... »

فشق هذا التصريح على الفضل لانه مع اشتهار ذلك عنه واشتراكه مع بهزاد في المنفعة من اسلامه لم يكن يرضى ان يقال عنه انه اسلم رغبة في الدنيا او لعله بعد ان اسلم احتيالاً اصبح يرى الاسلام حقاً ... فسكت ولم يبد ملاحظة على انه اراد ان يثبت قدم بهزاد في هذه الخدمة لما ظهر لهُ من اقتداره على العمل بعد رجوعه من تلك المهمة وتوقع ان يحتاج اليهِ في مثلها فنظر الى اخيه الحسن وضحك كانه يكتم امرًا يتردد في التصريح به ففهم غرضه وابتسم وهو ينظر الى بهزاد فظل بهزاد ساكتاً ثم استلم الحسن الحديث فوجه كلامه الى بهزاد قائلاً « اننا نرى لك فضلاً كبيرًا في نصرة الفرس وسياتي يوم تنال فيه نصيبك من هذا الفوز »

فقطع الفضل كلامه قائلاً « بل هو ينـاله من اليوم ... وهل تجد اليق منه بپوران » يعني پوران بنت الحسن بن سهل وكانت بارعة في الجمال يتحدث اهل خراسان بجمالها وتعقلها

فلما سمع بهزاد اسمها اجفل لانه مقيد القلب كما تعلم ولكنه لم يكن يستطيع رفض ذلك الانعام فكادت البغتة تظهر في وجهه ولكنه تجلد واحنى راسه شاكراً وقال « انها نعمة لا استحقها .. ولم اعمل عملاً يخولني هذا الانعام بعد ... ونحن لا نزال في اوائل الطريق .. »

فاستحسن الفضل عذره ولم يخطر له انه يأبى الزواج بپوران وليس في كبراء خراسان واحدٌ الا ويتمنى الحصول عليها فابتدره قائلاً « هذا فضلاً عن تقدمك في مناصب الدولة عند سنوح الفرصة »

فقال بهزاد « اعذرني يا سيدي اذ استعفيت من المناصب فانا اخدم مصلحة أمتي بما تشاء من طريق آخر » ثم تحفز للوقوف وقال « واستأذن الآن في الذهاب الى منزلي لتبديل ثيابي والراحة .. » قال ذلك ومشى الى نعاله فلبسها وتناول الصندوق وهمّ بالخروج فاستوقفهُ الفضل قائلاً « وما هذا الصندوق ؟ »

قال « انه صندوق العقاقير يا مولاي » ومشى

الفصل الرابع والخمسون

فاطمة

فلما خرج من القصر ركب فرسه وأوغل في المدينة وهو يسير في ازقتها الضيقة حتى بلغ الى بعض اطرافها وهو غارق في بحار التأمل وقد ساءه ما ذكره الفضل عن بوران لاعتقادهِ ان الفضل يعني مايقوله من تزويجه بها وقد فاتهُ انهُ انما قال ذلك ترغيباً لهُ في مناهضة العباسيين ولو علم الفضل حقيقة بهزاد لرآه أرغب اهل فارس في مناهضتهم

على ان تلك الذكرى هاجت اشجانه واذكرته ميمونة وكيف تركها في بغداد مع علمهِ ان العداء لايلبث ان يتمكن بين الاخوين وتنتشب الحرب بين البلدين . ثم تذكر انها مقيمة في قصر المامون فاطمأن خاطره . وانسته هذه الهواجس طريقهُ فانتبه لنفسه فاذا هو قد تجاوز المكان الذي كان يقصدهُ فدار حتى اتى زقاقاً انتهى منهُ الى باب ترجل عندهُ ووقف والصندوق بيدهِ وقرع الباب قرعاً مخصوصاً ولبث واقفاً وبعد هنيهة فتح الباب وخرج منه عبد طويل القامة عليه سمات الشيخوخة وحالما وقع نظره على بهزاد ترامى على يديه واخذ يقبلهما ويقول « سيدي .. سيدي ... انت جئت ؟ لقد طال غيابك » قال ذلك واراد ان يتناول الصندوق من يده فامتنع عن تسليمه اليه ومشى فادخل العبد الفرس الى الاسطبل واقفل الباب وسار بين يدي بهزاد مهرولاً من الفرح في دهليز استطرقا منه الى فناء واسع وتحولا من بعض جوانبه الى غرفة في صدرها عجوز طاعنة في السن قد شاب شعرها وتعضن جبينها وطال حاجباها حتى غطيا عينيها وقد تزملت بمطرف وجلست الارباء فلما اطل العبد عليها صاح « مولاتي جاء سيدى جاء سيدى »

فبغتت وصاحت « جاء ؟ اين هو » وكان بهزاد قد وصل اليها فجثا عند قدميها وقبل يدها فرفعت بصرها اليه وعانقته وضمته الى صدرها واخذت تقبله وهي تبكي وتقول بصوت مختنق « اهلاً بولدي وحبيبي .. اهلاً بك انت جئت يا كيفر ... لقد طال انتظاري يا بني وخفت ان اموت قبل ان اراك وأفي نذري .. » قالت ذلك وخنقتها العبرات

اما هو فتجلد وقال « ما الذي يبكيك يا سيدتي احمدي الله على لقائي »

فتراجعت وامسكت عن البكاء وقالت « اني احمد الله حمداً كثيراً يا بني على رجوعك

سالماً .. من اين انت آتٍ الآن ؟ »

قال « من بغداد »

قالت « وهل توفقت الى ما اردت .. »

قال « توفقت وجئتك بما تطلبين »

قالت وقد دهشت « جئت براسه ؟ »

قال « نعم يا سيدتي »

قالت « اين هو ؟ »

فاشار الى الصندوق وقال « هو في هذا الصندوق »

فمدت يدها لتتناول الصندوق وقد نشطت كانها استعادت شبابها وقالت « في هذا الصندوق ؟ افتحه . أرني راس مولاي .. ارني اياه لاتمتع برؤيته قبل انقضاء اجلي . »

فقعد معتدلاً والتفت الى العبد فانصرف من الغرفة . فلما خلا بالعجوز اخذ يعالج الصندوق حتى فتحه واستخرج جمجمة وضعها بين يديها وقد فاحت رائحة التراب المتعفن فنظرت الى الجمجمة بعينين محملقتين وصاحت « هذا هو راس ابي مسلم .. هذا هو راس والدي البطل ... انك احييته يا بني » واخذت تقبل الراس وقد شرقت بدموعها

اما هو فكاد يبكي معها ولكنه تجلد وقال « وستفرحين يا سيدتي متى انتقمت له . »

قالت وقد تماسكت رغم ما كان يبدو من ارتعاش انامله « نعم يجب ان تنتقم له وانا انما دعوتك « كيفر » رغبة في ذلك ... ان اسمك يا بني معناه الانتقام ... انك ستنتقم لهذا المقتول ظلماً ... وكيف عثرت عليه وقد بلغنا انهم رموه في دجلة ؟ »

قال « كنت اظن ذلك ولكنني توفقت الى شيخ كان حاضراً مقتله ودلني على مدفنه في المدائن واعانني على استخراجه .. هذا هو رأس ابي مسلم بلا ريب تفرسي فيه جيداً .. »

فاعادت النظر الى الرأس وعيناها تغشاها الدموع وقالت « نعم هو هو بعينه ويدلني على ذلك خفقان قلبي .. هذا هو رأس والدي أبي مسلم ... كيفر يا كيفر انك نعم الرجل انت .. انك ستنتقم له .. هل آن وقت الانتقام ؟ »

قال « قد آن ياسيدتي ... وآن ان تقصي عليّ خبري واصل نسبي وتمنحيني الوديعة التي وعدتني بها وقلت اني سأستخدمها في ذلك الانتقام ؟ »

قالت « انها حاضرة يا ولداه تمهل قليلاً .. ولا بدّ قبل تسليمك اياها من ان

أقص عليك خبرها .. اجلس .. الا تحتاج الى طعام ؟ »

قال « كلا يا سيدتي »

الفصل الخامس والخمسون

النسب

فنهضت من مكانها وقد تشددت ومشت منتصبة القامة كانها في عنفوان الشباب وضغطت على كتف بهزاد لتمنعه من النهوض معها ومشت الى خزانة في جانب الغرفة واخرجت من جيبها مفتاحاً عالجت الخزانة به حتى فتحتها وهو ينظر اليها بلهفة فاخرجت من الخزانة لفافة مستطيلة من الخز ورجعت بها فوضعتها بين يدى بهزاد وقعدت وهي تقول « انت تعلم اني فاطمة بنت ابي مسلم الخراساني ... »

قال « نعم »

قالت « ويعتقد الناس وانت منهم انك ربيت في حجري ولا تعرف ابويك »

قال « نعم »

قالت « وانه لا يعرف ابويك احد سواي »

قال « صدقت »

قالت « ان جماعة الحرمية يكرمونني لاني من دم ابي مسلم ولكنهم لا يعلمون انك انت من دمه ايضاً »

فصاح قائلاً « انا من دم أبي مسلم ؟ وكيف ذلك .. »

قالت وهي تبتسم « لانك ابني »

قال وقد ظهرت الدهشة في وجهه « ابنك ؟ انا ابنك ؟ »

قالت « نعم يا ولدي .. انك حشاشة كبدي » وضمته الى صدرها وقبلته

فقبل يدها وقال « وكيف ؟ »

قالت « لاني تزوجت ولا يعلم الناس اني خلفت ولداً من ابيك فيزعمون انك غلام فقير احتضنتك وربيتك »

فتعجب بهزاد من ذلك والتبس عليه الامر ولم يعد يستطيع صبراً على السكوت فقال

« وكيف اذاً ؟ كيف انا ابنك ؟ »

قالت « لاتتعجب ... ان اباك زوجي محرز بن ابراهيم توفي وانا في حدود الكهولة وقد يئس الناس من حملي ولكنني لما توفي كنت حاملاً بك فتستّرت حتى آن الوضع فولدتك واخفيت خبرك حيناً ثم اظهرت اني احتضنتك وربيتك ولما كبرت غرست حب جدك أبي مسلم في قلبك وسميتك « كيفر » اي الانتقام لان أُولئك الظالمين احرقوا قلبي بقتل جدك تلك القتلة الشنعاء غدراً وما زلت منذ تزوجت وانا اعد نفسي بولد من دمي اكرس حياته لهذا الانتقام لان جدك ابا مسلم لم يخلف ولداً ذكراً ينتقم لهُ وطال انتظاري . فلما جئت نذرتك لهذا الغرض ... وقد حفظت من اثر جدك خنجراً لم يخنهُ قط بل كان النصر مصاحباً لهُ حيثما سار بهِ » قالت ذلك وحلت اللفافة واستخرجت منها خنجراً استلتهُ فلمع فرنده كالبرق ودفعتهُ اليهِ وقالت « انتقم لابي مسلم بهذا الخنجر »

فتناول بهزاد الخنجر وقلبهُ بين يديهِ ثم قبلهُ واغمده وخبأه في جيبهِ وقال وهو يحسب نفسهُ في منام « اني اذاً حفيد ابي مسلم الخراساني ... قد كنت اجاهد في الانتقام من اجل فضلك في تربيتي فانا الآن انتقم لجدي ... » ولما قال ذلك ابرقت عيناه وثارت الحمية في رأسه وتذكر ميمونة — لان المحب يذكر حبيبه على الخصوص في حال سروره او كدره اما في حال السرور فلكي يشاركه فرحه واما في حال الكدر فلكي يتعزى برؤيته عن مصائبه . ولما تذكر ميمونة تذكر رأساً آخر في ذلك الصندوق فمدّ يده الى الصندوق وهو يقول « وهنا رأس آخر نحن ناقمون على قاتلهِ » واستخرج يدهُ وهو قابض على ذلك الرأس من شعرات في ناصيته يبس الدم عليها وقد جفّ جلد الوجه واسود والتصق بالعظم حتى يحسبهُ الناظر اليهِ عظماً اسود

فنظرت فاطمة الى ذلك الرأس فلم تعرفه فقالت « رأس من هذا ؟ »

قال « تفرسي فيه .. الم تعرفيه ؟ »

فتفرست فيه وقالت « لا ... لم اعرفه »

قال « هو رأس جعفر القتيل الثاني »

فصاحت « رأس جعفر ؟ جعفر بن يحيى ؟ .. »

قال « نعم يا اماه .. انهُ رأس جعفر المقتول غدراً » وحدثتهُ نفسه ان يبوح لامه بحبه لميمونة فاجل ذلك الى وقت آخر وظل ساكتاً وهو يراجع ما سمعهُ من الغرائب في تلك الساعة

قالت « وكيف عثرت عليهِ يا بني ؟ »

قال « الم تعلمي ان الرشيد غدر بهِ وقتلهُ ولم يكتفِ بقتله بل قطع بدنهُ قطعتين نصب كلاً منها على جسر من جسور بغداد ونصب الرأس على جسر ثالث . فظلت هذه القطع معرضة للحر والبرد للشمس والمطر حتى سافر الرشيد الى الري بعد سنتين وعند رجوعه عزم على الاقامة في الرقة فمرَّ ببغداد وامر ان تنزل جثة جعفر وتحرق وكنت في اثناء نصب الجثة قد وكلت الى سلمان ان يسعى في الحصول على الرأس فلما انزلوا الجثة ارضى الموكل بالاحراق واخذ منهُ الرأس فحفظتهُ في هذا الصندوق حتى جمعت اليه رأس جدي »

فاعجبت فاطمة بما اتاه ولدها فقبلتهُ وقالت « ضع هذين الرأسين في الصندوق وضع هذا الخنجر معهما حتى ياتي وقت تجريدهِ فتتقلدهُ وانت فائز باذن الله .. اكتم ماذكرتهُ لك كتماناً تامًّا عن كل انسان وسياتي يوم تتقلد بهِ هذا الخنجر وتقتل بهِ عدوك .. تقتل بهِ بعض ابناء قاتل جدك .. ولكن احذر يا بني ان تظهر للملاء ما تعملهُ فاذا دُعيت للحرب فلا تكن قائداً او اميرًا »

فقال « ذلك ما عزمت عليه .. وانما يهمني الانتقام »

فتنهدت وقالت « هل ارى ذلك اليوم واشفي غليلي . ؟ »

قال « ارجو ان تريه وتفرحي بي »

قالت « وستجتمع بالخرمية . فكن لديهم كما يعتقدون بك . هم يعدونك زعيمهم لانك ربيبي فابقَ معهم على هذا الحال لئلا يفسد عليك تدبيرك »

الفصل السادس والخمسون

كتاب سلمان

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب واعدَّ الطعام فنهضوا وتناولوه وبات ببزاد (اوكيفر) تلك الليلة وقد احس بنشاطٍ جديد كأن روح ابي مسلم دت فيهِ وتذكر ما علمهُ من حال الخلافة في بغداد وضعف امرهم وهو يتوقع ان تسنح الفرصة للانتقام عند ما يخلع الامين أخاه وذلك لا بدَّ منهُ لعلمه بما دبره سلمان من الاسباب المساعدة على ذلك

واصبح اكثر رغبة في تعجيل الامر من ذي قبل

ونهض في اليوم التالي وسار الى مقابلة جماعة الخرمية ولهم مجتمع سريٌّ يجتمعون فيه على انهُ اكتفى بمقابلة بعض كبارهم وتردد عليهم وشجعهم وابلغهم ما شاهده من استعداد انصارهم في بغداد لنصرتهم بما يملكون وتباحثوا في تدبير الامور والتربص ريثما يأتي الوقت للانتقام وكان هو ينتظر ما ياتيهِ من اخبار سلمان ببغداد

قضى في ذلك اياماً او اسابيع ولم يذهب الى الفضل ولا سمع بخبر حتى اصبح ذات يوم واذا بهجان جاءهُ بكتاب خبأه في نعالهِ حذرًا من ان يطلع عليهِ احدٌ فتناول الكتاب وعلم من ختمه انهُ من سلمان ففضهُ وقرأهُ فاذا هو يقول فيهِ

« من سلمان خادم الخرمية الى رئيسهم ومقدامهم بهزاد

« اما بعد فقد علمت ما نحن ساعون فيه وقد توفقنا الى ذلك بالامس فان الفضل بن الربيع لما قدم من العراق وقد نكث عهد المأمون مازال خائفاً على نفسه منهُ اذا ولي الخلافة فاصبح همّه النجاة من هذا الخطر فاستحثهُ رئيس المنجمين ... على تحريض الخليفة ليخلع اخاه من ولاية العهد ويبايع لابنهِ موسى (ابن الامين) وجعل ابن ماهان يوافقهُ على ذلك لان الامين كثير الثقة بهذا الشيخ المغرور فقبل الامين رأيهما رغم نصح الناصحين وسمى ابن ماهان شيخ الدعوة ونائب هذه الدولة ولا يبعد ان يوليه قيادة الجيش فاذا انتشبت الحرب كانت قيادته شؤماً على هذا الخليفة لان الرجل كثير الغرور بنفسه . وعلمت في هذا الصباح ان الامين كتب الى جميع عمالهِ بالدعاء لابنهِ موسى بالامرة واظنهُ يبعث الى المأمون في خراسان يطلب اليهِ ان يخلع نفسه فافعلوا ما ترونه ونحن هنا في خير والسلام »

فلما اتى على آخر الكتاب انشرح صدره وشعر انه تقدم خطوة كبرى نحو الغرض المطلوب وكان يومئذٍ في منزل والدته فاطلعها على الكتاب فاستبشرت وقالت قد دنا الوقت يابني ولا اظن الفضل بن سهل يجهل مايجب عليه في مثل هذا الحال واذا جهله فهل تجهله انت ايضاً ؟ »

قال « ارشديني برأيك ياامّاه »

قالت « اذا استفحل الامر بين الاخوين فالفرس ينصرون المامون على ان ينصرهم ويرعى حقهم ولو ارادوا ان يتخلصوا من المامون ويعيدوا السلطان لانفسهم بدون خليفة افسدوا تدبيرهم وذهب سعيهم عبثاً لان العامة لايحكمون الا بالدين فاذا دعاهم داعيان احدهما

خليفة ذهبوا الى هذا »

قال « ولكن معنا خليفة هو المأمون نحكم الناس به »

قالت « وهل يخلد المأمون ؟ فاذا مات انتقل الامر الى بعض اهله ومن يضمن ان يكون خليفته راضياً عنا وقد يكون ناقماً علينا كما كان الرشيد فينتقم منا شر انتقام »

فوقع قولها من نفسه موقعاً عظيماً واعجب بدهائها وتذكر ما دار بينه وبين كبار الحرمية ليلة الايوان في المدائن وقال « وما الرأي اذن »

قالت « الرأي ان تهيئوا منذ الآن مستقبلاً ثابتاً لاعقابكم . . فاذا لم يكن في الحكم بدٌّ من خليفة عربيّ فالعلويون اقرب مودة لنا من سائر العرب فاشترطوا على المامون اذا اعتنموه ان يجعل الخليفة بعده لبعض العلويين (الشيعة) فيتم لكم ما تريدون . . . اعرض هذا الرأي سرًّا على الفضل بن سهل من عند نفسك وكن عاقلاً حكيماً »

فلما سمع نصيحتها هم بيدها فقبلها واستأذن في الذهاب الى الفضل ليطلعه على كتاب سلمان ويباحثه في الامر

وصل القصر في الضحى فدخل ولم يعترضه الحاجب لما يعلمه من منزلته عند مولاه فمرَّ في الحديقة وسار توًّا يطلب مجلس الفضل واخيه فقد كانا يقيمان معاً في ذلك القصر فاعترض طريقه قبة في وسط الحديقة رأى ببابها غلاماً فظن الفضل جالساً هناك فتحول وأراد الدخول فاذا بفتاة خارجة من ذلك الباب على غير كلفة لانها لم تكن تعلم بوجود احد غريب هناك فوقع نظرها على بهزاد فاجفلت وبدت البغتة في محياها وتوردت وجنتاها خجلاً ووقفت لحظة كانها صنم لايتحرك وارتبكت في امرها هل ترجع الى القبة وفي رجوعها ضعف او تقابل القادم وتحييه وهي تعرفه وهو لا يجهلها . وكانت بلباس البيت وعلى رأسها نقاب خفيف اذا سدلته على وجهها لا يغطي الاَّ بعضه ولما وقع نظر بهزاد على الفتاة اعجب برونق جمالها واشراق محياها وبريق عينيها بما يتجلى فيهما من الذكاء والحياء فخجل لما سببه لها من الانزعاج عن غير عمد فابتدرها قائلاً « العفو يا مولاتي . اظنني ازعجتك وانا اطلب مولانا الفضل وقد حسبته في هذه القبة على جاري عادته الجلوس فيها صباحاً »

فقالت وهي تنظر اليه نظر السذاجة وصفاء النية وقالت « انت تطلب عمي الفضل . . انه خرج مع والدي في هذا الصباح باكرًا لمقابلة المامون وليس في قدومك ازعاج على الاطلاق واذا صدق ظني وكنت بهزاد ؟ » وسكتت كانها تنتظر جوابه فابتدرها قائلاً « نعم يا سيدتي يسمونني بهزاد »

فقالت « ان والدي وعمي كثيرا الاعجاب بك ولو كانا هنا لفرحا بقدومك تفضل اجلس اذا شئت »

فاعجب بهزاد بلطف هذه الفتاة وذكائها على صغر سنها وعلم انها بوران بنت الحسن بن سهل وتذكر تلميح عمها له بشانها فرأى انها جديرة بافضل الرجال ولو لم يكن قلبه مشغولاً لكانت نصيباً حسناً فاجابها وقال « اشكرك يا سيدتي على تلطفك وكنت اود البقاء هنا ولكنني افضل الذهاب الى مجلس المامون لمشاهدة العم والوالد اذني لي بالانصراف » قال ذلك وتحول يطلب قصر المامون وهو قصر الامارة لان المامون كان يومئذ اميراً على خراسان

الفصل السابع والخمسون

المأمون

وكان المامون قد جاء خراسان كما علمت فلما مات الرشيد وبلغه ما فعله الفضل بن الربيع من نكث عهده ورجوعه بالبيعة والاموال من طوس الى بغداد شاور اصحابه من الفرس في مرو عما يفعله وكبيرهم الفضل بن سهل فاشاروا عليه ان يلحق ابن الربيع واصحابه بجريدة فيردهم الا الفضل بن سهل فانه حذره من ترك خراسان لاي سبب كان وقال له « ان فعلت ذلك جعلوك هدية لاخيك ولكن الرأي ان تكتب اليهم كتاباً وتوجه رسولاً يذكرهم البيعة ويسألهم الوفاء »

ففعل المامون ولم يجده ذلك نفعاً فخاف على منصبه فاخذ الفضل يطمئنه وقال له « انت نازل في اخوالك وبيعتك في اعناقهم فاصبر وانا اضمن لك الخلافة » واشار عليه ان يظهر التقوى لان العامة لا تحكم بمثل الدين . فتشجع المامون ولبث ينتظر ما يكون وكان عاقلاً حكيماً لطيفاً وديعاً رقيق الجانب يحب العلم وقد تفرغ له على الخصوص لما اقام بخراسان وفيها جماعة من العلماء فكان يشغل نهاره في مجالستهم ومباحثتهم وقد اطلع على علوم القدماء ولا سيما الفلسفة . وكان ربعة في الرجال ابيض جميلاً طويل اللحية خفيف الشعر ضيق ما بين الحاجبين وفي خده خال اسود وفي عينيه ذكاء ولطف . واشتهر باللطف والدعة حتى ضرب به المثل [1] وكان قد تربى تربية الشيعة واحب مذهبهم لانه شب في

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ١٠٨ ج ٣

حجر البرامكة ثم الفضل بن سهل

ولبث المامون في خراسان يتشاغل بالمطالعة والتفقه بالعلم ينتظر ما يكون من اخيه الامين حتى جاءه منهُ في ذلك اليوم وفدٌ يكلفه ان يبايع ابنه موسى و يقدم اسمه في الخطبة . و يدعوه الى بغداد بحجة انه قد استوحش لبعده فارتاب المامون من هذا الطلب و بعث الى الفضل ليستشيره في الامر فجاءه في قصر الامارة وخلا به في مجلس خاص لم يحضره الا خواص الامراء وفي صدرهم الفضل واخوه الحسن

فقال المامون « قد جاءني من اخينا وفدٌ يطلبون اليَّ ان اقدم ابنه موسى عليَّ و يدعونني ان اذهب الى اخي » فقال الفضل «اما ما يطلبه من تقديم ابنه ففيه نكث البيعة والله على الباغي واما خروجك من خراسان فاذا عزمت عليه فانت صاحب الامر ولكنك لا تبقى لك علينا حجة في الدفاع عنك وليس هذا قولي فقط بل هو قول سائر اهل خراسان وهذا هشام (كبير وجهاء خرسان) اسألهُ » فبعث اليه فاستشاره فقال « انما اخذت البيعة علينا على ان لا تخرج من خراسان فمتى فعلت ذلك فلا بيعة لك في اعناقنا والسلام على امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ومتى هممت بالمسير تعلقت بك بيميني فاذا قطعت تعلقت بيساري فاذا قطعت تعلقت بلساني فاذا ضربت عنقي كنت اديت ما عليَّ »

فلما سمع المأمون قولهُ تشدد وقال له الفضل هذا « هو لسان حال الخراسانيين وهم اخوالك » واشار عليهِ باسقاط اسم الامين من الخطبة والطراز وقطع البريد عنهُ حتى يستفحل الامر بين الاخوين . واكرم المأمون الفضل فولاه الوزارة بكل معانيها للحرب والسلم وسماه ذا الرئاستين

وهم في تلك الجلسة دخل الغلام يستأذن لبهزاد الطبيب فسأل المأمون عنهُ فقال الفضل « هو طبيب قصركم في بغداد »

فتذكره وقال « يدخل »

فدخل بهزاد وحيا فاشار اليه المامون بالجلوس فجلس ثم سأله كيف فارق بغداد فقال « فارقتها وهي تندب اهل الصلاح واذا سألني امير المؤمنين عن اهله فقد فارقتهم في خير وعافية ولكن ... »

قال « ولكن ماذا ؟ »

قال « ولكن لا اعلم كيف يكون حالهم بعد ما بلغني من استفحال اصحاب المطامع حتى نكثوا البيعة ولا ندري ما يكون من حال بغداد فاذا رأى امير المؤمنين ان يستقدم

اعله اليه فقل .. »

فقال « اصبت ايها الطبيب اني فاعل ان شاء الله »

وبهزاد انما اشار بذلك على المامون رغبة في استقدام ميمونة ونجاتها من اعدائها ولم يكن سلمان اخبره بشيء مما اصابها في بيت الامين

ثم استأنف الكلام قائلاً « وكيف فارقت ام حبيبة »

قال « فارقتها بصحة وعافية وهي مشتاقة الى ابيها »

فابتسم المامون عند ذكر ابنته لانه كان يحبها كثيراً ويعجب بذكائها وتعقلها مع صغر سنها وتحقق ان بقاء اهل بيته في بغداد بعد هذا الانقلاب لا يخلو من الخطر فعزم على استقدامهم فنظر عند ذلك الى الفضل وكان جالساً الى جانبه فقال « وكيف ترى الطالع اليوم هل يوافق ان نرسل فيه من يجمل الينا اهلنا ؟ »

فاستخرج الفضل من جيبه اسطرلاباً صغيراً من الذهب كان لايفارق جيبه واطل من بعض نوافذ القصر ونظر فيه وعاد فقال « ان الذهاب اليوم لا باس به يا سيدي واذا كان في الغد فانه افضل »

فامر المامون خادمه نوفلاً ان يسافر من الغد لاستقدام اهل بيته والتفت الى الفضل فقال « وبماذا نجيب الوفد ؟ »

قال « الرأي لامير المؤمنين واذا اذن بابداء رأيي فارى ان ترد الوفد خائباً فانك بين اخوالك امنع منه في بغداد بين رجاله وكلهم يداجونه رغبة في الدنيا .. والافضل ان تلاينه وتكتب اليه كتاباً رقيقاً لا تظهر فيه عزمك على مناوأته وتلطف في استعطافه فان ذلك اقرب الى الدهاء في السياسة »

فاستحسن المامون رأي الفضل وكتب الى اخيه الامين كتاباً هذا نصه « اما بعدفقد وصل كتاب امير المؤمنين وانما انا عامل من عماله وعون من اعوانه امرني الرشيد بلزوم الثغر ولعمري ان مقامي به ارد على امير المؤمنين واعظم غناء للمسلمين من الشخوص وان كنت مغتبطاً بقربه مسروراً بمشاهدة نعمة الله عنده فان رأى امير المؤمنين ان يقرني على عملي ويعفيني من الشخوص فعل ان شاء الله » ودفع الكتاب الى رئيس الوفد

ثم تحرك المامون فعلم اهل المجلس انه يبغي الانصراف فنهضوا واكثرهم رغبة في حل تلك الجلسة بهزاد لانه يجب ان يبلغ الفضل رأي والدته من امر البيعة لاحد العلويين على ان يجعل ذلك شرطاً من شروط نصرة المامون

فصبر بهزاد حتى رجع الفضل الى منزله فتعقبه وطلب الخلوة به فلما خلوا بدأ بهزاد في الثناء على ما ابداه الفضل من الرأي الصائب في تلك الجلسة ثم مدّ يده ودفع اليه كتاب سلمان وقال « اقرأ هذا الكتاب »

فقرأه ولم يأت على آخره حتى غاب عليه الضحك وقال « اذا صح ما يظنه سلمان وعهد الامين بقيادة جنده الى ابن ماهان كان ذلك تمة توفيقنا . وهذا ما كنت اتمناه واسعى فيه لان ابن ماهان فضلاً عن غروره وضعفه فقد تولى خراسان ايام الرشيد واساء السيرة في اهلها وظلمهم فعزله الرشيد لذلك ونفر اهل هذه البلاد منه وابغضوه (١) فاذا حاربوه انما يحاربونه وهم ناقمون عليه . وهو مع ذلك يظن اهل خراسان يحبونه لان بعضهم خدعوه بكتب بعثوا بها اليه يعدونه اذا هو جاءهم سلموا له وهذا ما كنت اتمناه منذ بدأ الخلاف بين الاخوين ولذلك قلت ان تعيين ابن ماهان لقيادة الجند تمة توفيقنا »

فقال بهزاد « ما ذا تعني بتوفيقنا يا مولاي ؟ »

قال « اعني ان ننتصر على الامين ونخلعه ونولي المامون مكانه »

قال « وما الفائدة لنا من ذلك أليس كلاهما عباسيًّا عربيًّا وكلاهما ابن الرشيد قاتل جعفر حفيد المنصور قاتل ابي مسلم ؟ »

قال « ولكن المامون ابن اختنا وعلى مذهب الشيعة مثلنا وهو صنيعتنا يعمل برأينا فيكون النفوذ لنا »

قال « هل تضمن انه يبقى على ولائنا ؟ واذا ضمنت ذلك فهل تضمن اذا مات ان يكون خليفته مثله ؟ فهل تامن لبني العباس بعد ما ظهر من غدرهم بنا وبغيرنا غير مرة ؟ »

وكان الفضل يسمع قوله وهو مطرق كانه افاق من رقاد فلما بلغ الى هنا رفع الفضل بصره اليه وقال « صدقت يا بهزاد ... وقد فهمت مرادك ... انك اصبت كبد الحقيقة ولا بد ان نتدارك ذلك من اليوم .. » وعاد الى الاطراق وهو يحك عثنونه ثم قال « ان الخلافة لا بد منها للسيادة وهي لا تكون الاّ في آل النبي من بني هاشم ... واقربهم مودة الينا العلويون ... وبين ظهرانينا منهم اليوم علي بن موسى الرضا من اعقاب الحسين بن علي بن ابي طالب وهو عاقل حكيم والمامون يحبه ويقدمه فساشترط على المامون من الآن ان يجعله ولي عهده فتنتقل الخلافة بعد موت المامون من العباسيين الى العلويين ... وهو تمام

(١) ابن الاثير ٩٦ ج ٦

الظفر » ولما قال ذلك اشرق وجهه وقال بهزاد « انه الرأي الصواب يا سيدي » ونهض للخروج فقال له الفضل « اذا اتاك مثل هذه الرسالة من سلمان اطلعني عليها »

رجع بهزاد الى منزل والدته وهو في قلق لغياب ميمونة ولبث يتوقع مجيء بيت المامون بفارغ الصبر لاعتقاده انها معهم

الفصل الثامن والخمسون

حملة ابن ماهان

ودخلت سنة ١٩٥ هـ وقد جاهر الامين بخلع اخيه واسقط نقوداً كان قد ضربها المأمون بخراسان باسمه وليس عليها اسم الامين وامر فدعي لابنه موسى على المنابر ولقبه الناطق بالحق وقطع ذكر المامون وبايع لابنه الآخر عبد الله ولقبه القائم بالحق

اما المأمون ففاوض الفضل في التجنيد فاغتنم الفضل الفرصة واشترط عليه مبايعة علي الرضا زعيم الشيعة في خراسان بعده فعظم ذلك على المامون ولكنه لم ير بدًّا من ان يطاوعه فوعده اذا هو نجح في حربه وفاز على اخيه ونال الخلافة جعل علي الرضا ولي عهده . واجتهد ذو الرئاستين (الفضل) في التأهب للحرب التجنيد فاعد جنداً بقيادة طاهر بن الحسين الملقب «ذا اليمينين » وانفذه الى الري لملاقاة جند الامين اذا جاؤا يطلبون خراسان وكان طاهر قائداً باسلاً مع صغر سنه بالنظر الى ابن ماهان

اما بهزاد فقد كان في اثناء ذلك يترقب رجوع بيت المامون وورود الخبر من سلمان وعرض عليه الفضل ان يتولى قيادة الجند فابى وبعد ان مل الانتظار جاءه كتاب من سلمان هذا نصه :

« لقد صدق ظني ونجح سعيي وقد تعين ابن ماهان رئيساً للجند الذاهب لمحاربتكم فاكتب هذا اليك والجند خارج من بغداد بقيادته وقد شيعه الامين نفسه . وذكر مشائخ بغداد انهم لم يروا عسكراً اكثر رجالاً واوفر كراعاً واتم عدة وسلاحاً من عسكره وهو يعتقد ان اهل خراسان يحبونه وانه جاءه منهم كتب يعدونه فيها بالطاعة اذا جاءهم . ولما علم ان طاهر بن الحسين رئيس جند المامون استخف به وقال انما طاهر شوكة من اغصاني وما مثل طاهر يتولى الجيوش ثم قال لاصحابه « ما بينكم وبين ان ينقصف انقصاف الشجر من الريح

العاصفة الا ان يبلغه عبورنا عقبة همذان فار السخال لا تقوى على النطاح والبغال لا صبر لها على لقاء الاسد وان اقام تعرّض لحد السيف واسنة الرماح واذا قار بنا الري ودنونا منهم فتّ ذلك في اعضادهم » فصدق الامين قوله فولاه امرة الجند واقطعه كور الجبل كلها وولاه حربها وخراجها واعطاه الاموال وحكمه في الخزائن وجهز معه خمسين الف فارس وكتب الى ابي دلف العجلي وهلال الحضرمي بالانضمام اليه وامده بالاموال والرجال شيئاً بعد شيء وقد خرج ابن ماهان بحملته من هنا والناس يتوهمون انه ظافر لا محالة لكبر سنه . ولما ذهب لوداع زبيدة ام الامين على جاري العادة كان همها وصايته ان يرفق بالمامون اذا قبض عليه فقالت له « يا علي ان امير المؤمنين وان كان ولدي واليه انتهت شفقتي فاني على عبدالله (المأمون) منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه واذى وانما ابني ملك نافس اخاه في سلطانه الكريم يأكل لحمه ويقيه غيره فاعرف لعبد الله حق ولادته واخوته ولا تجبهه بالكلام فانك لست بنظيره ولا تعسّره اقتسار العبيد ولا توهنه بقيدٍ ولا غل ولا تمنع عنه جارية ولا خادماً ولا تعنف عليه في السير ولا تساوه في المسير ولا تركب قبله وخذ بركابه وان شتمك فاحتمل منه » ثم دفعت اليه قيداً من فضة وقالت « ان صار اليك فقيده بهذا القيد » فقال لها سافعل مثل ما امرت واوصاه الامين ايضاً بمثل ذلك . وقد علمت ان مولانا المامون بعث في استقدام اهل بيته اليه ولا يلبثون ان يصلوا اليكم وانت تتوقع ان ترى ميمونة معهم فلا يشق عليك ان لا تراها فانها باقية هنا ولم اخبرك من قبل حتى لا اشغل بالك عليها . واما الآن فلا سبيل الى كتمان ذلك عنك لانك ستعلمه من دنانير او غيرها فاعلم ان ميمونة مقيمة في بيت الخليفة ولا خوف عليها وسبب مجيئها اليه طويل ستقصه عليك دنانير شفاهاً ولا يزعجك ذلك طالما كنت في منصبي فاني حريص على سلامتها والسلام » اه

فلما قرأ بهزاد الكتاب اسودت الدنيا في عينيه رغم ما حواه من الاخبار المبشرة بالنجاح بسبب ما جاش في صدره من عوامل الغيرة على ميمونة اذ تصور انها في بيت عدوه ونقم على سلمان لكتمان ذلك عنه ووقع في حيرة لا يدري ماذا يعمل ايخرج من مرو الشاهجان لملاقاة ابن ماهان في الري ام يمكث حتى تاتي دنانير ويستفهمها عن خبر ميمونة فغلب عليه هواه — والمحب مغلوب على امره — ومكث ينتظر مجيء اهل المامون ليطمئن على ميمونة قبل ذهابه للحرب . وعلمت والدته بذهاب الجند الى الري وعجبت لبقائه عندها فقالت له « ان الخنجر في هذا الصندوق ومتى انت ذاهب ؟ »

فخجل وتناول الصندوق وقال « اني ذاهب الساعة وقد جئت لوداعك فادعي لي »

فكشفت عن صدرها وولت وجهها الى السماء وبسطت ذراعيها وصاحت « ان الله عونك على القوم الظالمين الذين قتلوا جدك غدرا وسلبونا حقوقنا وحرمونا من ثمار اتعابنا » ونهضت حتى ضمت بهزاد الى صدرها بحرارة وقبلت عنقه وطال عناقها له ثم احس بماء سخن ينحدر على عنقه ونفس حار يهب حوله فعلم ان والدته تبكي فاثر فيه ذلك كثيراً وكاد يبكي معها ولكنه تجلد وقال « لماذا تبكين يا أماه »

فرفعت راسها عنه وقد تكسرت اهدابها من البكاء وبان الحزن والكآبة في وجهها وقالت « ابكي يا ولدي لاني لا ادري هل اراك ثانية »

قال « ارجو ان أعود سالماً ظافراً وأراك في صحة وعافية وتفرحي بما اصبناه من الانتقام لجدي »

قال ذلك وقبل يديها وما بين ثديها وتناول الصندوق فاخرج الخنجر منه فتقلده ولبس ثياب السفر والتفّ بالعباءة فوق القباء والسراويل وتلثم بالكوفية فوق القلنسوة وجيء اليه بفرسهِ فركبه وأراد ان يأخذ الصندوق معه فامسكت به أمه وقالت « دع هذا الصندوق هنا وفيه رأسان عزيزان فاما ان تشفعها برأس او غير رأس من رؤوس اعدائنا قتلة جدك او ان يبقى الرأسان هنا فنستأنف البكاء عليهما حتى نموت »

فاثر قولها في نفسه وقال « بل ارجو ان لا تستأنفوا البكاء يا أماه » وترك الصندوق عندها وحول شكيمة جواده ومضى ولم يسر مسافة حتى انتبه لنفسه ورأى انه سيق الى ذلك الرحيل خجلاً من والدته وقلبه لا يطاوعه على ترك مرو قبل مشاهدة دنانير واستطلاع حال ميمونة ونقم على سلمان لانه لم يبسط خبرها في كتابه

ظل بهزاد راكباً وهو يسير في اسواق مرو والجواد دليله حتى خرج من المدينة فلما صار خارجها اصبح يعلل نفسه في ملاقاة اهل بيت المأمون قادمين بقافلتهم في اثناء طريقه لان نفسه لم تطاوعه على الرجوع الى مرو بعد ان ودع والدته واخبرها انه مسافر

الفصل التاسع والخمسون

حديث دنانير

قضى في طريقه اياماً وعيناه شائعتان الى الافق وكلما رأى قافلة او فارساً او جماعة ظن بيت المأمون قادمين . وما زال في ذلك حتى اصبح على بضع مراحل من مدينة الري حيث يقيم عسكر طاهر بن الحسين . واصبح ذات يوم وهو على مقربة من قافلة عرف عن بعد انها تحمل نساء من اهل البيوتات لما فيها من الهوادج واحمال الثياب والخيام ومن في خدمتها من الغلمان والعبيد فدنا منها وسأل مقدمها فاخبره انها تحمل بعض اهل المأمون فطلب مشاهدة دنانير فاخذوه اليها وهم يخافونه على ان بعض الغلمان عرفوه فدلوه على هودج دنانير فلما رأته امرت القوم في اناخة الاحمال قليلاً فاناخوها وترجل بهزاد واخذ في الاستفهام عن ميمونة فقال « كتب اليّ سلمان ان ميمونة في بيت الخليفة فما الذي ذهب بها الى هناك »

فقصت عليه خبرها كما وقع تماماً منذ جاءها الشاكري الى ان عادت هي وزينب من عند الامين خائبتين . . »

فقال « وماذا جرى لها بعدئذٍ ؟ »

قالت « لا بأس عليها في بيت الخليفة فقد وعد الامين ابنة اخيه ان لا يسمح بسوء يصيبها واظن سلمان خادمك حريصاً على راحتها ولا بد انه يتعهدها »

فظنها بهزاد تعرف اين هو سلمان فقال « وهل تعلمين اين هو سلمان »

قالت « لا ادري من امر هذا الرجل شيئاً . . وربما غاب اشهراً ثم يظهر بغتة وقد رايته قبل سفرنا واوصاني ان اطمئنك عن ميمونة ولعله كتب اليك فوصل كتابه قبلنا لان الكتاب يرسل على مهين ونحن نسير بالاحمال والاثقال »

فلم ير بهزاد بدًّا من سرعة المسير الى بغداد للبحث عن ميمونة ولكنه تذكر مهمته والحرب فقال « وهل رايتم جنود الامين »

قالت « رايناها ورافقناها معظم الطريق »

قال « واين هي الآن ؟ »

قالت « هي على عشرة فراسخ من الري ويبلغني ان قائدها ابن ماهان مغرور بنفسه ومعتز بكثرة جنده واذا كان ما يبلغني صحيحاً كان الخوف على طاهر شديداً »

قال « وما ذلك »

قالت « يبلغني ان جند ابن ماهان يزيد على ٥٠,٠٠٠ مقاتل ولا يزيد جند طاهر على ٤,٠٠٠ »

فاطرق بهزاد ثم قال « وليست الغلبة للكثرة وانما هي للشجاعة والصبر »

قالت « ان الغلبة للشجاعة ولكن اربعة آلاف كيف يقفون امام خمسين الفاً وعلمت ايضاً ان طاهراً خرج بجنده القليل من مدينة الري وعسكر على خمسة فراسخ منها . ولو بقي في المدينة لكان له في حصونها ما يعصمه من الهزيمة

قال « قد احسن ابن الحسين لانه يخاف اهل الري اذا انهزم مثل خوفه جنود الامين . واذا احسن الراي بادر الى الحرب قبل ان يعرف عدوُّه قلة جنده »

فقالت « ويظهر انه عازم على ذلك وكنت احسب عمله خطأ فلم اصدق الخبر عنه وذلك ان بعض اصحاب طاهر قال له « ان جندك القليل قد هابوا هذا الجيش الكثير فلو اخرت القتال الى ان يشامهم اصحابك ويأنسوا بهم ويعرفوا وجه المأخذ في قتالهم » فقال اني لا اوتى من قلة تجربة وحزم ان اصحابي قليل والقوم عظيم سوادهم كثير عددهم فان اخرت القتال اطلعوا على قلتنا واستمالوا من معي برغبة ورهبة فيخذلني اهل الصبر والحفاظ ولكني ألفُّ الرجال بالرجال واقحم الخيل على الخيل واعتمد على الطاعة والوفاء واصبر صبر محتسب للخير حريص على الفوز بالشهادة فان نصرنا الله فذلك الذي نريده ونرجوه وان تكن الاخرى فلست باول من قاتل وقتل وما عند الله اجزل وافضل »

فاعجب بهزاد برسالة طاهر وحزمه واحب الفراغ من الحديث فقال « فالآن انتم ذاهبون الى مرو .. »

قالت « نعم .. وانت ؟ »

قال « اني سائر الى الري ثم الى بغداد .. اين ام حبيبة ؟ »

قالت « في هودجها هل تريد ان تراها »

قال « كنت اود ذلك لولا العجلة اهديها سلامي واسمحي لي بالانصراف »

قال ذلك وركب فرسه وودعها وانطلق يتنازعه عاملان — يدعوه الواجب الى

نصرة طاهر في حرب ابن ماهان ويستحثه قلبه على السعي في انفاذ حبيبته من بين يدي اعدائه وقد زاد رغبة في ذلك بعد ان فهم من خلال حديث دنانير ان السبب في انتقال ميمونة الى بيت الامين رغبة ابن الفضل في التزوج بها — وكيف يصبر على ذلك وان اكدت له دنانير ان الرجل لم يبق له سبيل اليها طالما كانت في بيت الامين ولكن الحب كثير المخاوف سيء الظن

الفصل الستون

ساحة الحرب

ما زال سائراً على فرسه وقد التف بالعباءة وتلثم بالكوفية وتقلد الخنجر تحت العباءة فضلاً عن السيف ومرّ بالري في الضحى وتأكد من احاديث القوم ان طاهراً ينوي المبادرة الى القتال قبل ان يكتشف عدوه على قلة رجاله • ولم يسر طويلاً حتى سمع قرع الطبول للحرب وقد علت الضوضاء وتصاعد الغبار فصعد الى اكمة اشرف منها على سهل فرأى الجيشين قد تأهبا للقتال والفرق بينهما كبير فاوجس خيفة على جند طاهر وصمم على ان لا يبرح المكان حتى يرى النصر لجند المأمون ولو كلفه ذلك حياته وكان ابن ماهان قد عبأ جنده ميمنة وميسرة وقلباً وعبأ عشر رايات مع كل راية مائة رجل وقدمها راية راية وجعل بين كل رايتين غلوة سهم وامر امراءها اذا قاتلت الراية الاولى وطال قتالهم ان تتقدم التي تليها وتتأخر هي حتى تستريح ووقف ابن ماهان نفسه مع شجعان اصحابه

اما طاهر فانه عبأ اصحابه كراديس كل كردوس كتيبة بصفوفها وكردوس طاهر في الوسط ومشى بجنده على هذه الصورة وهو يحرضهم على القتال والصبر ولحظ بهزاد ان جماعة من رجال طاهر نزعوا الى ابن ماهان نشق ذلك عليه ولكنه لو علم سوء تدبير ابن ماهان وانه بدلاً من ان يكرم اولئك الفارين ليرغب غيرهم في المسير اليه امر بجلدهم واهانتهم وتذييهم مما اغضب الباقين عليه • وظل بهزاد واقفاً وبيناه شائعتان وقلبه يخفق رغبة في الاشتراك في تلك المعركة ولكنه لبث يترقب الفرصة المناسبة

وبهزاد واقف على تلك الصورة اذا بطاهر بن الحسين على فرسه قد خرج من جنده حتى اشرف على جند ابن ماهان وبيده رمح قد أشرعه وفي رأسه رقٌّ كبير علم من شكله انهُ صورة البيعة التي أعطيت للمأمون. فوقف طاهر بين الصفين وطلب الامان من ابن ماهان حتى يتكلم فأمنهُ فرفع الرمح بيده والبيعة معلقة بهِ وقال «ألا تتقي الله عزَّ وجل اليس هذه نسخة البيعة التي اخذتها انت خاصة؟ اتق الله فقد بلغت باب قبرك»

فغضب ابن ماهان لهذه الاهانة وامر بالقبض على طاهر فلم يستطع احد ذلك. ولم يسمع بهزاد شيئاً من كلام طاهر لبعده ولكنه فهم فحواه. وما عتم ان راى الجيشين يتحركان للالتحام فهجمت ميمنة ابن ماهان على ميسرة طاهر فانهزمت هذه هزيمة منكرة وفعلت ميسرة ابن ماهان مثل هذا الفعل على ميمنة طاهر فازالوها فخاف بهزاد وتحركت حميتهُ واوشك ان يسوق جواده الى وسط المعركة لينصر طاهراً ولكنهُ تجلد ليرى لهُ مدخلاً نافعاً. وما فتئ يستجمع الهاربين ويردهم ويحرضهم على الرجوع وهو يجول على جواده ملثماً ويخاطب الفارين بالفارسية بكلام محمس ويعيرهم بالفرار ويحقر ابن ماهان ورجاله في اعينهم فكان لكلامه وقع شديد على نفوسهم فأخذوا يرتدون. وكان طاهر من الجهة الاخرى يحرضهم على الثبات والصبر فصبروا واجتمعت قلوبهم وحملوا على عدوهم حملة شديدة من جهة القلب فهزموهم واكثروا فيهم القتل ورجعت الرايات بعضها على بعض فانتقضت ميمنة ابن ماهان وكانت ميمنة طاهر وميسرته قد تشددتا من كلام بهزاد وعادتا الى المعركة فتشدد قلب طاهر وقوي جنده كأن بهزاد بث فيهم روحاً جديدة فتقهقر جند ابن ماهان تقهقراً قبيحاً

فلما رأى ابن ماهان تقهقر جنده اخذه الرعب وخاف الفشل فنهض بنفسهِ واقبل يحرض رجاله على الثبات ويعدهم بالمال ويقبح عمل طاهر ورجاله. فرأى بهزاد الفرصة قد آنت للعمل وان هذا الانكسار لا يكون قاضياً بانا الا اذا قتل القائد الكبير فكرَّ بفرسه كالصاعقة وبده على خنجره لا يبالي بما يتساقط حولهُ من النبال او يتكسَّر من الحراب حتى دنا من ابن ماهان وصاح فيهِ «قف أيها القائد ولا تقل اني اخذتك غدراً».

فتحوَّل ابن ماهان نحو بهزاد ولم يعرفه من تحت اللثام لكنهُ استل سيفهُ وضربه فخلا بهزاد من الضربة واستل خنجره كالبرق الخاطف وطعنهُ في صدره فخرَّ قتيلاً. ورجع بهزاد من المعركة وقد اكتفى بما فعلهُ ولم يعد يراه احدٌ. وشاع في المعسكر ان ابن ماهان قتلهُ احد رجال طاهر بسهم ثم احتزَّ بعضهم رأسهُ وحملهُ الى طاهر وشدت يداه الى رجليه كما يفعلون بالدواب وحمل على خشبة الى طاهر فامر به فالقي في بئر. واعتق طاهر من كان عنده

من غلمانه شكرًا لله تعالى وتمت الهزيمة على جند الامين و وضع أصحاب طاهر فيهم السيوف وتبعوهم فرسخين واقعوهم فيهما اثني عشرة مرة في كل ذلك ينهزم عسكر الامين واصحاب طاهر يقتلون و يأسرون حتى حال الليل بينهم وغنموا غنيمة عظيمة . ونادى طاهر « من القى سلاحه فهو آمن » فطرحوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم ورجع طاهر الى الري وكتب الى المأمون وذي الرياستين « بسم الله الرحمن الرحيم كتابي الى أمير المؤمنين ورأس علي بن عيسى ابن ماهان بين يدي وخاتمه في اصبعي وجنده مصرفون تحت أمري والسلام » فورد الكتاب مع البريد في ثلاثة أيام و بينهما نحو من خمسين ومائتي فرسخ فدخل ذو الرئاستين على المأمون فهنأه بالفتح وأمر الناس فدخلوا وسلموا عليه بالخلافة ثم وصل الرأس بعد الكتاب بيومين فطيف به في خراسان

الفصل الحادي والستون

موكب زبيدة

ولنعد الى ميمونة فقد تركناها في بيت الامين ببغداد كانها على مقالي الجمر وحيدة غريبة لم ترَ سلمان ولا عرفت مقره حتى ظنته مات او لحق ببهزاد واشتاقت الى جدتها واستوحشت لبعدها وهي لا تعرف مكانها فكانت تقضي نهارها منفردة تتظاهر بانحراف في صحتها او دوار في رأسها فاذا خلت بنفسها استخرجت كتاب حبيبها وقبلته وكررت قراءته استئناساً بصاحبه . وكلما كررت ما قاله من عبارات النقمة على العباسيين وتهديده اياهم بالانتقام يختلج قلبها في صدرها حذرًا من وقوع ذلك الكتاب في يد بعض اعدائها ولكنها كانت حريصة على اخفائه لا تثق بأحد ممن حولها من الجواري اوالوصائف . ولم تكن تثق بغير فريدة قهرمانة القصر لان دنانير قد اوصتها بها وهي من صديقات دنانير المعجبين بتعقلها وحكمتها . فكانت ميمونة ترتاح الى فريدة ولكنها تخافها على سرّها لعلمها بتفشي الجاسوسية فلم تطلعها على شيء من امر الكتاب او بهزاد . على انها مع ذلك لم تعد تسمع شيئًا عن بهزاد ولا سبيل الى اخباره الا على يد سلمان وهذا لم يعد يظهر لها ولا هي تعلم انه في ذلك القصر على قاب قوسين منها وانه اختفى عنها لغرض في نفسه

قضت في ذلك اياماً لا تدري ما يصير اليهِ امرها ولا تبالي بما تراه في جواري القصر ونسائه من الاشتغال باللهو والضحك او سماع الغناء او الضرب بالآلات او غير ذلك . فاذا رأتهم في مجلس انس انفردت في غرفتها واستخرجت كتاب بهزاد وأخذت تقرأه فاذا سمعت وقع خطوات او صوت متكلم اخفت الكتاب في جيبها . واتفق مرة انها احست بالوحشة وارادت الاستئناس بذلك الكتاب فارادت تناوله من جيبها فلم تجده فاحست كأن قلبها سقط بين قدميها واعادت البحث جيداً فلم تقف لهُ على اثر فخافت خوفاً شديداً وزادت وحشتها من الانفراد هناك واحستْ بافتقارها الى رفيق يؤنسها فلم تجد خيراً من ان تستدعي جدتها اليها فكتبت الى دنانير بطاقة تشكو فيها استيحاشها وتسأل عن جدتها وتوسلت الى القهرمانة في ايصال تلك البطاقة الى دنانير في قصر المأمون وكانت فريدة تتمنى القيام بخدمة وفاء لحق دنانير فاسرعت في ارسال البطاقة سرًّا

فلما وصلت البطاقة الى دنانير اهتمت بها كثيراً لانها تحب ميمونة وتحب لها الراحة فسعت في ارسال جدتها اليها بعد ان اطلعتها على بطاقتها فقالت عبادة « ارسليني اليها ودعيني اموت عندها وكنت احسبها يطلق سراحها في بضعة ايام فاذا هي باقية الى اجل غير مسمى »

فقالت دنانير « هل تذهبين اليها متنكرة ؟ »

قالت « اخاف اذا عرفوني ان يزيدوا التضييق على ميمونة »

فقالت « ارسلك الى صديقتي فريدة واخبرها انك مربية ميمونة واوصيها ان تقيمك معها ولا أظنها الاَّ فاعلة »

فأتت عبادة على غيرتها ولبست ثيابها وودعتها وركبت حماراً نحو مدينة المنصور والرسول يسير معها حتى اتيا قصر المنصور فدفع الرسول كتاب دنانير الى القهرمانة فادخلت عبادة الى القصر ولم تخف عليها حقيقة حالها كما انها لم تكن تجهل من هي ميمونة لكنها تجاهلت في الحالين رغبة في اخفاء ذلك عن سائر اهل القصر لانها كانت من جملة الذين غمرتهم نعم البرامكة وحُملوا على كتمان شكرهم . ولا تسل عن سرور ميمونة بجدتها حتى اصبحت لا يهمُّها احتباسها هناك اذا طال . ولم تجد بدًّا من اطلاعها على ما دار بينها وبين بهزاد وما تبادلاه من عواطف المحبة حتى بلغت الى الكتاب فاخبرتها بضياعه ولم تكن عبادة غافلة عما بين الحبيبين ولكنها كانت تتجاهل احياناً وقد ساءها جدًّا ضياع كتاب بهزاد في ذلك القصر واصبحت تخاف عاقبة ضياعه

اما سلمان فكان في اثناء ذلك يسعى في اغراء الامين على خلع اخيهِ بواسطة الفضل ابن الربيع وابن ماهان . فالح الفضل على الامين بخلعهِ خدمة لمصلحة نفسهِ لانهُ كان يخاف انتقام المامون منهُ اذا افضت الخلافة اليهِ . وكان الامين يتردد في الامر ان لم يكن خوفاً من العواقب فحفظاً للعهد او عملاً برابطة الاخاء . فلما سمع مشورة الفضل مال الى العمل بها وبقي عليهِ ان يشاور والدته زبيدة لانهُ كان شديد الاعتقاد بسداد رأيها وهي تقيم يومئذ في قصرها دار القرار بقرب قصر الخلد فتردد بين ان يركب اليها او يستقدمها اليه في قصر المنصور

فكر في ذلك حيناً ثم غلب عليه اللهو فاشتغل بصيد السمك من بركة كبيرة في حديقة القصر فيها سمك مجلوب اليها فحمل قصبة فيها صنارة وجعل يصطاد السمك من تلك البركة وحولهُ جماعات من الوصفاء الخصيان بالبسة النساء يعدون بين يديهِ في تهيئة الصنارة او تنفير السمك من بعض اطراف البركة الى حيث التقى صنارته وبعضهم يحملون شباكاً وآخرون يعدّون القصب او الصنانير او غير ذلك وهو مشتغل بلهوه معجب بنشاطه يداعب الوصفاء اظهاراً لقوة عضلهِ فيلتقط احدهم بيده ويرفعه حتى يلقيه في الماء فيضحك الباقون منهُ ويطرون قوة امير المؤمنين ويتعاجزون عن الاتيان بمثلها وبالحقيقة ان الامين كان قوي البدن كثيراً حتى ذكروا انهُ صارع الاسد وصرعهُ

وهو في لهوه جاءه بعض الغلمان يقول « ان موكب مولاتنا والدة امير المؤمنين قادم » فسرَّه قدومها وتذكر رغبته في استشارتها فأمر باعداد ما يلزم لاستقبالها فأخذ قيّم القصر وقيّمته في ترتيب الوصائف والوصفاء صفوفاً وفي جملتهم فرقة من الجواري المقدودات الحسان كانت والدتهُ زبيدة قد اهدتهنَّ اليهِ لما رأت اشتغاله بالخدم والغلمان عن النساء فاتخذت هؤلاء الجواري والبستهن لباس الغلمان فعممت رؤوسهن وجعلت لهنَّ الطرر والاصداغ والاقفية والبستهن الاقبية والقراطق والمناطق فبانت قدودهن وبرزت اردافهن وبعثت بهن اليهِ فاختلفن بين يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبهُ وابرزهن للناس[1] من الخاصة والعامة فقلده بعضهم في ذلك . فلما سمع بقدوم والدته في ذلك اليوم علم انهُ اذا لاقاها بصفوف بينها صف من اولئك الجواري تسرَّ منهُ فأمر القيم بترتيب الغلمان صفوفاً يرأسها كوثر الذي اشتهر بافتتانهِ به[2] فصفت فرق الخصيان والجواري فضلاً عن الغلمان الجرادية والحبشان الغرابية وكل فرقة بلبس خاص والوان خاصة ومن اشكال

(١) المسعودي ج ٢ (٢) ابن الاثير ج ٦

الالبسة القصير والطويل والموشي والمطرز بين احمر وازرق وسماوي ووردي واصفر وفيهم الغلمان بألبسة النساء والنساء بألبسة الغلمان يتخللهم العوادون واصحاب الطنابير والمزاهر

فاصطف الخدم على هذه الصورة من باب القاعة الى باب القصر الخارجي صفوفاً و بين يدي الصفوف غلمان بعضهم يحرق البخور وآخرون يحملون الازهار وآخرون ينشدون الاشعار ومشى الامين بين الصفين لاستقبال والدته الى باب القصر . وكانت في قبة من خشب الصندل منزلة بالفضة والابنوس عليها ستائر من الوشي معلقة بكلاليب الذهب والفضة . والقبة قائمة على هودج يحمله بغلان عليهما سرجان من الفضة يقودهما غلمان عليهم اقبية من الديباج المزركش وقد نقشت عليها شارة الدولة لانهم من الجند . وفاحت رائحة المسك عن بعد

فلما وقف ذلك الهودج بباب القصر تنحّى الوقوف الأكبير الخصيان فاعان السيدة زبيدة في نزولها فتقدم الامين وقبل ما بين ثديها فقبلت رأسه ومشت بخفين مرصعين بالجوهر [1] وعلى رأسها نقاب محوك بالذهب في حاشيته صور مرصعة بالحجارة الكريمة ويلوح من خلال النقاب عصابتها المرصعة وعقود الجوهر في عنقها والقراطق في اذنيها . وعلى كتفيها مطرف ذهبي اللون التفت به فغطى منكبيها وجنبيها وظهر سائر ثوبها تحت ذلك من الحرير الوردي يغطي قدميها من الخلف ولا يغطيهما من الامام لتظهر خفافها المرصعة . وهي اول من رصع الخفاف في الاسلام . على ان من يلقى زبيدة لايشغله لباسها الفاخر الثمين عما في محياها من الجمال الجاذب وما يتجلى فوق ذلك من ملامح العظمة ودلائل الابهة والجلال

ولم تطأ قدماها باب القصر حتى انتشر خبر قدومها فبلغ عبادة فارتعدت فرائصها وخفق قلبها واحبت الانزواء لئلا يظهر ذلك عليها . اما ميمونة فكانت كثيرة الشوق لمشاهدة موكب ام الخليفة وقد طالما سمعت عنها وعن عظمتها فاطلت في جملة المطلين من كوى القصر خفية فاعجبت بجمال تلك المرأة وهابت جلالها

(١) الاغاني

الفصل الثاني والستون

خلع المامون

ظل الامين ووالدته سائرين الى قاعة خصوصية عملاً باشارتها لانها تحبُّ مخاطبة ابنها في شأن خاص فسرَّه هذا الطلب لانه يحب مشاورتها ايضاً وقبل جلوسها جاءت المواشط فنزعن عنها بعض ما يثقلها من الالبسة . ووقفت بعض الوصائف والغلمان يروحن بالمذاب بين يديها واشتغل آخرون باعداد الشراب او الطعام اما هي فقالت « احب أن اراك يا محمد على انفراد ولا ارب لي في الطعام »

فاشار الامين فخرج الجميع ولم يبق الاَّ هو ووالدته فجلست على السرير واشارت الى محمد ان يجلس بجانبها فجلس وهو يقول « ما اسعد هذه الساعة يا اماه ... كانك جئت على موعد فقد كنت في هذا الصباح اهمُّ بالذهاب اليك او استدعائك اليَّ لاستشيرك في بعض الشؤون فاذا انت قادمة اليَّ من تلقاء نفسك فتفاءلتُ بذلك خيراً »

فابتسمت مسايرة لابنها والغضب بادٍ في عينيها وقالت « خيراً ان شاء الله ... ولكنني جئتك لامر آخر يهمني و يهمك .. »

فاهتم الامين بقولها وقال « وما ذلك يا اماه؟ »

قالت « الا تزال تلك البقية الضالة عندك ؟ »

فلم يفهم مرادها واستفهمها قائلاً « ومن تعنين ؟ »

قالت « اعني ابنة عدونا الذي تعمَّد خلعك من ولاية العهد وأغرى اباك الرشيد على مبايعة ابن مراجل »

فادرك انها تعني ميمونة بنت جعفر فقال « نعم يا سيدتي لا تزال بين جواري القصر »

قالت « وكيف ابقيتها ولم تخف شرها ؟»

قال « لاني وجدتها يتيمة مسكينة لا ضرر منها وقد اوصتني ابنة اخي بها خيراً بعد ان يئستْ من اطلاق سبيلها فابقيتها هنا التقاء ما ربما نخشاه منها »

قالت « يتيمة مسكينة ؟ تباً لها من خائنة غادرة ... واغرب من ذلك ان تقبل شفاعة ابنة اخيك بها واخوك اشد عداء لك من اعدائك ... ألم يستعن عليك بالخراسانيين؟ واذا اتيح له ان يخلعك عن هذا العرش ألا تظنه يفعل ؟ ومن اوجد هذا الغرور في نفسه

أليس جعفر بن يحيى والد هذه الفتاة؟ وكان ابوك رحمه الله أدرى منك باقدار الرجال فقتله شر قتلة ولو لم يبادر الى قتله ما جلست انت هذا المجلس ... وتقول بعد ذلك انها يتيمة مسكينة وان ابنة اخيك اوصتك بها خيراً ؟ ان اخاك غلب فيه دم الفرس على دم الهاشميين فاخذ من امه مراجل اكثر مما اخذ من ابيه الرشيد ولذلك رأيته يستعين باخواله علينا »

قالت ذلك وقد حمي غضبها وامتقع لونها وذهب احمرار شفتيها وتورد وجنتيها وظهر الغضب في عينيها ووافق ذلك ما يجول في خاطره من خلع اخيه فاراد ان يجعل ذلك برأيها فقال « ألم يكن والدي بايع لي ولاخي عبد الله بالخلافة بعهد علقه بالكعبة ؟... »

فقطعت كلامه وقالت وصوتها مختنق من الحنق « لا قيمة لذلك العهد لانه كتب باغراء ذلك الوزير الخائن رغبة منه في اخراج الخلافة من بني هاشم على يد اخيك هذا وهل يصلح ابناء الجواري للخلافة اذا وجد ابناء الاحرار .. ايقاس ابن الجارية مراجل بابن زبيدة بنت جعفر ؟ ... أتعلم من هي مراجل وكيف اتصلت بابيك حتى ولدت عبد الله ؟ »

قال « لا »

قالت « انا اقص عليك خبرها .. كانت مراجل هذه من جملة جواري مع مارية وفاردة وغيرهما فرأيت والدك رحمه الله مشتغلاً عني بزيارة مغنية كانت ليحيى وزيره اسمها دنانير كان يقضي اكثر اوقاته عندها فشكوته الى اعمامه فاشاروا عليّ ان اشغله عنها بجوار اهديهن اليه فاهديته عشر جوار منهن مراجل [1] هذه وهي فارسية فولدت له عبد الله فرباه جعفر من صغره على حب الفرس حتى جرى ما تعلمه . فكيف يكون هو في مقامك .. ؟ وهذا العهد الذي اشرت اليه في الكعبة ابعث من ياتي به ومزقه لانه كتب خداعاً »

فسري عن محمد وقال « اذاً انت ترين ان اخلع اخي عبد الله من ولاية العهد ؟ »

قالت « أولم تخلعه بعد ؟ اخلعه قبل ان يخلعك »

فاعتدل في مجلسه وقال « قد كنت عازماً على استشارتك في ذلك فوافق رأيك رأي وزيري الفضل »

قالت « اخلعه و بايع لابنك موسى وان كان صغيراً فتكون الخلافة اعرق في بني هاشم لانه لم يولد لبني العباس خليفة والداه هاشميان الا انت فاولادك اعرق في النسب الهاشمي من سائر العباسيين »

---

(١) الاغاني ج ١٦

فانبسطت نفس الامين وسكت وهو مطرق فابتدرته زبيدة قائلة « ولنعد الآن الى تلك الفتاة الخائنة فما اجدرك ان تقتلها وتتخلص منها »

قال « اقتلها ؟ واي ذنب اتت وما الذي نخافه من بقائها حية ؟ »

قالت « انك غافل يا محمد عما يجري حولك وقد شغلك اللهو عن دسائس المملقين .. اما انا فساهرة على مصلحتك اعلم ما يجري في قصرك وفي غرف منامك .. وقد قلت لك ان بقاء هذه الفتاة في قصرك اكثر خطراً عليك من بقاء ولاية العهد لاخيك .. اقتلها .. »

فاستغرب الامين تشديدها وهو لم ير في الفتاة ما يوجب ذلك فقال « لا شيء عليّ اذا قتلتها ومثلها مئات بل الوف في قصري ولكنني وعدت ام حبيبة باستبقائها و... »

فلم تتمالك زبيدة عند سماعها قوله عن النهوض غضباً وصاحت انك لاتزال ساذجاً تجوز عليك الالاعيب .. ولو كنت ذا دهاء لكان لك بتوسط بنت عبد الله ببقائها عندك ما يبعث على الشك فيها ... اعلم ان ميمونة هذه مخطوبة لاكبر اعداء العباسيين وبينها وبينه مكاتبة تشف عن تعمده الانتقام لابي مسلم الخراساني وجعفر بن يحيى وهو يعدّ العباسيين خائنين غادرين واذا لم تصدق قولي فاقرأ هذا الكتاب » قالت ذلك واستخرجت من جيبها لفافة فيها كتاب بهزاد وناولته الى الامين

فتناول الامين الكتاب وطفق يقرأه ولم يصل الى آخره حتى ارتجفت يداه وارتعشت انامله لما حواه من الطعن في العباسيين والنقمة عليهم وتهديدهم فنظر الى والدته وكانت قد قعدت واتكأت على الوسادة واخذ الغضب منها ماخذاً عظيماً فالتفتت اليه وقالت « أرأيت هذه اليتيمة المسكينة ؟ وهذا خطيبها يقول اننا غلبنا بالغدر والخيانة وانه سينتقم لوالدها وانه ذاهب الى خراسان لهذه الغاية فكيف تبقي هذه هنا في قصرك وبين جواريك تطلع على احوالك ومساعيك ألا يكون مكثها هنا خطراً على تدابيرك واسرارك ؟ »

فدهش الامين لسهر والدته على مصلحته وقال « كيف توصلت الى هذا الكتاب ومن اتاك به ؟ »

قالت « اتيت به من وسط قصرك لاني ساهرة وانت نائم ولا فائدة من الكلام ... »

فتحمس وقال « اني آمرٌ بالقائها في قاع دجلة الساعة »

قالت « أتلقيها في دجلة بلا سؤال ولا جواب ؟ »

قال « واتخلص منها »

قالت « ما ابسط قلبك ! .. ان مثل هذه قبل ان تقتلها يجب ان تستطلعها ما

تعلمه من احوال اعدائنا اذ لا يخلو ان تكون مطلعة على اسرارهم ومتى نلت مرادك منها اقتلها او اغرقها او كما تشاء »

قال « ادعوها اليك الساعة ونسألها معاً ؟ »

قالت « افعل »

فصفق فجاءه احد الغلمان فقال « اليَّ بالجارية ميمونة »

وكانت ميمونة منزوية مع جدتها في ابعد غرف القصر خوفاً من ان تراها زبيدة . وعبادة تتوسل الى الله ان ترجع زبيدة قبل ان تراها واذا بالغلام جاء يدعو ميمونة الى امير المؤمنين فلما سمعت عبادة قوله اسقط في يدها وتحققت ان زبيدة انت لتحرض ابنها على الايقاع بها بعد مقابلتها تلك فندمت على ذهابها اليها . ولم تجد ميمونة بدًّا من الطاعة فتبعت الغلام حتى اتى القاعة فدخل وقال « الجارية بالباب يا مولاي »

قال « تدخل »

فدخلت وهي مطرقة خجلاً وركبتاها تصطكان من الخوف فوقع نظرها على زبيدة وهي متكئة وقد زادها الغضب هيبة ورهبة والامين جالس بجانبها كانه بعض غلمانها فوقفت وحيت فابتدرها الامين قائلاً « تقدمي يا ميمونة »

فمشت نحوه وهي تنظر الى الارض وقد اخذتها الرعدة من الخوف فاذا هو يمدُّ يده وفيها الكتاب ويقول « اتعلمين لمن هذا الكتاب ؟ »

فلما وقع نظرها على الكتاب عرفته حالاً وايقنت بافتضاح سرّها فلم تعد يدها تطاوعها على استلامه من شدة الارتعاش فتناولته وانامله ترتعد فسقط من يدها فانحنت لالتقاطه عن البساط فسقطت واهنة القوى ولم تعد تستطيع الوقوف وانحدرت دموعها على خديها وحاولت التجاهل والتشاغل بمطالعة الكتاب فلم تستطع وغلب عليها البكاء فتراجعت عند قدمي الامين تقبلها وتبكي ولا تفوه بكلمة

فصاحت زبيدة فيها « ويلك مايبكيك ؟ اتظنين البكاء ينجيك . . من هو هذا بهزاد أليس حبيبك حامل سيف النقمة على العباسيين ؟ . » ثم استدركت انها يجب ان تحتال في كشف سرّها فعمدت الى الملاينة فقالت « ولكن لاتخافي انما ينجيك الصدق . . . قولي لنا اين هو حبيبك الآن وما الذي تعرفينه من احوال الخراسانيين فاذا صدقتنا اطلقنا سراحك وابقينا عليكِ والا فانكِ مقتولة »

فقالت وصوتها ينقطع من البكاء « ثقي ياسيدتي . . . اني لا اعلم شيئاً . . . غير مافي

هـذا الكتاب وقد تفهمين من تلاوته انني ... لم اكن اعرف هذا الشاب قبل هذا الكتاب . واقسم برأس امير المؤمنين اني لم اعد اعرف شيئاً عنه بعد تلاوته »

فضحكت زبيدة ضحك الاستخفاف وقالت « وتقسمين برأس امير المومنين ؟ »

قالت « أقسم به ... لاني صادقة في قسمي »

فقال الامين « اصدقينا يابنية ولا خوف عليك واذا لم تقولي الصدق اتينا برئيس المنجمين في هذه الساعة فيكشف مكنونات صدرك . فاذا اطلعنا على شيء تنكرينهُ كان جزاؤك العذاب الاليم »

قالت « الامر لامير المؤمنين وليس عندي غير الذي قلته »

الفصل الثالث والستون

المندل

فصفق الامين وامر الغلام ان يستدعي رئيس المنجمين فذهب الغلام وكانت ميمونة قد وقفت متادبة فامرها الامين بالجلوس فجلست ولم تكن تعلم ان رئيس المنجمين هو سلمان نفسه وكانت تظن سلمان هرب او مات لطول غيابه عنها . وبعد قليل اقبل الملفان سعدون بعمامته الكبيرة السوداء وجبته الطويلة وتحتها الثوب العسلي وقد تمنطق بزنار غرس فيه الدواة ولبس لحية كثيفة مسترسلة دبَّ فيها الشيب تتصل من الجانبين بسالفين كثيفين وغير ذلك من قيافة الحرانيين اهل الذمة وهي تخالف ماتعرفه ميمونة عن سلمان ولو خامرها شك فيه ربما عرفتهُ من عينيه وانفهِ

دخل سعدون وحياً ووقف متادباً وقد تابط الكتاب وعيناه تختلسان النظر الى اهل ذلك المجلس فرأى ميمونة وزبيدة وعرفهما ووقع بصره على كتاب بهزاد بين يدي الامين فعرفه حالاً لانه هو الذي حمله الى ميمونه فادرك لاول وهلة سبب طلبه وتجاهل . فامره الامين بالقعود بلا حجاب او ستر بينهما فقعد جاثياً وعيناه لا تحولان عن الارض فابتدره الامين قائلاً « دعوناك ياملفان سعدون نطلب اليك ان تستطلع لنا سرَّ هذه الجارية فقد سالناها فانكرت وهددناها باستطلاع سرّها على يدك ... فاصدقنا »

وكانت زبيدة جالسة تنظر الى المنجم ولا تتكلم ريثما ترى عمله . وكانت قليلة الايمان

بمقدرة المنجمين وانما رضيت باستدعاء المنجم ساعتئذ ارهاباً لميمونة لعلها تعترف بما عندها خوفاً من العقاب . اما سعدون فاستخرج كتابه والتمس ان يوتى اليه بكانون فيه نار من خشب الزيتون زعم ان المندل لايتم الا اذا كانت من ذلك الخشب وهو هين في بلاط الخلفاء فاتوه بالنار في شبه مبخرة من الفضة وضعوها على طبق بين يديه وهو يشتغل بالقراءة والتمتمة وسائر الحضور سكوت . ثم اخرج من جيبه قطعة بخور القاها في النار وطلب قدحاً فيه ماء فاتوه به فاخذه بيسراه بين الابهام والسبابة وتفرس في الماء حيناً ثم استاذن الخليفة في ميمونة ان تتقدم نحوه وتضع يدها على كتابه فتقدمت وهي ترتعد خوفاً ووضعت كفها على ذلك الكتاب . وتناول سعدون يدها الاخرى وقرأ اسارير ها ثم رفع يدها عن الكتاب واجلسها وفتح الكتاب وقرأ همساً وهو يبتسم ابتسام الفائز و يهز رأسه ثم نظر الى الامين قائلاً « ان لهذه الفتاة حديثاً طويلاً وان لها لشأناً »

فضحكت زبيدة استخفافاً بهذه النبوة لانها لا تدل على معرفة فادرك سعدون غرضها فنظر اليها وهو يحاشى التفرس في وجهها تأدباً وقال « لا أقول ذلك تعمية او ايهاماً ولكنني أعني انها ليست من عامة الناس بل هي من أصل عريق في الكرامة والوجاهة وان كانت اليوم في جملة الجواري »

فقطعت زبيدة كلامه قائلة « اذا كنت على ثقة مما تقول فانبئنا عن حقيقة حالها بصراحة .. »

قال « وأقول ذلك بوجودها ؟ »

قالت « قل »

فاعاد النظر الى القدح ثم نظر في وجهها وقال « انها بنت وزير كبير مات مقتولا »

فلما قال ذلك اقشعر بدن الفتاة وامتقع لونها والتفت الامين الى أمه لفتة ظافر بصدق ظنه فرآها لا تقل دهشة عنه ولكنها تجاهلت وقالت « ربما كنت مصيباً بما قلته » ومدت يدها الى كتاب بهزاد وقبضت عليه بكفها وقالت « وما الذي بيدي ؟ »

قال « كتاب »

فقهقهت وقالت « بورك بمهارتك .. ان الاطفال يعرفون ذلك ولكن اذا كنت رئيس المنجمين كما يسمونك قل ما هو محتوى هذا الكتاب »

قال « يسوءني يا سيدتي استخفافك بعلمي وقد يجدر بي بعد ما سمعتهُ ان اسكت عما اعلمه ولكنني أقول لك انك تقبضين على كتاب من نار بل النار اخف وطأة على

هذه اليد اللطيفة من فحوى هذا الكتاب .. ان بيدك كتاباً من رجل فارسي الى هذه الفتاة وفيه من نصرة الفرس والغض من مقام العباسيين ما يسوءك ويسوء مولاي أمير المؤمنين .. واذا لم يقنعك هذا الاجمال فصلته تفصيلاً — ان هذا العلم لم يكذبني من قبل ولا ادري اذا كان قد صدقني الآن »

فبغتت زبيدة ولم تعد تستطيع غير الاعجاب فقالت « صدقت ايها الملفان واذ قد علمت سر هذا الكتاب اعلمنا عن صاحبه اين هو الآن »

قال « هو بعيد يا سيدتي ... انه في خراسان »

قالت « وما علاقة هذه الفتاة به »

قال « انها علاقة قريبة العهد واذا ادّعت غير ذلك فانها كاذبة ... ولا يجوز ان تسأل عما حواه الكتاب من عبارات التهديد او الانتقام لانها كانت خالية الذهن منه حين وصوله اليها ثم لم تعد تعلم شيئاً عن صاحبه »

وكانت ميمونة اكثر استغراباً لما سمعته من الجميع لان الرجل قرأ ما في ضميرها ولو ارادت هي ان تعبر عن احساسها لم تستطع تبيانه بوضح من ذلك فاشرق وجهها وبانت الطمأنينة في محياها ونظرت الى الامين نظر الاسترحام وظلت ساكتة »

اما زبيدة فخفت نقمتها عن ميمونة وان كانت لا تزال تكرهها فقالت لسعدون « اتعتقد براءة هذه الجارية ؟ »

قال « هذا ما ظهر لي بالمندل وعهدي بهذا العلم ان يصدقني ولو سألت امير المؤمنين لأيّد قولي بما علمه بالاختبار »

فاشارت الى ميمونة ان تخرج فخرجت وهي لا تصدق انها نجت . ثم التفتت زبيدة الى الملفان سعدون وقالت « اني واثقة بعلمك ايها الملفان ولكن قلبي لا يزال واجساً من امرها »

قال « لانك تكرهينها ولا عجب فان والدها اساء اليك والى سيدي امير المؤمنين واذا شئت ان أعيد المندل في فرصة أخرى فعلت . واذا اذن أمير المؤمنين ان أجالسها مرة أخرى على انفراد زدته تفصيلاً عن احوالها »

فقال الامين « لك ذلك ايها الملفان » ونظر الى والدته وأشار اشارة فهمت غرضه منها وكان سعدون يتشاغل بجمع ما تفرق بين يديه من ورق كتابه استعداداً للخروج فابتدرته زبيدة قائلة « اما وقد بدا لنا منك هذا العلم الواسع في استطلاع الغيب فاخبرنا

عما يجول في خاطري وخاطر امير المؤمنين »

فادرك ان اهم ما يمكن ان يخطر لهما حينئذ المأمون واحزابه في خراسان فقال « يجول في خاطركما اشياء كثيرة اهمها يتعلق برجل في خراسان تحذرونه وهو يحذركم وقد تخافونه وهو اشد خوفاً منكم »

فوافق قوله ما في نفسها فقالت « صدقت .. وماذا ترى بعد ذلك »

فاعاد النظر في الكتاب طويلاً حتى ظهر الاهتمام في جبينه وتصبب العرق منه وقال « لا أرى مناصاً من تجريد السيوف »

قالت « ومن يجردها »

قال « انما يظفر السابق وعلم المستقبل عند الله »

فالتفتت الى الامين ولسان حالها يقول « ألم اقل لك بادر الى خلعه قبل ان يخلعك ؟ »

فقال الامين « قد أشار وزيرنا الفضل بخلع عبد الله فاذا لم يذعن حملنا عليه بالجيوش فهل نغلب ؟ »

فتناول الكتاب ثانية وقلب عدة صفحات ثم قرأ ونظر الى السماء من نافذة في تلك القاعة وأخرج قلماً من منطقته وغطهُ في المداد وكتب وحسب ثم قال « قلت لمولاي ان علم المستقبل لله وليس لي . ولكن يظهر لي من هذا الحساب ان الفئة التي فيها الفضل هي الغالبة باذن الله »

الفصل الرابع والستون

كشف السر

فتمكن اعتقاد الامين من صدق سياسة الخلع وعزم على خلع اخيه فاثنى على الملفان سعدون وامر له بجائزة فعلم انه قد آن خروجه فجمع اوراقه ودواته وخرج

ثم نهضت زبيدة للخروج فألبستها المواشط فالبسنها ما خلعتهُ عند وصولها ولما ودعت ابنها نصحت لهُ ان يخرج للاقامة في قصر الخلد قريباً منها فوعدها بذلك فعادت بموكبها الى دار القرار

واقرّ الامين بعد خروجها على خلع اخيه وتولية ابنه موسى وبعث الى خراسان بذلك كما تقدم ثم جند جنداً أراد ان يجعل الفضل قائداً عليه فرغبه في ابن ماهان ففعل وخرج الجند لمقاتلة طاهر بن الحسين في الري كما رأيت • وبعد ارسال الجند انتقل الامين الى قصر الخلد ونقل معهُ بطانته اما ميمونة وسعدون فابقاهما في قصر المنصور وامر بالاحتفاظ بها

وكانت ميمونة قد خرجت من حضرة الامين وهي ترقص فرحاً ودهشة حتى انت جدتها وكانت تنتظرها على مثل الجمر فقصت عليها ما جرى واثنت على مهارة رئيس المنجمين فاستغربت عبادة ما سمعته وقالت «جزاه الله خيراً ان الله قد سخره لانقاذنا من هذا الخطر العظيم ولولاه ما رضيت تلك الملكة الظالمة بغير قتالنا »

فقالت ميمونة « قد تخلى سلمان عنا فارسل الله لنا من يأخذ بيدنا انه سبحانه لا يترك المظلوم حتى ينصره »

ومكثتا في ذلك القصر بعد انتقال الامين الى قصر الخلد لا يعلمان شيئاً مما يجري من الاحوال السياسية وميمونة قد ذهبت تسليتها بذهاب كتاب بهزاد ولما طال غياب سلمان عنها كادت تنساه لولا ارتباط ذكره بذكر بهزاد • وكيف تنساه وهو خليفة بهزاد عليها وقد حمل اليها كتابه وكانت في شوق كثير لمعرفة مكان حبيبها لتطلعه على حالها لعله يسعى في انقاذها • وانى لها ذلك وهي محبوسة بين اربعة جدران لا تسمع خبراً ولا ترى رجلاً وكانت عبادة تحاول التخفيف عنها جهد طاقتها

وكانتا جالستين ذات اليوم فجاءتهما قهرمانة القصر تقول « ان رئيس المنجمين يطلب مشاهدة ميمونة » فبغتت الفتاة وصعد الدم الى وجهها وقالت « وما شأننا معه »

قالت « ان امير المؤمنين اوصى ان لا يؤذن لاحد بمشاهدتك غير رئيس المنجمين متى شاء ولا باس عليك منهُ »

فتحولت بغتتها الى سرور وقالت في نفسها اذا آنست منه لطفاً اسأله عن سلمان او بهزاد لعله يهديني الى مكانهما » فقالت للقهرمانة « هل هو آت الينا ام نحن نذهب اليه »

قالت « طلب ان يراك على انفراد في غرفته »

فاجفلت وقالت « انفرد به في غرفته ؟ وهو رجل غريب .. »

فقالت عبادة للقهرمانة « هل تأذنين ان اكون انا معها في تلك المقابلة »

قالت « حسناً »

فنهضتا وتنقبتا وارسلت معهما غلاماً اوصلهما الى غرفة الملفان سعدون في بعض اطراف القصر وقرع باب الحجرة وانبأ الملفان بوصول ميمونة ورجع . ففتح الملفان الباب وهو بقيافته المعهودة ورحب بالفتاة وجدتها وادخلهما الحجرة واقفل الباب وراءهما . فلما وجدت ميمونة نفسها في ذلك المكان استوحشت وتلفتت فلم تجد حولها الاَّ ادوات واشياء لا تفهم لها معنى من انابيب واقداح تختلفة الاشكال والالوان والواح عليها رسوم وخطوط بعضها يقرأ وبعضها طلاسم لا يقرأ . وكان قبل دخولها قد نزع جبته وبقي بالآزار (القفطان) العسلي وحوله الزنار وعلى رأسه عمامة صغيرة فاشار الى ميمونة وجدتها بالقعود على طنفسة بجانب طراحته فقعدتا وهما لا تتكلمان . . فقعد هو بين يديها وخاطب ميمونة قائلاً « هل تعلمين يا ميمونة اني انقذتك من القتل ؟ »

فدهشت لما سمعته يذكر اسمها وقالت « نعم يا سيدي واني لا انسى لك هذا الجميل جزاك الله خيراً »

قال « اني لا اكلفك على ذلك اجراً وانما اتقدم اليك ان تصدقيني في سؤال القيه عليك . . هل تفعلين ؟ »

قالت « نعم وهل استطيع غير ذلك وانت تكشف مكنونات القلوب »

قال « هل تحبين بهزاد كثيراً »

فتوردت وجنتاها فجأة وأطرقت حياء فابتدرها قائلاً « لا ينبغي ان تستحيي مني . . . قولي »

فتنهدت وظلت مطرقة ولم تجب فاجابت عبادة عنها « اظن رئيس المنجمين فهم جوابها بدون ان تنطق به »

فوجه خطابه الى العجوز وقال «وهل انتِ لا تزالين تعرفين الحب ودلائله رغم ما مرَّ بك من الاهوال ؟ »

فلم تستغرب عبادة اشارته الى حالها بعد ما بلغها من اعجازه في كشف الضمائر فسكتت فالتفت الى ميمونة ويده على لحيته يمشطها بانامله وقال « قد علمت انك تحبين بهزاد ولكن هل هو يحبك ؟ »

فرفعت كتفيها وهي مطرقة كانها تقول « لا اعلم »

فابتدرها قائلاً « لو كان يحبك لم يتركك في هذا الاسر ويذهب . . وربما بقيت فيهِ الى آخر حياتك . . فغيرة على راحتك قد دبرت لك طريقة للنجاة والسعادة فاذا

أطلعتني أفلحتِ »

فقالت « وما هي يا سيدي »

قال « اني اعرف شاباً هو خيرة شبان بغداد واكبر وجيه فيهم يحبك حباً مبرحاً وانت لاتحبينه » فوقف عن الكلام وتنحنح فادركت انه يشير الى ابن الفضل فلم تتمالك عن الاشمئزاز والتفتت الى جدتها كانها تكلفها ان تجيب عنها فهمت عبادة بالكلام فقطع سعدون كلامها قائلاً « انا اعرف الجواب ولكن رفضك لاينفعك لان الرجل صاحب النفوذ الاكبر واذا طلبك من امير المومنين دفعك اليه فالاحسن ان تقبلي به من تلقاء نفسك وهذه نصيحتي لك فان بهزاد بعيد ومن يدري هل ترينه بعد »

فضاق صدر ميمونة عند ذلك وانحبست عواطفها ولم تتمالك عن البكاء فنهضت عبادة وانحنت للملفان وقالت بصوت الاستغاثة « اما وقد اطلعت على سرنا وعرفت حقيقة حالنا فاتوسل اليك ان تكون عوناً لنا لاعلينا » وغصت بريقها

فاشار اليها ان تقعد وقال « ماذا تريدين ؟ »

قالت « ان الغلام الذي تشير اليه لا نصيب له عندنا وانت تعرف السبب .. والموت اهون علينا من اجابة طلبه .. وانما اتقدم اليك ان ترشدنا بعلمك الى امرٍ يهمنا »

قال « وما ذلك »

قالت « اضعنا عوناً كبيراً خلفه لنا بهزاد عند سفره وهو الذي اوصل كتابه الى ميمونة ثم لم نعد نراه ولا نعرف مكانه فهل تكشف لنا خبره بالمندل ؟ »

فضحك وقال « اظنك تبحثين عن سلمان »

قالت « نعم »

قال « ان الوزير سالني عنه ايضاً »

فقالت عبادة « هل هو في بغداد ؟ »

قال « نعم انه في هذا القصر »

فبغتت ميمونة وقالت « في هذا القصر ؟ »

قال « وفي هذه الغرفة »

واحست عبادة عند ذلك كانّ غشاوة انكشفت عن عينيها وتذكرت ميمونة صوت سلمان فصاحت « سلمان ! سلمان ! »

فقال « لا ترفعي صوتك اني سلمان نعم واني رئيس المنجمين »

فلم تستطع الامساك عن الضحك وبان البشر في وجهها وخفق قلبها واحست كانها لقيت حبيبها بهزاد لاستبشارها بالاطلاع على اخباره فلم تعد تعرف كيف تسال سلمان او تستفهمه وارادت التكلم فتلجلجت فسبقها هو الى الكلام قائلاً «ستلومينني على اختفائي كل هذه المدة ولكنني لم اختف الا رغبة في مصلحتك فلما رايت في الظهور منفعة لك ظهرت واظنني افدتك»

فقالت عبادة «انك انقذتنا من الموت جزاك الله خيراً و...»

وقطعت ميمونة كلام جدتها فقالت «واين بهزاد الآن؟»

قال «في بغداد او حولها»

فصاحت «في بغداد . ؟ الا يأتي الينا؟؟»

قال «وهل تظنين ظهوره سهلاً؟ انهُ لا يظهر الاَّ اذا آن الاوان .. ولكن احوال بغداد تغيرت منذ وطيء ترابها لان الاحزاب السرية عادت الى عملها برأيهِ فكثرت العثرات في طريق هذا الغلام القابض على قضيب الخلافة»

فقالت «بورك فيك ياسلمان.. يا لله ما اكرم نفسك.. بهزاد أتي من خراسان؟ هل رأيتهُ؟»

قال «نعم رأيتهُ وحادثتهُ»

قالت «اين شاهدته وكيف؟»

قال «لنا مكان نلتقي فيهِ لا يعرفهُ احدٌ سوانا»

قالت وقد اشرق وجهها «هو اذن هنا وسنراه؟ اي متى يكون ذلك؟»

قال «لكل شيء وقت لا تكوني لجوجة»

قالت «حسناً .. كما تشاء والآن ما الذي تنوي فعلهُ بنا»

قال «تبقيان كما كنتما وتكتمان ما رأيتما عن كل انسان حتى يأتي الوقت المناسب واظنكما تثقان بما اقولهُ»

فقالت عبادة «مضى علينا زمن لم نسمع فيه خبراً عن المأمون ولا عن الامين ولا عن الحال بينهما»

قال «اطمئنك يا سيدتي ان الله سينتقم لك ولنا . ان الامين خلع اخاه المأمون من ولاية العهد فخلعه هذا ايضاً وقام الفرس لنصرة المأمون لانهم اخواله وجردوا جيشاً بقيادة طاهر بن الحسين وجرد الامين جيشاً بقيادة ابن ماهان الذي كان صاحب

الشرطة فالتقى الجيشان في الري فانتصر جيش المأمون وقُتل ابن ماهان وتشتت جيشه ولما وصلت هذه الاخبار الى الامين وقع في حيرة وبعث اليّ فذهبت اليه في قصر الخلد واستشارني فأشرت عليهِ ان يرسل الفضل بن الربيع في الحملة الثانية وانا اعلم ان الفضل لا يذهب وجعلت نجاحه في الحرب مشروطاً بارسال الفضل وابنه فآل ذلك الى اختفاء الفضل ولم تفلح الحملة الثانية فضعف حال الامين فاستخفّ بهِ رجال دولته حتى هموا بخلعه فلم يستطيعوا لان سلمان لم يكن معهم ! . ولوشئت لخلعوه ولكنني اردت ضعفه فقط »

فاعجبت ميمونة بدهاء سلمان وسرّت بما دبرهُ للفضل وابنه . ثم قال سلمان فامكثا في قصر المنصور هذا برعاية قهرمانته وربما ذهبت الى الخليفة ومكثت في قصر الخلد اياماً » وصفق فأتى غلامهُ فقال لهُ « اذهب بهما الى القصر وسلمهما الى القهرمانة فريدة وقل لها اني احبُّ ان اراها »

فمضى بهما . وهمّ سلمان بلبس ثيابه وامر الغلام ان يمدّ لهُ بغلته ليركب الى قصر الخلد ويتحول بطريقه الى القهرمانة ويوصيها بالمرأتين . فركب ومرّ بالقهرمانة واوصاها ان تحتفظ بهما فأشارت مطيعة فتحول يطلب قصر الخلد والغلام في ركابه والناس ينظرون اليهِ ويوسعون له اعجاباً بما اشتهر عنهُ من معجزات التنجيم

الفصل الخامس والستون

مقرّطة الامين

وما زال سائراً حتى اتى قصر الخلد فوجد بالباب جماعة من العيارين يخفرونه بدلاً من الجند وعرفهُ احدهم فنهض وحياه ووسع لهُ فدخل ببغلته الى ردهة القصر واذا هو بالهرش رئيس العيارين خارجاً على فرسهِ وحالما وقع نظره على الملفان سعدون اوقف فرسه وسلم عليهِ . فسأله سعدون عما رآه من وجود رجاله بالباب بدلاً من الجند فقال « ان الجند غاضبون على امير المؤمنين »

قال « لماذا ؟ »

قال « ان خبر ذلك يطول ولا استطيع بسطه ونحن راكبان ولا اظنه يخفى عليك ولكنني اقول بالاختصار ان طاهراً واصحابه لما افلحوا في واقعة الري وقتل ابن ماهان ضعفت عزائم جنده وهربوا وتقدم طاهر فاستولى على اعمال الجبال فجند الامين حملة أخرى فعادت خائبة وضعفت سطوة الخليفة حتى تجرأ قواده على خلعه ثم عادوا عن ذلك كما تعلم وظل طاهر يتقدم في جنده حتى اتى الاهواز ثم استولى على واسط فالمدائن ونزل اخيراً في صرصر وهي على مقربة منا وكان امير المؤمنين يخرج الاموال ويفرقها في رجاله . وبلغ ذلك رجال طاهر فطمعوا بالاموال فجاء منهم جماعة الى الامين فاعطاهم وغلف لحاهم بالغالية واكرمهم كثيراً فغضب جنده لانه لم يكرمهم مثل هذا الاكرام فتفرقوا عنه غاضبين فبعث اليّ وكلفني ان آتي برجالي لنصرته ... »

فضحك سعدون وقطع كلام الهرش قائلاً « رب مصيبة على رجل يستفيد منها جاره واظن الامين بذل لكم الاموال فغنمتم ... وانت تعلم انه يسرني ما يسرك وانك اهل للعطاء اكثر من اولئك القواد الخائنين حتى الوزراء فهذا الفضل بن الربيع بلغني انه لما رأى الامر استفحل على مولاه اختفى مع انه سبب هذا البلاء كله » قال ذلك وودع الهرش وساق بغلته فاستوقفه الهرش قائلاً « انك داخل على الخليفة ومتى رايت حاله زال تعجبك مما بلغ اليه امره . »

فلم يفهم سعدون قصده ولكنه مالبث ان تحول عن بغلته عند الباب الثالث من ابواب القصر ودخل الحديقة حتى ادرك السر ولم يكن غافلاً عنه

وذلك انه سلم البغلة لغلامه ومشى في الحديقة وهو يتوكأ على عكازه و ينظر ذات اليمين وذات الشمال فلا يرى الا غلماناً يتراكضون وبعضهم حفاة مكشوفو الرؤوس فاوجس سلمان خيفة من هذا المنظر وظل ماشياً في بعض طرق الحديقة حتى اشرف على بركة كبيرة في وسط الحديقة بين يدي القصر وقد تكاكأ حولها الغلمان ونزع بعضهم ثيابه وغطس فيها وآخرون واقفون يتفرسون في مائها . ثم رأى الامين نفسه مقبلاً كالواله وعليه ثياب المنادمة وقد ذهبت القلنسوة عن راسه من لهفته فترجح لسعدون ان دسيسة ظهرت في القصر يراد بها قتل الامين وان الغلمان يفتشون عن صاحبها وتوهموا انه نزل البركة التماساً للفرار سباحة الى دجلة — لان البركة متصلة بدجلة بقناة تمرّ من تحت السور فاذا اقفلت الابواب على هارب وكان يحسن السباحة استطاع الخروج بالقناة الى دجلة لا يعترضه الا شبكة كالمصفاة منصوبة عند مخترق القناة من السور لا يصعب عليه نزعها

ثم مالبث ان سمع الامين يصيح قائلاً « اين مقرطتي اين ذهبت .. من اخذها .. ياسعيد .. ياجوهر .. ياكوثر .. يا .. تعالوا .... اظنها في البركة ... ابحثوا عنها ... القوا الشباك .. »

فلما سمع كلامه فهم مراده وتذكر قول الهرش لانه راى السبب في تلك الحركة والغوغاء ان الامين اضاع مقرطته وهي سمكة كانت قد صيدت له وهي صغيرة فقرّطها حلقتين من ذهب فيهما حبتا درٍ [1] كثيراً ما كان يلهو بها فى جملة لهوه فاتفق عند قدوم سعدون انه كان قد اضاعها وشغل اهل القصر بالتفتيش عنها . فلما راى سعدون ذلك تنحى جانباً ريثما يفرغ الامين من لهوه او يجد مقرطته وقال في نفسه « كيف تستقيم دولة هذا همّ خليفتها فهل يعجب الناس من فوز اخيهِ الساهر على مصلحته ومعه جند يستهلكون في نصرته ؟ وهذا انما يحيط به المتملقون طمعاً بالمال — تلك عاقبة البغي .. ولا يمضي زمن طويل حتى تنتهي هذه الدولة و يغلب الحق على الباطل »

وهو يفكر في ذلك رأى الامين ينظر اليهِ وقد بغت وتحول مجونه و تهتكه الى جدّ واهتمام واشار اليه ان يتبعه . فمشى سعدون في اثره حتى دخل باب القصر الداخلي واتصل منه الى دهليز ينتهي بقبة يسمونها طارمة مصنوعة من خشب الصندل والعود مساحتها عشرة اذرع في عشرة قد اتخذ لها فراشاً مبطناً بانواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الاحمر وغير ذلك من انواع الابريسم ورأى رجالاً وقوفاً بباب الطارمة عليهم سيماء الوجاهة وسمع اللامين عند دخوله لم يعرف منهم الا اثنين احدهما ابرهيم بن المهدي عم الخليفة والآخر سليمان بن ابي جعفر المنصور من شيوخ بني هاشم . فلما دخل الامين الطارمة اشار الى سعدون بالدخول وصرف الباقين فترك سعدون عكازه ونعاله بالباب ودخل . فجلس الامين على دكة في صدر القبة واشار اليه ان يقعد فقعد وهو يتعجب من تغير حاله . ووقع نظره على آثار مجلس شراب وغناء كان منعقداً هناك قبل مجيئه . فرأى القداح مبعثرة والاباريق متفرقة بين فارغ ومملوء واطباق الفاكهة مصفوفة وفيها الاثمار بانواعها . ورأى بين يدي الامين قدحاً من بلور يسع شراباً ينفذ مقداره خمسة ارطال وقد قلب وانكسر . ورأى قدحين مثله بين يدي وسادتين كان عليهما اثنان من خاصة الجلاس لعلهما سليمان بن المنصور وابراهيم بن المهدي وهما ارفع مقاماً من سائر جلاسه

---

(١) المسعودي ج ٢

فادرك سعدون حالاً ان الامين كان في مجلس الطرب ثم علم بضياع مقرطته فاسرع للبحث عنها . ولكنه استغرب انقلابه من اللهو الى الاهتمام فلبث ساكتاً حتى يبدأ الامين بالكلام . اما هذا فانه ازاح كسر القدح من بين يديهِ ونظر الى سعدون وتنهد وقال « لم يبق لي صديق اودعهُ سرّي سواك لان رجالي تفرقوا عني ولم اجد بينهم مخلصاً لانهم انما يطلبون مالي . وقد اعجبني علمك واطلاعك على الخفايا فاحببت ان استشيرك فبعثت اليك ويسوءني انك جئتني ورأيت اشتغالي بعبث الغلمان ثم دخلتَ هذا المجلس ورأيت ما فيه من آثار الندمان مع ما نحنُ فيهِ من اسباب القلق وبواعث الاهتمام .. » ثم تنهد تنهداً عميقاً وقال « ولكنني افعل ذلك لاذهب ما بي من اليأس فبعثت الى بعض اعمامي فجاؤا اليَّ بالمغنيات والشراب فشربنا وسمعنا ولم يذهب شيءٌ مما في نفسي بل زدت يأساً وكدراً لما سمعت الجواري يغنينهُ من ابيات الشؤم لا ادري فعلن ذلك عمداً او اتفاقاً كقول احداهنَّ :

هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرازبهُ (١)

ووالله لأخشى ممن حولي وهم مثل مرازبة كسرى ليس فيهم من يهمه أمري حتى الفضل وزيري فانه تخلى عني وتركني واختفى ... وزادني تشاؤماً ان احدى المغنيات قامت لغرض فعثرت بهذا القدح فكسرته وهو قدحي الخاص ما برحت اشرب به منذ اعوام لم يصبهُ عطب ... فهل ألام اذا تطيرت ؟ » قال ذلك وصوته يكاد يختنق

فقال سعدون « لا بأس عليك يا مولاي ... »

فقطع الامين كلامه قائلاً « حتى انت لم تصدقني هذه المرة او ان تنجيمك لم يصدق »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال « اتذكر حديثك في قصر المنصور لما سألتك عن نتيجة القتال بيني وبين اخي فبشرتني بالنجاح ؟ »

فاطرق كانه يفكر ثم قال « لو راجع مولاي ما قلتهُ يومئذ لتحقق صدق قولي . فقد قلت ان العلم يدلني على ان الفئة التي فيها الفضل هي الغالبة فهل ذهب الفضل في تلك الحملة ؟ »

فانتبه الامين لذلك وقال « لم يذهب واردت ان ارسلهُ مع الحملة الثانية فتتصل ولما

(١) المسعودي ج ٢

آنس مني الالحاح خاف تحميله التبعة فاختفى ولم اعد اراه ولا اعلم مقره »

فهز سلمان رأسه وأظهر الاستغراب ثم أطرق هنيهة وهو يحك جبينه بسبابته وقال « بل أرى المندل قد صدقني من وجه آخر . تذكرت الآن ان وزير أخيك في خراسان اسمه الفضل أيضاً وهو اقوم على نصرته من قيام هذا الفضل على نصرة امير المؤمنين ... اني واثق من صحة ما اعلمه واذا ظهر خطأ فانما يكون الخطأ في فهم ما يظهر لنا من النتائج »

فصدق الامين قوله وزادت ثقته به وقال له « والآن لا اخفي عنك ان يدي فرغت من الرجال وخزانتي فرغت من الاموال حتى ضربت ما في قصوري من آنية الذهب والفضة نقوداً واعطيتها لرجالي وبعت الآنية الثمينة وفرقتها فيهم وجمعت ما استطعت جمعه من اموال التجار [1] لاسترضي جندي فلم استفد شيئاً واصبحت كما ترى » قال ذلك وغص بريقه . ورأى سعدون دمعتين تملأ الآن في عينيه فلم تحرك شفقته او حنوه وان اظهر ذلك فانما يظهره احتيالاً للوصول الى غرضه . ومن اقصى رغائبه استفحال الامر بين الاخوين حتى لا يبقى للصلح مكان لانهما اذا تصالحا ذهبت مساعي الفرس عبثاً فابدى اسفه لما سمعه من حال الامين وقال « الم تبحث عن المال في قصر اخيك فقد علمت بمال حفظه نوفل خادم القصر من ايام مولانا الرشيد .. »

فقطع الامين كلامه قائلاً « كان عند نوفل المذكور الف الف درهم اخذناها وقبضنا الضياع والغلات .. »

فاطرق سعدون وقد سرّه تضعضع الامين ثم قال « انت تطلب المال لارضاء الجند وفي بغداد جند يحارب بلا عطاء ويأخذ عطاءه مما يغتنمه .. »

قال « اظنك تعني العيارين والشطار »

قال « نعم وهؤلاء يحاربون عراة وسلاحهم المقاليع ومخالي الخوص يحملون بها الحصى يرمون بها الناس فتؤذيهم اكثر مما تؤذيهم السيوف والرماح . وفي بغداد اليوم من هؤلاء نحو خمسين الفاً فأمر زعيمهم ان يجندهم » [2]

قال « اتظنني غافلاً عن ذلك ؟ كان الهرش عندي الساعة وقد امرته باعدادهم فوعدني انه فاعل واظنه سيجمع ما تصل اليه يده من باعة الطريق واهل السجون والاوباش والطرارين واهل السوق .. وهؤلاء اذا قاموا خربت المدينة .. ولكن ... » وسكت فادرك سعدون انه يكتم شيئاً يخاف التصريح به فظل ساكتاً ينتظر مايبدو منه .

(١) ابن الاثير ج ٦ وسير الملوك (٢) المسعودي وابن الاثير

فعاد الامين الى الكلام فقال « اشار عليَّ بعض خاصتي الباقين على ولائي ان اخرج من بغداد بمن بقي من رجالي وهم سبعة آلاف فارس من الابناء فآخذهم وافرُّ ليلاً من احد أبواب المدينة حتى آتي الجزيرة او الشام فيفرضون الفروض ويجبون الخراج ويكون لي مملكة واسعة هناك واترك بغداد لاصحابها حتى يقضي الله بما يشاء . . . فما رايك ؟ »

فلما سمع سعدون ذلك تحقق انه الرأي الصواب لكنه خاف اذا عمل الامين به ان يعرقل مساعي الفرس لان بقاء الامين حياً في مملكة اخرى يفسد عليهم سعيهم فقال « هل يرى امير المؤمنين فائدة من الفرار . . ومن اي باب يخرج بسبعة آلاف فارس وبغداد محاطة بالاعداء من كل جانب شرقاً وغرباً وشمالاً جنوباً . فاذا وقع في يد اعدائه — لا سمح الله — وهو هارب استحلُّوا منه ما لا يستحلونه في حال اخرى »

فقال الامين « الا نجد لنا مخرجاً من بغداد ؟ »

قال « اذا شاء امير المؤمنين صعدنا الى احدى المنائر العالية واشرفنا على بغداد وارباضها فنرى اما كن العدو رأي العين والامر بعد ذلك له »

الفصل السادس والستون

قلبها دليلها

فاستحسن الامين اشارته ونهض وهو يقول « في هذا القصر منارة عالية هلم بنا اليها بغير ان يعلم بنا احد » فنهض سعدون في اثره حتى صعدا المنارة واطلاَّ منها على بغداد وقصورها [1] فالتفتا اولاً نحو الشرق وقال سعدون « الا ترى يا سيدي مضارب هرثمة ابن اعين عند نهر بين وراء دجلة ؟ وهذه مضارب عبيد الله بن وضاح في الشماسية ومعه جند عظيم وقد حفظ الجسر الاعظم . وجند هرثمة يحرسون طريق خراسان فهل من سبيل للفرار من هذه الجهة ؟ واما من جهة الغرب فهذا طاهر وجنده في البستان قرب باب الانبار وكأني اراهم يقتربون باعلامهم . . اراهم دخلوا محلة الكرخ وحول باب الكوفة وما يليها وسائر الارباض الغربية الجنوبية وكادوا يحصروننا والعيارون يدفعونهم بالمقاليع الا ترى الحصى تتطاير فوق البيوت ؟ »

(١) في ابن الاثير ان الامين عاد في آخر ايام الحصار الى مدينة المنصور

وكان الامين ينظر الى ذلك وقلبه يختلج وامتقع لونه وتحقق ضياع امره فلم يجب ولكنه وجه نظره نحو الحرية في الشمال فرأى النار قد لعبت بها فصاح « ويلاه ما هذا؟ .. »

فقال سعدون « اظن الاوباش واهل السجون اغتنموا اشتغال الناس بالحرب فالقوا النار في البيوت ليتمكنوا من السرقة والنهب ... انزل يا سيدي الى قصرك فانك آمن فيه وهو حصن منيع »

فنزل الامين وسعدون في اثره حتى اذا بلغا الى الدار رأيا اهلها في هرج ومرج يركضون ذات اليمين وذات الشمال كأنهم يفتشون عن ضائع وحالما وقع بصرهم على الامين اجفلوا وصاحوا « هذا مولانا امير المؤمنين ... هو هنا »

وما عتم ان رأى والدته زبيدة تعدو نحوه حتى ضمته الى صدرها ودموعها تتساقط وهي تقول « ولداه اين كنت .. ؟ قد شغلت بالي لغيابك الساعة وقد قيل لي انك كنت جالساً هنا ثم لم يجدوك وقالوا انك لم تخرج فطار صوابي لتغيبك في مثل هذا الوقت »

فاثرت لهفة امه به تاثيراً شديداً ولم يتمالك عن البكاء ولكنه تجلد واظهر رباطة الجاش وقال « وما الذي يخيفك يا اماه ؟ .. اننا في خير ان شاء الله .. وانما كنت في شاغل مع رئيس المنجمين ... ما الذي جاء بك الآن ؟ »

فامسكت الامين ودخلت به غرفة ودخل في اثرها سعدون واقفلوا الباب عليهم وقالت « جئت بامرهام ... انت تعلم اني لا اغفل عن التفكير في مصلحتك وقلبي يدلني على خطر يهددنا من يد ذلك الخراساني بهزاد . وما زلت ابث العيون للبحث عنه حتى قيل لي انه في بغداد ولكنني لم اقف على مسكنه وبينما انا اتوقع الوقوف عليه حلمت حلماً مزعجاً لا اقصه على احد بل انا اريد نسيانه .. على انني لم اعد استطيع صبراً على بهزاد هذا واذا استطعنا القبض عليه فكاننا هزمنا نصف الجيش لانه منذ وطئ هذه الديار تغيرت حالنا وقوي جند طاهر لان بهزاد زعيم كبير وله نفوذ على كبار البغداديين وقد قلت لك مراراً انه رئيس عصابات سرية اعضاؤها من اكبر تجار بغداد واهل النفوذ فيها ... » قالت ذلك وقعدت

فقعد الامين وهو يشير الى سعدون ان يقعد وقال لوالدته « واين هو ؟ »

قالت « لا ادري اين هو .. ولكنني سابعث الى تلك الفتاة استقدمها الي لعلها تعترف بمكانه فيهون علينا القبض عليه »

فالتفت الامين الى سعدون كانه يستطلع رأيه فاشار برأسه وشفتيه ماموداه « قد

تكون مولاتنا مصيبة » فقال الامين « مالنا ولتلك الفتاة وهذ رئيس المنجمين عندنا »

فقالت « وهي تعتدل في مجلسها على الوسادة بجانب ابنها « اخبرنا ايها الملفان عما يدلك عليه علمك عن ذلك الخراساني »

فاستخرج كتابه وقرأ فيه على عجل ووضع قطعة من البخور في فيه مضغها قليلاً واطرق ثم قال « انه في بغداد يا سيدتي »

قالت « هل تعرف مكانه تماماً ؟ »

قال « يظهر لي انه بين مائين ولكن ليس في النهر .. على ان تحقيق ذلك يحتاج الى وقت اوسع وجوٍّ أصفى اما تلك الفتاة فلا تعلم مكانه وكيف يتاتى لها ذلك وهي محبوسة في قصر امير المؤمنين لا يراها احد ولا ترى احداً »

فاطرقت زبيدة هنيهة وقالت « علمت ان ابن الفضل يهواها وهي لا تريده ولولا اختفاء والده لازوجته بها رغم ارادتها » وسكتت هنيهة ثم قالت « والفضل هذا خاننا عند الحاجة اليه مع انه اصل هذه المصائب وهو الذي حرض محمداً على خلع اخيه والتجريد عليه ... لعنه الله من خائن .. » قالت ذلك وغصت بريقها كانها شعرت بالخطر المحدق بابنها ثم استانفت الكلام و بدا على وجهها الاهتمام وقالت « ولكنني حسنة الظن بالفضل وسأرى »

واحس الامين بما تضمره من الخوف عليه فاحب مغالطتها فقال وهو يظهر التجلد و يتكلف الابتسام « لا تلعني احداً وسوف يلقى الخائن جزاءه فاذهبي يا أماه الى قصرك الآن واطمئني وادعي لنا بالنصر .. ولا يغرنك ما ترين من كثرة جند الاعداء فاننا غالبون باذن الله ولنا من العيارين اكبر معين »

فعلمت انه يريد انصرافها فنهضت ولما همت بالخروج احست بما يجب اليها البقاء وقلبها لا يطاوعها على فراق ابنها كانه انذرها بالخطر عليه فارادت الرجوع الى مقعدها فخافت ان تكدر ابنها فوقفت هنيهة تتردد وهي تتشاغل باصلاح مطرفها وعصابتها ثم اكبت على الامين وقبلته في عنقه قبلات حارة فاحس بسخونة الدمع فدفعها بلطف وقبل ما بين ثديها وهو يغالب عواطفه و يخاف ان تخونه دموعه .. اما هي فاسرعت في الخروج شعرت ان قلبها خلع من صدرها وانصرفت في موكبها الى قصرها »

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فاظهر سعدون رغبته في الانصراف فقال « هل يأمر مولاي بانصرافي »

قال « امكث .. لا تفارقني ... إني ساحتاج اليك الليلة »

فتوقع سعدون من وراء ذلك نبأً جديداً فتفرس في وجه الامين فرأى اضطراباً لم يعهده فيه من قبل فهمَّ سعدون بالخروج الى بعض غرف الاضياف فاشار اليه الامين ان يمكث ثم صفق فجاءه غلام فقال « اليَّ بالشراب وانر الشموع » فلما خرج الغلام نزع الامين عمامته عن رأسه وزفر زفرة سمع لها دوي وقال « يلومونني على تعاطي الشراب وماذا يفعل اليائس في مثل هذه الحال ؟ ان الشراب ينفس الكرب ويذهب الغم حتى يقضي الله بما يشاء » اما سعدون فجلس متأدباً وهو يظهر الاحترام ويتجاهل ثم جاء الغلمان بمائدة الشراب والفاكهة واناروا الشموع الكبيرة المعروفة باسم الامين فصاح الامين بالغلام قائلاً « هل عمي ابراهيم هنا ؟ » يريد ابراهيم بن المهدي المغني

قال « كلاَّ يا مولاي »

فاشار اليه ان يملأ له قدحاً ففعل فتناول الامين القدح واشار اليه ان يملأ قدحاً آخر وقال لسعدون « ألا تشرب يا ملفان »

قال « اذا امرني امير المؤمنين اطعته ولكنني لم اشرب قبل الآن والشرب لا يوافق صناعتي »

فقال الامين للساقي « دعه لا تسقه .. اننا في حاجة الى علمه وصناعته الليلة . واوص صاحب بابنا اذا جاءنا رسول ان يوصله الينا حالاً ولو في نصف الليل »

فازداد سلمان رغبة في استطلاع ما يضمره الامين ولبث ينتظر ما يبدو منه فلم يشرب الامين بضعة اقداح حتى سري عنه فالتفت الى سعدون وقال « اتدري لماذا استبقيتك هنا دون سواك ؟ »

قال « كلاَّ يا سيدي »

قال « لو اردت كشف هذا السر لكشفته لبعض خاصتي ولكنني اصبحت لا اثق باحد من اهل بطانتي بعد ان تكشفوا لي عن اعداء بثياب الاصدقاء وما منهم الاَّ من يطمع بمالي او بحياتي . ويكفيك مثلاً منهم وزيري وهو سبب هذا الخصام بيني وبين اخي .. وهو الذي حرضني على ذلك فلما رأى اشتداد الازمة خاف على حياته واختفى ولم يبال بما يهددني وهكذا فعل سائر اهل دولتي فانهم لم يزالوا معي حتى انفقت اموالي وبعت جواهري وآنيتي ودفعتها لهم فلما علموا بفراغ يدي تخلوا عني ... وشدد اولئك الاعداء الحصار علينا فمنعوا الاقوات عنا » قال ذلك وكانه خاف ان يبدو عليه الاجهاش للبكاء فتناول قدحاً وقطعة فاكهة يتشاغل بهما وناول سعدون قطعة وهو يقول « فمن كان هذا شانه مع رجال بطانته

كيف يرجى فلاحه ؟ »

فاستبشر سعدون من تلك الشكوى وتحقق سقوط هذه الدولة ولكنه اظهر استغرابه وقال « لا ييأس امير المؤمنين ان الله ناصره فليتكل عليه »

فقال « طالما خدعتني الآمال واستخف بي الغرور وصدقت المتملقين اهل الفساد حتى وقع ما وقع بيني وبين اخي ثم رأيت رجاله اثبت من رجالي وقواده اثبت من قوادي ورجعت الى رشدي فاذا احببت ان اصالحه لا اجد من يتوسط بيني و بينه ... اعلم اني اطلعك على سرٍّ ضننت به على اهل دولتي .. وعلى والدتي »

فاشار سعدون الى انه موضع ثقته فقال الامين « لا اخفي عنك اني لما تحققت فراغ يدي من الرجال والمال وامتناع الخروج عليّ بعثت الى هرثمة في البر الشرقي اطلب الامان وانا في انتظار الجواب .. فهل فعلت حسناً ؟ »

الفصل السابع والستون

الفرار

فاظهر سعدون الاسف ثم رفع حاجبيه وقال « قد فعلت الصواب وما في الامان عار لاسيما وانك ستكون في أمان اخيك والدم لا يتغير ولا يخون .. ولكن .. » وسكت

وكان الامين يصغي لكلام سعدون وبيده تفاحة يقشرها فلما رآه توقف قال « ولكن ماذا ؟ »

قال « لا ادري الحكمة في مخابرة هرثمة دون طاهر وهو صاحب الجند المحاصر لهذا الشطر من بغداد »

فتنهد الامين ورمى التفاحة من يده وقال « لا .. لا اذهب الى طاهر فاني اتطير منه وأكرهه وقد رأيت في منامي كاني قائم على حائط من آجر شاهق في السماء عريض الاساس لم أر مثله في الطول والعرض وعليّ سوادي ومنطقتي وسيفي وكأن طاهراً في اصل ذلك الحائط فما زال يضربه حتى سقط وسقطت وطارت قلنسوتي عن رأسي . فتشاءمت منه اما هرثمة فانه من موالينا وهو بمنزلة الوالد وانا اشد ايناساً به وثقة اليه »

فرقص قلب سعدون طرباً لهذه البشارة واظهر تصويب رأي الامين وقال « الرأي لمولانا »

وهما في هذا الحديث جاء الغلام يقول « ان رسول امير المؤمنين بالباب »

فظهرت البغتة على الامين وقال « يدخل حالاً »

فدخل الرجل متكراً بثياب التجار ووقف فقال له الامين « قل ما وراءك ؟ »

قال « اقول كل شيء »

قال « قل لا بأس »

قال - لقيت هرثمة وعرضت عليه ما امرتني به فقال السمع والطاعة وانه بعد نزول امير المؤمنين عنده شرفاً كبيراً ولكنه يفضل ان يكون الخروج اليه في الليلة القادمة وليس في هذه الليلة و ... »

وكان الامين مقبلاً بكليته يسمع كلام الرسول ونسي للهفته ان يأمره بالجلوس فلما سمع قوله اشار اليه ان يقعد وقال له « وما بعد ذلك قل لا تخف .. ما الذي بعثه على تأجيل الذهاب »

فقعد الرجل متأدباً وقال « لانه على ثقة ان ذهاب امير المؤمنين اليه يسوء طاهر بن الحسين وهو قريب من هذا القصر وانما شدد الحصار على هذه الصورة رجاء ان يختار امير المؤمنين الخروج بامانه اليه فيفتخر بالفوز على يده وله عيون مبثوثة في هذه الاطراف . واخبرني انه شاهد على الشاطيء امراً رابهُ فهو حريص على حياة امير المؤمنين »

ففهم الامين تهديد طاهر فقال « بل اذهبُ الى هرثمة ... ولا بد من الذهاب الليلة لاني اصبحت منفرداً وقد تفرق عني الناس والموالي والحرس وغيرهم ولا آمن اذا انتهى الخبر الى طاهر ان يدخل عليّ فيأخذني »

ونهض وقد بان الانقباض في محياه وامر فجيء اليه بثياب بيض وطيلسان اسود فلبسها وتعمم عمامة خفيفة ثم صاح في الغلام ان يأتيه بولديه فوقف سعدون وسكت تهيباً واحتراماً وقال للامين « هل يامر مولاي بخدمة اقضيها فان نفسي فداؤه »

قال « لا تفارقني حتى اخرج اني ارى وحشة » ثم جاؤهُ بولديه فضمهما اليه وودعهما وبكى وقال « استودعكما الله عز وجل » ومسح عينيه بكمه ومشى الى بغلة اعدوها له فركبها وسعدون واقف الى جانبه فاشار اليه مودعاً فقبل سعدون ركابه وقال « سر بحراسة الله » فاوصاه باهله خيراً وخرج راكباً الى الشاطيء وكانت حراقة

هرثمة في انتظاره هناك فنزل فيها فحول ربانها الدفة نحو الشاطيء الآخر وكان في الحراقة هرثمة نفسه وجماعة من رجاله . فلما دخل الامين قاموا له وجثا هرثمة على ركبتيه واعتذر اليه من نقرس به ثم احتضنه وضمه اليه وجعله في حجره ليؤنسه . وكانت ليلة باردة — لانه خرج في مساء الاحد لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ هـ وهي توافق ٢٨ سبتمبر سنة ٨١٣ م [١] وامر هرثمة النوتية ان يسرعوا في التجذيف لانه شاهد حركة على الشاطيء واذا بزوارق لطاهر كانت راسية هناك قد اسرعت الى حراقة هرثمة ونقبوها ورموا من فيها بالآجر والنشاب فدخل الماء الى الحراقة فغرقت وسقط هرثمة والامين الى الماء فشق الامين ثيابه وخرج الى الشاطيء ونجا هو وهرثمة . فاركبوا الامين حماراً وساروا به يطلبون مخبأ وهم لا يصدقون انهم نجوا

اما سلمان فلما ودع الامين اصبح همه ان يقتله لان بقاءه حياً يجعل سبيلاً للمصالحة فلا يستفيد الفرس شيئاً . فنزع ثياب التنجيم وسبق الامين الى الشاطيء واخبر رجال طاهر ان الامين خارج الساعة الى حراقة هرثمة فترقبوا قدومه ولما رأوا الحراقة تتحرك قلبوها كما تقدم . وكان سلمان معهم فنزل في جملة من نزل للبحث عن الامين وعلم انه بقي حياً فرافق الذين فروا به الى المكان الذي خبأوه فيه ثم رجع الى بهزاد

وكان بهزاد منذ وصوله الى بغداد يحرض رجال الشيعة على الاخذ بناصر اخوانهم وفيهم جماعة الخرمية كما وعدوه قبل سفره ولكنه لم يكن يظهر لطاهر ولا يعلم طاهر بوجوده هناك على انه كان يغتنم الفرص لمساعدة الجند بمثل ما اتاه في واقعة الري . ولكن نفوذه على الخرمية ببغداد كان عوناً كبيراً لرجال المأمون حتى تضعضعت احزاب الامين وضعف امره واضطر للتسليم . ولم يكن بهزاد يرى ان ياخذ الامين اسيراً وانما كان همه ان يلتقي به في معركة ويبارزه ويقتله بخنجره ليتمم وعده لوالدته فيرجع اليها برأسه ظافراً غانماً . وكان في اثناء اقامته ببغداد اوضح امرها يقابل سلمان ويساله عن الاحوال وخصوصاً عن ميمونة وهو يطمئنه ويبالغ في طمانته لئلا يشغله داعي الغرام عن اتمام مشروعه . واتمام هذا المشروع بهم سلمان كما يهم بهزاد ولكن غرضه ومطمح امله في خراسان وليس في بغداد . وربما حسد بهزاد على اجتماعه بحبيبته فلذلك كان يبذل جهده في ان لا يجتمعا فكان يطمئن بهزاد عن ميمونة ويطمئنها عنه وبهزاد يرضى بالابتعاد ولا يلح باللقاء خوفاً من ان يبعثه داعي الغرام على ما يحول دون الغرض الاصلي من مهمته

(١) ابن الاثير ج ٦ والتقويم العام

الفصل الثامن والستون

القتل

قضى بهزاد في هذه الحال مدة طويلة حتى اشتد الحصار كما علمت وبلغه حديث الناس عن الامين فتوقع قرب تسليمه . وكان ذات ليلة في منزل احد الخرمية بالكرخ وقد دنا نصف الليل ونزع ثيابه وعلق سلاحه فوق رأسه ونام فجاءه احد الغلمان ينبئه بقدوم سلمان فعلم انه لا ياتيه في ذلك الحين الا لامر هام فنهض وامر بادخاله فدخل سلمان وعليه ثياب لاهي لرئيس المنجمين ولا للخادم سلمان ودلائل التعب بادية في وجهه فصاح فيه « ما وراءك يا سلمان »

قال « ابشر بالنصر »

قال « اني مستبشر به وواثق من الحصول عليه ولكن ما ذا حدث »

فقص عليه الحديث كله الى ان قال « فالامين الان مختبيء في بيت لبعض الناس على الجانب الشرقي وقد تركته عريانا وليس عليه من الثياب الا السراويل والعمامة وعلى كتفيه خرقة خلقة ومعه احمد بن سلام صاحب المظالم لانه لقيه في فراره واتفق وجودهما هناك وسمعت الامين يسأله عن اسمه فلما عرفه واستانس به قال له : ضمني اليك فاني اجد وحشة شديدة . فضمه اليه وكانت عنده مبطنة القاها عليه ثم سمعته يقول له : يا احمد ما فعل اخي . فقال له : هو حي ؟ فقال : قبح الله بريدهم كان يقول قد مات . كانه يعتذر عن محاربته وانا واثق انه عارف ببقائه حياً — فاجابه ابن سلام : قبح الله وزراءك . وسمعته يقول آخيرًا : ما تراهم يصنعون بي ايقتلونني ام يفون لي بامانهم . فاجابه : بل يفون لك — وقد كذب فاله . وتخنج سلمان

فادرك بهزاد من ذلك انه لاينوي الوفاء له بالامان فقال « وماذا تعني يا سلمان .. اترى ان تنكث عهد الامان ؟ . »

قال « وهل تريد ان يبقى هذا الرجل حياً .. ؟ فاذا حُمل الى اخيه تصالحا فيذهب سعينا عبثاً . . لماذا حملت هذا الخنجر معك من خراسان ؟ وقد قلت انك نذرت ان الانتقام به لابي مسلم وجعفر فكيف تنتقم لهما وقد سنحت لك هذه الفرصة وهذا الرجل في قبضة يدنا وفي قتله ختام فوزنا اتتركه يفلت منا ؟ »

قال بهزاد « انت تعلم اني اول ناقم على هذه الدولة وقد كرست حياتي لمقاومتها ونجحت في مسعاي والحمد لله . ومن اقصى رغائبي ان اقتل هذا الخليفة بيدي وبخنجري لاضيف راسه الى الراسين اللذين تركتهما في مرو .. نعم اريد ان اقتله في ساحة الوغى ... اقتله وهو مسلح بالمبارزة وليس غدراً وخلسة وهو اعزل خائف وقد دخل في امانتنا . انتكث الامان ونحن انما نقمنا على هذه الدولة لانها نكثت العهود وغدرت ببعض رجالنا ؟ . والغادر تعود عاقبة غدره عليه » قال ذلك وبان الحماس في عينيه . فتكدر سلمان لهذه الاريحية لانه لم يكن يفهم مغزاها وانما هو رجل ماكر داهية يهمه تنفيذ ما آمر به لا يبالي بما يعترضه ولا يهمه ما يأتيه في سبيل ذلك من اساليب الكذب والمكر والغدر . لايخاف ضميراً ولا يراعي ذماماً ولذلك اختاره صاحب الامر بخراسان للعمل الذي يحتاج الى هذه الخصال بخلاف بهزاد وهو رئيس شريف وكل اعماله تؤيد ما طبع عليه من الاريحية وصدق اللهجة والبسالة

فلما سمع سلمان إباءه لم يستغربه وندم على تكليفه ذلك وتظاهر انه اقتنع بقوله وقال « صدقت يابهزاد بورك في بطن حملك » واظهر ميله للرقاد من كثرة التعب فنام ونام بهزاد وهو يفكر في ما انتهت اليه هذه المهمة وما عساه ان ينجم عنه . وهو راقد في اواخر الليل سمع خربشة فاستيقظ حالاً وفتح عينيه فرأى شبحاً واقفاً بجانب فراشه وهو يتطاول الى الحائط فنهض والتفت ولم يذعره ذلك وقال « من هذا ؟ »

فرأى شيئاً وقع من يد الرجل على الفراش فتوسمه فاذا هو خنجره والرجل سلمان فقال « ما ذا تفعل يا سلمان ؟ »

قال « لا افعل شيئاً وقد فعلت ما اريده وهذا خنجرك خذه . »

فمدّ يده الى الخنجر فرأى عليه اثر الدم فقال « ماذا فعلت .. هل قتلت الرجل ؟ »

قال « قتلناه .. لا أقامه الله .. وانت تريد ان يبقى عثرة في طريقنا فقد مات واسترحنا منه »

فصاح به « ويلك قتلته ؟ وبخنجري ؟ »

قال « لان خنجرك منذور لهذا الامر كما قلت فاحببت ان اتحمل انا ذنب القتل واترك لك فضل الاباء والنزاهة والاريحية وكبرالنفس (وهزّ رأسه) تريدون انشاء الدول بدون نكث ولا غدر ولم نر صاحب دولة استغنى عن ذلك حتى ابو مسلم الخراساني لو لم يغدر لم يغلب والمنصور لو لم يغدره لم تثبت دولته والرشيد لو لم يغدر بجعفر كان في خطر

على خلافته . بل ارجع بذلك الى صدر الاسلام ترَ علياً وابناءه لم يفشلوا في سياستهم الاّ لانهم توخوا الحق والوفاء و بالغوا في البعد عن الغدر والدهاء — ولو لم يمكر معاوية و يغدر لم ينشي دولة ولا اقام سلطاناً وتوارث العلويون حب الحق والتدقيق في الوفاء من علي فكان حظهم الفشل مثل حظه . ونحن في حاجة الى الغدر الآن — ومع ذلك فلم اكلفك ارتكاب هذه الجريمة فتحملت الذنب وحدي »

فاعجبهُ اعتذاره ولكنه قال لهُ « ومع ذلك فان الغادر تعود عاقبة غدره عليهِ والتاريخ اصدق شاهد » وسكت وقد سرّه التخلص من الامين على غير يدهِ بدون ان يتحمل دمهُ فقال « وكيف فعلتم ؟ . . كيف قتلتموه . . قبحكم الله »

قال « سرقت خنجرك وتزيّيتُ بزي جند الفرس واسرعت الى المكان الذي تركت الامين فيه وقد مضى نصف الليل والظلام شديد فلقيت ببابهِ بضعة رجال من العجم معهم السيوف مسلولة فاختلطت بهم ودخلت معهم على الامين فوجدته قاعداً ولما رآنا قام قائماً وقد اخذ الرعب منه مأخذاً عظيماً وقال « إنا لله وانا اليهِ راجعون ذهبتْ والله نفسي في سبيل الله . . اما من مغيث اما من أحد من الابناء ؟ » اما نحن فظللنا داخلين عليهِ وكان بيد الامين وسادة يترّس بها وهو يقول « و يحكم انا ابن عم رسول الله انا ابن هرون انا اخو المأمون الله الله في دمي » فخفت ان تدرك القوم رأفة له فيفسد علينا امرنا فالححت على رجل امامي سيفه مسلول بيده وقلت عليك بهِ فضربه بالسيف على رأسه فرماه الامين بالوسادة فتقدمت انا وطعنته بهذا الخنجر في خاصرته فكانت القاضية فصاح « قتلني قتلني » فدخل سائر القوم فذبحوه ذبحاً من قفاه واخذوا رأسهُ ومضوا به الى طاهر [1] وجئت انا بالخنجر اليك فان كنت ترى اني استوجب القصاص فاحكم عليَّ »

قال « يظهر ان الرجل كان مقتولاً لامحالة ولكنك جعلت لخنجري دخلاً في القتل حتى يصح النذر . . . رحم الله الامين وهنيئاً لنا فقد انتهت مهمتنا »

قال سلمان « فاذاً نحن راجعون الى خراسان غداً اذا شئت »

قال « ولماذا هذه العجلة »

فقال وهو ينظر شذراً « قد فرغت انت من عملك وضمنت مستقبلك وهذه ميمونة تحت امرك لو مكثتما هنا او غير هنا فانت مطمئن اما انا فلي مأرب في خراسان لم اتوثق منهُ لذلك احببت سرعة الرجوع »

---

(١) ابن الاثير ج ٢

قال بهزاد « وميمونة ألا تخرجها من المكان الذي حبستها فيهِ ؟ »

فضحك وقال « صدقت ... هي في قصر المنصور وفي الغد اسلمها اليك مع جدتها ... الايكفيك ذلك ؟ »

قال « بلى .. واني شاكر لك كثيرًا وقد آن لنا ان نتعامل كالاخوة فانت اخي وصديقي منذ الآن وقد انقضى زمن الخدمة بانتهاء هذه المهمة »

فاثنى سلمان عليهِ وباتا بقية ذلك الليل ونهضا باكرًا فقال سلمان « اني ذاهب الساعة بلباس رئيس المنجمين حتى يسهل عليَّ الدخول الى قصر المنصور واحضار ميمونة وانت ماذا تفعل ؟ »

قال « اسير في ظلك او انت تسير في ظلي حتى لا نضيع فرصة »

قال « حسنًا »

الفصل التاسع والستون

ابن الفضل

وتزيًا سلمان بزي رئيس المنجمين وركب بغلته وركب بهزاد جوادهِ وعليه القباء والقلنسوة والسراويل كأنهُ احد كبراء الفرس فمرًا باسواق الكرخ وقد لاح الفجر وتحولاً من ناحية باب الكوفة فهالهما ما شاهداه من ازدحام الاقدام واستغربا كثرة ما يتساقط عليهما من الحصى التي كان يرميها العيارون عن الاسوار ولم يباليا بذلك . وقبل وصولهما الى الباب المذكور رايا جماعات من الناس وفيهم اهل الاسواق فضلاً عن الجند الخراساني يتسابقون نحو البستان الذي كان طاهر معسكرًا فيه واذا برأس مرفوع على قناة علم سلمان لأول وهلة انهُ رأس الامين قد جاء بهِ طاهر وغرسهُ على برج فوق حائط البستان . ولما رآه الناس أُسقط في أيديهم وهلعت قلوبهم او لعلهم فرحوا بالفراغ من الحرب فاستلفت انتباه بهزاد فلما وقع نظره على الرأس كبَّر واستعاذ بالله وقال « سبحان الحي الباقي اليوم سقطت دولة وقامت دولة أخرى — اذا عرف الفضل بن سهل الانتفاع من هذا النصر »

فقال سلمان « ما ظنك بطاهر يفعل بهذا الرأس »

قال « اظنهُ يرسلهُ حالاً الى المأمون في خراسان ومعهُ البردة والخاتم والقضيب لتطمئن القلوب و يتحققوا النصر و ينال طاهر عليه جائزة كبيرة و يصبح المأمون الخليفة الوحيد »

اما قصر المنصور فقد غادره سلمان بالامس واهلهُ غافلون عما يجري في قصر الخلد وكانت القهرمانة فريدة في مساء الامس مشتغلة بشؤونها فجاءها الحاجب يقول « ان ابن الفضل بن الربيع بالباب يطلب مقابلتك » وكانت تعرف الفضل ومنزلتهُ عند الامين فظنت ابنه قادماً بأمر هام فأذنت بدخولهِ . وكان قد مضى عليه مدة وهو مختفٍ مع ابيهِ لاسباب تقدم ذكرها لكنهما لم يفارقا بغداد فكانا على بينة مما يجري فيها فعلم ابن الفضل في ذلك المساء ان الامر قد استفحل ولا تلبث بغداد ان تسقط في ايدي الخراسانيين . وكان يراقب حركات ميمونة و يعرف مقرّها وقد سعى جهده في الحصول عليها حتى ذهب الى زبيدة في صباح الامس واقنعها انهُ يقدر ان يستعلم منها عن محل بهزاد ولمح انهُ يحبها فقالت « اذا استطعت معرفة مكان الرجل فاني أملكك اياها » فطلب منها امرًا للقهرمانة ان تأذن لهُ بمقابلتها . فلما رأى اضطراب الحال في ذلك المساء اتى ببعض العيارين استاجرهم لاختطاف ميمونة اذا لم تاذن القهرمانة بتسليمها اليهِ وجاء الى قصر المنصور

فلما دخل على القهرمانة قابلته احسن مقابلة وسألته عما يريده فدفع اليها كتاب زبيدة فتذكرت ان سعدون كان قد اوصاها ان لا تاذن لاحد باخراجها فلم تر باساً من ان يقابلها ابن الفضل فدخلت عليها واخبرتها ان ابن الفضل يريد مقابلتها وكانت جدتها عبادة معها فصاحت « لا . . لا شغل لنا معهُ »

فقالت « ولكنهُ جاءني بأمر من مولاتنا زبيدة »

فلما سمعت عبادة ذلك الاسم اضطربت جوارحها وتشاءمت وتوسلت الى القهرمانة ان ترد عنها هذا الشاب فلم تفعل

فاقبل ابن الفضل على الغرفة وقد انيرت بها الشموع وجلست ميمونة بثوبها الاسود وقد تغير لونها من توالي المصائب واصابه شحوب زاده رقة . فدخل وهو يبتسم ابتسام الاستعطاف وفي وجههِ امارات الحب فلما رأته اقشعرّ بدنها وظلت جالسة مطرقة فتقدم نحوها وحياها وقال « ألا تعرفينني يا ميمونة ؟ »

قالت بنفرة وجفاء وهي تحوّل وجهها عنهُ « كلاَّ »

قال « الا تعرفين شاباً يهواك الى حد التلف ؟ الا تعرفين ابن الفضل ؟ »

قالت « اعرف هذا الاسم بالسمع وذكره يؤلمني لان اباه البسني هذا الثوب »

فقال وهو يتلطف بتعبيره « اذا صح ذلك فاني اتكفل ان اعوضك منه ثوباً ابيض وان ابدل ايامك السوداء بايام بيضاء كالثلج . . »

قالت وهي تنظر اليه شزراً « قد تعودتُ السواد ولم اعد اشتهي سواه »

قال « البسي ما تشائين وافعلي ما تشتهين ولكن تعطفي على فتى يحبك حباً مبرحاً . . . اني احبكِ يا ميمونة ولكني سيء الطالع لانك لاتحبينني . . » قال ذلك وجثا بين يديها واراد لمس يدها فجذبتها منهُ كانهُ عقرباً تريد لدغها

فوقف وقد شق عليه جفاؤها وقال « جئت يا ميمونة اتوسل اليك باسم الحب فاذا لم تشفقي على تذللي جئتك من سبيل آخر »

فقالت « لااعرف لك سبيلاً اليَّ دعني وشاني وابحث عن سواي فان النساء كثيرات »

قال « لم يقع اختياري على سواك ويدلك على ذلك ثباتي في حبك رغم ما تظهرين من النفار . . الم يان ان تتعطفي »

فتحولت عنهُ وقالت « دعني يا رجل . . »

فنهض وقال مهدداً « قلت لك اذا ظلمتِ على هذا الجفاء عاملتك بالقسوة ولو شق علي ذلك »

قالت وهي لا تنظر اليه « لاتستطيع امراً ونحن في قصر امير المؤمنين »

قال « اني استطيع حملك بالقوة فان معي فرقة من الجند وبيدي امر من ام الخليفة »

وكانت جدتها جالسة تسمع ما يدور بينهما فصاحت فيهِ قائلة « كنت احسبك شهماً يؤثر فيك الكلام . . . اما كفاك ما سمعتهُ ؟ دع الفتاة وشانها . . ولو كنتُ في مكانك وعلمت انها لا تحبني لتركتها في أي حال »

قال « كنت اتركها ولا أبالي بها ولكنني يشق عليَّ ان أعود بالفشل بعد الصبر زمناً طويلاً فالآن ولو كنت لا احبها فاني أريد ان اعلمها من انا وان مثلي لا يعامل هذه المعاملة وفي بغداد مئات من بنات الامراء والقواد يتمنين رضاي » والتفت الى ميمونة وقال « راجعي نفسك وثقي اني انصح لك فلا تلجئيني الى القوة ان فرقة من الحرس في انتظار امري خارجاً »

فضاقت نفسها وتململت وصاحت « ويلاه اين الجند اين الحرس ؟ » فنهضت جدتها وقالت لابن الفضل « اكفنا ايها الشاب شرك ودعنا وشأننا . . . اذا كنت تعرف من نحن فاشفق علينا وكفانا ما قاسيناه من البلاء »

وهم في ذلك سمعوا جلبة في الدار فظنت ميمونة ان العيارين دخلوا للقبض عليها فصاحت « ويلاه ياربي .. اذا لم يكن قد انتهى حبل مصائبي خذ روحي ....» وطفقت تبكي ولم تتمالك لاضطرابها ولهفتها ان صاحت «اين سلمان اين بهزاد ؟ اواه ما اشقاني » وكانت جدتها في اثناء ذلك واقفة الى جانبها تهوّن عليها والدموع تتساقط من عينيها

اما ابن الفضل فعلم ان الضوضاء ليست من العيارين فخرج ليرى سببها فسمع الخدم يقولون « السيدة زبيدة أتت »

فاستغرب الجميع مجيئها في تلك الساعة وقد مضى معظم الليل

والسبب في مجيئها انها بعد ان خرجت من قصر الخلد في ذلك المساء وهي على ما وصفنا من الخوف على ابنها ذهبت الى قصرها وظلت مشتغلة الخاطر وكأن قلبها دلها على الخطر القريب فذهبت الى الفراش ولم تنم . وبعد منتصف الليل ايقظتها قهرمانة قصرها فنهضت مذعورة وسألت عن الخبر فقالت القهرمانة « ان بعض شاكرية قصر الخلد يسأل عن امير المؤمنين »

فصاحت « يسأل عن ابني ؟ يسأل عنه هنا .. اين هو ؟ اني تركته في قصر الخلد منذ ساعتين اين الشاكري ؟ »

فادخلوه اليها فقالت « اين أمير المؤمنين ؟ »

قال « لا نعلم يا سيدتي وقد بحثنا عنه في كل مظانه بالقصر فلم نجده ولا نعلم اين هو »

فنهضت والتفت بمطرفها وركبت الى قصر الخلد وفتشت عنه هناك بنفسها فلم تجده في مكان فخطر لها انه ربما ذهب في امر وسيعود فسكتت على مثل الجمر حتى كاد الفجر يلوح فحدثتها نفسها انه لعله دخل مدينة المنصور للامتتاع في قصرها فركبت الى هناك فقابلتها القهرمانة فسالتها عن الخليفة فقالت انها لم تره

فقالت زبيدة « رأيت بالباب بعض العيارين فمن اتى بهم الى هنا ؟ »

قالت « ابن الفضل وقد جاءني بكتاب منك ليكلم الجارية ميمونة »

فلما سمعت اسمها اشتد غضبها وتصورت انها مصدر متاعبها فصاحت « اين هي ؟ »

قالت « هي في هذه الغرفة » ولم تصبر زبيدة لتستدعيها اليها فتوجهت الى الغرفة ودخلت فجأة وقد أخذ الغضب منها ماخذاً عظيماً فلقيها ابن الفضل بالباب فتنحى فدخلت فرأت ميمونة واقفة وجدتها عبادة الى جانبها. فلما رأت عبادة هناك لم تتمالك ان صاحت « وانت هنا ايضاً ؟ تباً لك من عجوز شقية .. انك سبب متاعبي واصل بلائي .. ما الذي

جاء بك الى هذا المكان ؟ ..»

فاطرقت عبادة وسكتت لانها لم تجد وجهاً للكلام ولاعذراً للمجيء فوجهت زبيدة خطابها الى ميمونة وقالت « والآن الم يئن لك ان تقولي لنا عن مكان ذلك الشقي الخائن الذي تسمونه بهزاد ... قد علمت انه في بغداد وكل بلائنا منه .. اين هو ؟ »

فقالت وصوتها يختنق من الخوف « لا اعلم يا سيدتي لاني سجينة هنا ولا يصل اليّ خبر ولا أعرف من حوادث الدنيا شيئاً »

قالت « اتكذبين والعلائق بينك وبينه لم تنقطع على يد خادم له اسمه سلمان ؟ »

فقالت « اسالي القهرمانة انى لا أرى خادماً ولا اميراً بالله اشفقي عليّ ياسيدتي وكفاني ما اقاسيه » واغرقت في البكاء

قالت « اشفق عليك ؟ لماذا ..؟ آه لو استطعت خنقك بيدي لم اتاخر ... »

ثم التفتت الى الخارج فرأت ابن الفضل لا يزال واقفاً فصاحت به « خذ هذه الجارية فقد ملكتك اياها افعل بها ما تشاء وهذه العجوز النحس سوف اذيقها ما تستحقه »

فلما سمعت عبادة قولها جثت بين يديها وقالت « افعلي بي ما تشائين وارفقي بهذه الفتاة فانها بريئة من كل ذنب . قد تضرعتُ اليك بشانها قبل الآن فرددتني والآن اتوسل اليك وانت والدة وتعرفين حنو الامهات ان تترفقي بهذه الفتاة .. واما انا فلا اسف على حياتي »

فلما سمعتها تذكر حنو الوالدات احست بشيء اوهن عزائمها لعلمها بما يهدد ابنها من الخطر ولا سيما في تلك الساعة اذ اضاعته ولا تعلم حيٌّ هو ام ميت ـ والانسان لا يشعر بمصائب الناس الا اذا أصيب بمثلها او تعرض للاصابة بها فكم يسمع العازبون بثكل الآباء او الامهات ولا يهمهم ذلك كثيراً فاذا تزوج احدهم ورزق ولداً اصبح اذا سمع صياح طفل من مغص او جوع تفتت كبده عليه وأسرع الى اعالته ولو سمعهُ العازب لنقم على اهله واشار بضربه . حتى الآباء لا يشتد شعورهم بهول الثكل الا اذا اصيبوا به او تعرضوا له كما اصاب زبيدة في ذلك اليوم ـ فقد سمعت عبادة تتوسل اليها قبل الآن بحياة ابنها فلم يؤثر قولها بها اما يومئذ فلما سمعت قولها دبت الشفقة في عروقها وسكتت كانها اصيبت بالخرس وتساقط من عينها دمعتان تدحرجتا على خديها وهي تغالب عواطفها وتتجلد لئلا يظهر الضعف عليها فنهضت وتظاهرت بالغضب وقالت « قلت لك انه لا سبيل الى خلاصها الاّ اذا اعترفت بمكان بهزاد والا فهي ملك لابن الفضل » واشارت اليه ان يأخذها

وكان الصباح قد لاح وهم لا يشعرون فتقدم ابن الفضل الى الفتاة وهو يحسبها

لانت فاذا هي تنوح وتبكي وتصيح « لا لا لا اذهب اقتلوني في مكاني ... آه يا بهزاد اين انت اوآه هذه عاقبة الصبر ؟ »

الفصل السبعون

قضي الامر

وخرج ابن الفضل في اثناء ذلك ينادي العيارين ليقبضوا عليها ويحملوها نهراً فسمع الخدم يقولون « اتى رئيس المنجمين » فاراد ان يراه ويخاطبه لعله يقنعها بالحسنى فقيل له « انه عند السيدة زبيدة » وكانت قدانفردت في القاعة الكبرى واخذت تفكر في ما احاط بها وما يهددها وقلبها خائف على ابنها . فدخلت القهرمانة واخبرتها بقدوم رئيس المنجمين فقالت « ادعيه اليّ »

وكان سلمان وبهزاد قد وصلا القصر منذ هنيهة والمدينة قد سلمت واهل قصر المنصور لا يعلمون . فلما اتيا ذلك القصر وجدا في ساحته جماعة من العيارين فلم يبال سلمان بذلك فتقدم الى الباب فرآه موصداً وسمع ضوضاء من الداخل فقرعه فلم يجبه احد فبالغ في القرع فاطل عليه خادم من كوة فوق الباب وقال « من الطارق ؟ »

فرفع سلمان بصره فراى غلاماً عرفه فصاح به « افتح حالاً »

فعرف الغلام انه رئيس المنجمين فاسرع وفتح الباب فدخل يبغلته ودخل بهزاد في اثره الى فناء القصر وترجلا وسلما الدابتين الى الغلام فرأيا اهل القصر في هرج والخدم يدخلون ويخرجون من باب القصر الداخلي . فقال رئيس المنجمين للغلام « اين القهرمانة ؟ »

قال « هي بين يدي مولاتنا زبيدة »

فلما سمع ذلك تشاءم من وجودها هناك فقال « ادع لي القهرمانة الساعة قل لها رئيس المنجمين يحتاج اليك في امر هام »

فمضى ثم عاد وهو يقول « ادخل فان السيدة زبيدة تحتاج اليك »

فالتفت الى بهزاد وقال له « لا شك انها ستسألني عن ابنها وعن مكانه وربما

تسالني عنك فهل اذهب اليها وحدي ؟ »

قال « دعني اذهب معك »

فقال سلمان للغلام « قل للقهرمانة ان مع رئيس المنجمين رفيقاً لا يدخل بدونه »

فعاد وقال « ادخلا الى القاعة » فدخلا والغلام يمشي امامهما الى القاعة . فدخل اولاً سعدون وحيا ثم دخل بهزاد ولم تنتبه له زبيدة لاشتغالها بهواجسها وكانت قد تربعت ووضعت على حجرها وسادة اسندت اليها كوعيها واستلقت راسها بين كفيها . فحالما دخل سعدون رفعت رأسها وصاحت به « ويلك ؟ اين كنت وكيف اتيت في ابان الحاجة اليك ؟ » ثم اشارت اليه بالقعود فقعد وقعد بهزاد وهي لا تراه . فقال سلمان « كنت مجداً بالبحث عن بهزاد حتى وجدته »

فابرقت اسرتها وصاحت « وجدته ؟ .. اين هو ؟ »

فاشار الى بهزاد وقال « هذا هو يا سيدتي »

فدهشت واجفلت وصعد الدم الى وجهها ونظرت الى بهزاد وتفرست فيه فرأت جمالاً وجلالاً ووقاراً فلم تتمالك ان صاحت فيه « انت بهزاد ؟ »

قال « نعم انا هو »

قالت « كيف تجرأت على المجيء الينا ؟ الم تخف بطش امير المومنين »

فقال بهدو ورزانة « لم اخفه حياً فكيف اخافه ميتاً »

فذعرت واقشعر بدنها ولطمت خديها وصاحت « امير المؤمنين ؟ ابني محمد .. ماذا تقول ... تهزأ بي يانذل الرجال ؟ »

قال « كلا يا سيدتي اني اقول الحق .. ويسوءني ان اقول ذلك في حضرتك لعلمي انه يؤلمك ولكنك سالتني فلم اكذبك »

فالتفتت الى سلمان وهي تحسب نفسها في منام وقالت « سعدون .. قل الصحيح قل اين امير المؤمنين اظن الرجل يهذي ... اين ابني محمد . ولدي حبيبي اين هو ؟ .. قل »

فاجابها ببرود « رأيت راسه معلقاً على حائط البستان يا سيدتي وقد قضي الامر »

قال ذلك ونهض فلطمت زبيدة خديها بكفيها وصاحت وولولت . وسمع بهزاد في تلك اللحظة صوت ميمونة تستغيث به وتقول « آه اين انت يا بهزاد ؟ انجدني انقذني »

فوثب من القاعة ويده على خنجره وهو يقول « لبيك يا حبيبة » فراى جماعة من العيارين قد امسكوا بشعرها واخذوا يجرونها وابن الفضل واقف يقول « خذوا هذه الخائنة »

فلم يكذب بهزاد ان استل خنجره وطعن ابن الفضل طعنة قضت عليه وتحول الى العيارين وصاح فيهم « اخساؤا يا انذال قد جاءكم بهزاد » فلما سمعوا صوته وراوا ابن الفضل مجندلاً فروا هاربين — ولم تكن ميمونة تعلم بوجود بهزاد هناك ولكنها لما يئست من النجاة ورات ابن الفضل يأمر العيارين بجرّها استغاثت على غير هدى فلما رأت بهزاد ترامت عليه واغمي عليها واسرعت جدتها اليه وقالت « من اين اتيت الينا ايها الملاك ؟. اني اخاف عليك من هؤلاء الانذال »

فقال ياسيدتي لاتخافي «ان بغداد في قبضتنا ورأس الامين معلق على الحائط براه الناس»

فلما سمع اهل القصر ذلك ذعروا وفشلوا وتراكضوا الى زبيدة فراوها في القاعة وقد حلت شعرها واخذت في النحيب وهي تقول « واولداه .. قتلك البغاة الظالمون »

فسمعتها عبادة تقول ذلك فاثر قولها في نفسها فدخلت اليها ولما راتها في تلك الحال غلب عليها الحزن ورقت لحالها فاكبت على يديها تقبلها وتقول « ارفقي بنفسك يا سيدتي هذه ارادة المولى .. » وتذكرت مصيبتها بابنها فشاركتها في البكاء

وكانت زبيدة تتوقع ان تشمت عبادة بها فلما زالت مجاملتها وسمعت بكاءها خجلت ونظرت اليها نظر الانكسار والذل — ولا يذلُّ مثل الموت — وقالت « صدقت يا ام الفضل (عبادة) لايعرف قيمة الثكل الا الذي ذاقه ... اواه واولداه .. رحم الله جعفراً والرشيد ورحم الله محمداً .. مات ؟ .. مات حقيقة ؟ .. قتلوه ؟ . علقوا راسه كما علقوا راس ابيك ؟. بالله ارفقوا ببدنه الغض انه لم يتعود الشقاء ... لا طاقة له بحرّ الشمس ... كيف علقتموه .. انه لم يتعود غير الرفاه والنوم على الحرير ... حرام عليكم .. انه شاب في مقتبل العمر ..... الم يكن الاولى ان اقتل انا و يبقى هو حياً ... انزلوه وعلقوني مكانه ... صدقت يا ام الفضل اني لم اصغ لتضرعك لاني لم اكن قد ذقت الثكل .. » واخذت في البكاء والنحيب وقدحلت شعرها وطفقت تلطم وجهها وهي تخطر في القاعة ذهاباً وايباً على غير هدىً حتى لم يبق احد هناك الابكى . ثم اشتغل كل بنفسه

اما بهزاد فلم يكن همه الا ميمونة فاحتملها من بين الغوغاء وخفف عنها وهي تحسب نفسها في منام . تنظر الى بهزاد ولا تصدق انها تراه وقد جاءها في ابان الحاجة اليه فانقذها من القتل . وبينما هي تمشي بالدار متكئة على ذراعه انتبهت الى جثة ابن الفضل ملقاة على الارض فقالت لبهزاد « اني آسفة لمقتل هذا الشاب فقد كان حسن الظن بي ولا يريد بي الا خيراً ولكنه كلفني ان احبه وقلبي لا يحب غير بهزاد حبيبي .. »

فقال بهراد « ولكنني رايته ينتهرك ويهددك فلم اطق صبراً فقتلته ... مالنا وللناس قد قضي الامر هلمي بنا ... سلمان .. هيا بنا »

فجاء سلمان فتناول عبادة واخذ بهزاد ميمونة وخرجوا فركبوا دوابهم وانصرفوا وتركوا اهل قصر المنصور في مأتمهم

الفصل الحادي والسبعون

الموت الهني

وبمقتل الامين انتهى الخصام بين الاخوين ودخلت بغداد في حوزة المامون واصبحت الخلافة له . ولكنه بقي في خراسان واناب عنه في بغداد وغيرهـا مما فتحه طاهر الحسن بن سهل اخا الفضل وكتب الى طاهر بتسليم ذلك اليه

اما بهزاد فلم يبق لهُ شغل في بغداد واصبح بعد ان تمّ مهمتهُ راغباً في الرجوع الى والدته بمرو ليبشرها بالفتح ويخبرها بحبه ميمونة لتباركه وتزوجه بها وفي اصيل اليوم الذي خرج فيه من القصر ركب هو وميمونة وعبادة وسلمان يريدون خراسان . وميمونة لا تصدق انها مع حبيبها ولا ترتوي من النظر اليهِ وقد تجدد شوقها لمعرفة حقيقة حالهِ وما هو نسبه وما غرضهُ وما كان يحمله في ذلك الصندوق من الاسرار . وهمت ان تسألهُ في اثناء الطريق فمنعها الحياء ووجود جدتها . على انها علمت النفس بمعرفة ذلك عند وصولها الى خراسان

وكانت فاطمة والدة بهزاد وسائر اهل خراسان ينتظرون خاتمة هذه المساعي بفارغ الصبر وقد قضوا في ذلك منذ توفي الرشيد بطوس الى ان قتل الامين ببغداد نحو خمس سنوات والفضل بن سهل وزيراً للمأمون في خراسان يشير عليه ويدبر شؤونهُ وقد سماه المامون ذا الرئاستين

فلما جاءهم البريد بمقتل الامين وتسليم بغداد فرحوا واستبشروا . ثم ارسل طاهر برأس الامين الى المامون ومعه البردة والقضيب والخاتم فوصل ذلك الى الفضل فادخله للمامون على ترس فلما رآه سجد . وقد تمكن الفضل مما اراده من تمهيد الامور لارجاع سلطة الفرس بظل الشيعة اذ بايع المامون لعلي الرضا زعيم حزب الشيعة بالخلافة بعده وامر الناس بترك لباس السواد شعار العباسيين والاستعاضة عنه بلباس الخضرة . فكان لذلك وقع سيء

لدى العباسيين في بغداد وكاتبوا المامون يعاتبونهُ ويهددونهُ . ولكن كتبهم كان يتناولها الفضل بن سهل ولا يطلع المامون عليها لفرط دالته ونفوذ كلمته

وصل بهزاد الى مرو وقد نال مايرجوه من ثمار سعيه ومحبوبته معهُ . اما سلمان فقد قام بما عليهِ ولكنهُ لم ينل جزاءهُ بعد . فلما وصل بهزاد الى مرو استاذن سلمان بالذهاب الى بيتهِ مع عروسه فقال سلمان « لا تنسَ انك فرغت من مهمتك وانا لا ازال اتوقع النتيجة »

فقال بهزاد « ستكون رئيساً لجماعة الخرمية وقد اوصيت لك بذلك من قبل . ألا يقنعك هذا الجزاء ؟ »

قال « كلا . . . وانما ارجو شيئاً آخر هو أهم عندي من الرئاسة فكن ساعدي فيهِ كما كنت ساعدك في مثله »

قال « لم افهم مرادك »

قال « الم اكن نصيرك في الحصول على ميمونة فانا اطلب الزواج ببوران بنت الحسن بن سهل واذا شاء عمها الفضل فالامر هين واظنني اهلاً لها بعد ماتيتهُ من المعجزات في نصرة هذه الدعوة »

فاطرق بهزاد واعمل فكرتهُ في هذا الطلب فلم يجدهُ بعيد المنال وتذكر ما دار بينهُ وبين الفضل بشأن بوران قبل عوده الى بغداد فرأى في تزويجها بسلمان فضاً للمشكل فقال « غداً ننظر في ذلك ولكنني اطلب منك خدمة هي خاتمة افضالك عليَّ »

قال « وما هي ؟ »

قال « اني احتاج الى رأس الامين . . هل تحتال في استخراجه لي من مدفنه سرًّا كما استخرجنا راس جعفر وراس ابي مسلم ؟ »

فادرك سلمان غرضه فقال « ذلك هين عليَّ فانظرني الى الغد فآتيك بالراس الى منزلك » وافترقا

وسار بهزاد توًّا الى بيت والدته فاطمة ومعهُ عبادة وميمونة وهو يخاف ان تكون والدته قد داهمها الموت في اثناء غيابه فقرع الباب ووقف وهو مصيخ بسمعهِ فلم يجبه احد فخفق قلبه فقرع ثانية فسمع وقع اقدام في الداخل . ثم فُتح الباب واطل الخادم الذي فتحهُ لهُ في المرة الماضية وآنس في وجهه تغيرًا وانقباضاً فابتدره قائلاً « كيف ماما ؟ »

فرحب بهِ وقال « هي في خير . . . ولكنها تشكو ضعفاً من شدة شوقها اليك »

فاسرع اليها بعدان اوصى الخادم ان يدخل الضيفتين الى غرفة ترتاحان فيها ودخل على

والدته فوجدها ملقاة على سريرها وقد غارت عيناها وبرزت وجنتاها و بان فيها الهرم المتناهي فوقف بازائها وحيّاها بصوت ضعيف وهو يخشى ان تكون ماتت

فلما سمعت صوته افاقت وفتحت عينيها وادارت رأسها ببطء لشدة الضعف وتبسمت تبسماً لا رونق فيهِ . فجثا بجانب سريرها وأكب على يدها وقبلها فأشارت اليه ان يدنو منها فقبلت جبينه ونظرت اليه نظرة مستفهم فقال « قد جئتك يا سيدتي بما تريدين فغلبنا القوم الظالمين وقتلنا خليفتهم الغلام الغر واصبح ابن اختنا المامون خليفة المسلمين وغداً يكون الخليفة علي الرضا صاحب امر الشيعة ثم تعود الدولة لنا . فها اني انتقمت لجدّي بخنجره كما امرتِ » ومدّ يده فاستخرج الخنجر وأراها اثر الدم على نصالهِ وقال « وانتقمت لجعفر بن يحيى »

فبان السرور في وجهها وتنهدت تنهد مرتاح وتجلدت وقالت بصوت منقطع « بورك فيك يا بني ... لقد نزعت العار عن قومك .. وجبرت قلب والدتك » ثم تنهدت وتململت وهي تتجلد وتغالب الضعف وقالت « اين الرأس الثالث ؟ »

قال « يكون هنا في صباح الغد وتدفن الرؤوس الثلاثة معاً حسب الوعد »

فرفعت يديها نحو السماء كانها تدعو له ثم لمست وجهه لتباركه فأحس ببرودتها وجفافها كأن اصابعها من حديد بارد واومأت اليهِ فانحنى عليها فقبلته ثانية وهمست في اذنه بصوت لا يكاد يتميز « ادفنها معي غداً »

فنظر الى وجهها الشاحب الضئيل فرأى في عينيها دمعتين تحاولان الانحدار ولا تجدان مخرجاً من المقلتين لشدة غورها وهي مستلقية فتحقق قرب اجلها فابتدرها قائلاً « لقد باركتني يا اماه فاتوسل اليك ان تباركي فتاة ستكون شريكة حياتي كما كانت شريكتي في المصائب » والتفت فاشار الى الخادم ان ينادي الامراتين

فلما سمعت طلبه استفهمته بعينيها لان الضعف ربط لسانها فاستمهلها بالاشارة

وكانت ميمونة لما سمعت بهزاد يسال الخادم عن امه ساعة وصولهم قد علمت انها في منزله واصبحت شديدة الميل الى معرفة نسبه فلما جاءت لمشاهدة امه ذعرت لما رأته فيها من الضعف والشيخوخة وبان ذلك عليها وادرك بهزاد ذعرها فابتدرها قائلاً « طالما احببت ان تعرفي نسبي فاعلمي ان هذه الراقدة امي وهي بنت ابي مسلم صاحب الدعوة مؤسس الدولة العباسية الذي قتل غدراً كما قتل ابوك . وليس في خراسان من يعلم اني حفيد ذلك البطل الاّ هذا الخادم وامي والناس يحسبونني ربيبها لاني ولدت بعد وفاة والدي

وادعت هي اني ربيبها ووقفتني على الانتقام لابيها وسمتني كيفر . وقد آن لي ان اخبرك عما في ذلك الصندوق فاعلمي انه يحوي راسين عزيزين هما راس جدي وراس ابيك »

فلما سمعت ميمونة ذلك اجفلت وتغير لونها فشغلها عن الدهشة بتمام الحديث فقال « وقد حفظتهما في ذلك الصندوق هنا حتى اتيت براس الامين وهو ثالثهما وسيؤتى به الينا غداً و يدفن الثلاثة معاً فا كون قد وفيت نذر والدتي وزدت على ذلك اني اتيتها بابنة جعفر حبيبنا . . »

فقالت « انت اذاً حفيد ابي مسلم ؟ »

قال « نعم وانت بنت جعفر وقد قدر لنا الانتقام من اعدائنا »

وكانت فاطمة في اثناء ذلك مستغرقة في النوم لشدة ضعفها فلما فرغ بهزاد من حديثه امسك ميمونة بيدها وادناها من سرير والدته وهو يقول « هذه ميمونة بنت جعفر بن يحيى قتيل الرشيد قد اسعدني الحظ بلقياها واحببتها واحبتني وقاست العذاب معي وقد فرجنا معاً وهي ستكون زوجتي فباركيها »

فرفعت يدها واشارت اليها ان تدنو منها فدنت فقبلتها ومسحت وجهها بكفها وتمتمت واشارت الى ثوبها الاسود وشفعت ذلك باشارة النعي ففهمت انها تأمرها بنزع الحداد فاشارت مطيعة . ثم استقدم عبادة وكانت بجانبه وقال لها « وهذه ام الفضل والدة جعفر الا تعرفينها ؟ »

فتفرّست فيها مع شخوص بصرها وجموده وتكلفت الابتسام كانها تقول « عرفتها » فقالت عبادة « نعم اني اعرفك منذ صباي » وانحنت عليها وقبلتها فلمستها فاطمة بشفتيها كالتقبيل وقد اخذ منها الضعف مأخذاً عظيماً واحست بضيق صدرها وسرعة تنفسها فعلم القوم انها في حالة النزع ولكنها ما زالت مبتسمة ابتسام الفوز حتى فاضت روحها وهم ينظرون اليها وهي تفتح عينيها تارة بعد أخرى . فلما أرسلت نفسها الاخير بكوا عليها . وفي اليوم التالي جاء سليمان بالرأس فاضافوه الى الرأسين الآخرين ودفنوها جميعاً مع فاطمة كما أوصت

الفصل الثاني والسبعون

الخائن لا صديق له

وبعد ايام عقد لبهزاد على ميمونة ثم بعث الى سلمان فولاه رئاسة الحرمية فذكره سلمان بوعده التوسط لدى الفضل فاشار مطيعاً وفي اليوم التالي ركبا الى بيت الفضل بن سهل

وكان الفضل قد بلغ اوج سعده بما توفق اليه من استقلال المأمون بالخلافة والوصاية بها بعده لعلي الرضا فاصبح الفضل الآمر الناهي تجري ارادته حتى على المأمون فلما انبأه الحاجب ان بهزاد وسلمان بالباب امر بادخالهما وكان مجلسه غاصاً باصحاب الحاجات وفيهم الوجهاء والقواد الا اخاه الحسن لانه سار الى بغداد كما تقدم

فلما دخل بهزاد رحب به الفضل ودعاه للجلوس الى جانبه على السرير واشار الى سلمان فجلس على كرسي بين الخاصة فلم يؤذه ذلك فاخذ الفضل يسأل بهزاد عن سفره وماشاهده فاخبره انه قادم من بغداد بعد ان شهد سقوطها فقال له « كنت فيها يوم مقتل الامين ؟ »

قال « نعم كنت مع صديقي سلمان وشاهدنا رأس الامين منصوباً على حائط البستان »

فضحك ضحك الظافر وقال « على الباغي تدور الدوائر »

ثم اشتغل في قضاء مصالح الناس وسكت بهزاد ريثما يفرغ المجلس ولم يتم ذلك الا بعد اذان الظهر فانصرف الناس ولم يبق غير بهزاد وسلمان والفضل

فنظر بهزاد الى الفضل وقال « يسرني ان اخبرك بما أتاه صديقي سلمان من المعجزات في اثناء هذه الوقائع فانه كان من اكبر العاملين في تتميم رغائب ذي الرئاستين بعقله وسيفه »

فابتسم الفضل وقال « سنكافئه بولاية عمل من الاعمال الهامة ... ام هو مثلك لا يحب المناصب ؟ »

فضحك بهزاد وقال « اذا قلدته عملاً فقد اسبغت عليه نعمك ولكنني احب ان ينال حظوة أخرى في عينيك يتشرف بها بين الاقران »

فقال « وما ذلك ؟ »

قال « ان تزوجه بابنة أخيك »

فوجم الفضل ثم قال « واي بنات اخي تعني ؟ »

قال « بوران »

فتراجع وتغير وجهه وهز رأسه وقال « هو يطلب ذلك ؟ »

قال « بل انا اطلبهُ لهُ اذا شئت فانهُ من خيرة الرجال »

قال « يعز عليَّ رد طلبك يا بهزاد فان بوران مخطوبة »

فظن بهزاد لاول وهلة انه يعني خطبتها لهُ فاراد الاستفهام فسبقهُ سلمان الى الكلام وقال « لمن ؟ »

فنظر الفضل اليهِ وقد امتعض من اعتراضهِ وقال « مخطوبة لاعظم رجل في الاسلام اليوم ... »

فادرك سلمان انه يعني المامون وتحقق ذهاب العروس من يده فانقبضت نفسهُ وهاج غضبهُ وقال « يظهر ان ذا الرئاستين نسي وعدهُ »

قال « اي وعدٍ ؟ »

قال « الم نتواعد على شيء »

قال وفي صوته جفاء وانتهار « متى تواعدنا ؟ »

قال « هل اقول ذلك الآن ؟ »

قال « قل ما تشاء »

قال « تواعدنا عليه لما خلعتَ المجوسية واعتنقتَ الاسلام رغبة في المناصب وتواطأنا على السعي في هذا السبيل وانت يومئذ لاتملك شيئاً وكانت بوران طفلة . اما الآن فقد تغيرت الاحوال واصبحتَ ذا الرئاستين وصاحب الامر والنهي فاذكر اننا تعاقدنا على ذلك واني قمت بما علي فهلاَّ قمت بما عليك ؟ »

فظهر الغضب في وجه الفضل لما يتخلل كلام سلمان من التعريض والتلميح وقال « لا اذكر شيئاً من ذلك ... ولكن ما رأيك هل نرفض خطيبها الحالي ونزفها اليك؟ وفي كل حال فالامر في ذلك لوالدها وهو غائب »

فوقع قولهُ في قلب سلمان وقوع السهم وامتقع لونهُ ورقص شارباه في وجهه وتحفز للنهوض فادرك بهزاد تغيره فوقع في حيرة واراد ان يستأنف الكلام فرأى الفضل يتناول مذبّته و يتزحزح من مجلسه فعلم انهُ يطلب الانصراف فوقف بهزاد وسلمان وانصرفا بعد ان حياهما الفضل تحية باردة

فلما خرجا اراد بهزاد ان يخفف من غضب سلمان فلم يمهلهُ ان يقول كلمة وهمَّ بوداعهِ فقال بهزاد « لاتغضب يا اخي لعل للرجل عذرًا مقبولاً »

فقال وفي صوته جشّة من الغضب « لاعذر لهُ ولكنهُ دنيء الاصل لا يعرف قيمة الرجال وسأُريه عاقبة أمرهِ » ومشى مهرولاً

وظل بهزاد واقفاً حتى توارى سلمان عنهُ وهو يحسب لهذا التهديد الف حساب لعلمهِ ان صاحبهُ ذو كيد ومكر لايثنيه عن الاذى ضمير أو عهدٌ ولا هو يراعي ذمة ولا جوارًا

اما سلمان فسار توًّا الى قصر المامون وطلب الخلوة بهِ فاذن لهُ بها فلما اختليا قال سلمان « اني من موالي امير المؤمنين و يسرُّني ان ما بذلناه في سبيل نصرتهِ لم يذهب عبثاً فمنَّ الله علينا ببقائه ونيلهِ الخلافة وهو حقيق بها »

فتوقع المامون من وراء ذلك خبرًا جديدًا ولم يكن مغفلاً فاغتنم هذه الفرصة وقال « اني شاكر لاخوالي الخراسانيين فانهم اصحاب الفضل بما نلتهُ »

فتظاهر سلمان بالتردد حيناً وهو يبلع ريقه و يتحنح فقال لهُ المامون « قل ما بدالك ولا تخف »

قال « انا اعلم اني معرض حياتي للخطر بما سأقولهُ ولكنني اقولهُ رغبة في حفظ حياة امير المؤمنين ودوام دولتهِ وارجو ان يبقى قولي سرًّا عن كل انسانٍ »

فاهتم المأمون وقال « اتوصيني بحفظ السر وقد قامت دولتنا بهِ ؟ قل مريعاً ... لاتخف »

قال « ان وزيرك الفضل بن سهل يوهمك انهُ ردَّ السلطة اليك وهو يريدها لنفسهِ »

فخاف المامون « ان يكون الرجل آتيًا بدسيسة من الفضل فقال » ان مثل الفضل اهل للتمتع بنفوذ الكلمة بعد الذي بذلهُ في سبيلي »

قال « أرى مولاي يحاذر ان يظهر ما يجول في خاطره وهو مخيرٌ بذلك ولكنني اقول ان الفضل انما اراد السلطة لنفسه ليس لمجرد النفوذ ولكنهُ يسعى في نقل الخلافة من العباسيين الى العلويين لترجع الى الفرس ولذلك اشترط البيعة لعلي الرضا بعد امير المؤمنين »

فانتبه المامون لمساعي الفضل من هذا القبيل وان لم يكن غافلاً عنها من قبل ولعله اضطر اليها رغبة في التغلب على اخيهِ فقال « ولكنني بايعت علي الرضا باختياري لاني لم اجد في بني العباس من هو اهل للخلافة »

قال « وهل تضمن ان يكون بنو علي اهلاً لها .. وهب انك فعلت ذلك مختارًا فهل تضمن ان يصبر الفضل في نقلها حتى يستوفي امير المؤمنين حظهُ منها ... اعذرني اذا رأيتني اخاطبك بحرية وانا واثق من بقاء ذلك سرًّا بيني و بين امير المؤمنين ولا اطلب اليه الاَّ الحذر من هذا الرجل على حياته ثم على دولتهِ واذا حسب قولي تطفلاً فاني استميح منهُ العذر »

فاطرق المامون وقد جال في فكره خواطر كثيرة وحدثته نفسه بامور سكت عنها واكتفى بقوله « وما الحيلة ؟ »

فاستبشر سلمان بهذا السؤال وقال « اذا عهد امير المؤمنين ذلك اليّ فاني انقذه منه بجرعة عسل او شربة ماء »

فاعظم المامون جسارة هذا الرجل وقال في نفسه « ان وجود مثل هذا الغادر خطر على اعدائه واصدقائه .. لانه بعد ان بذل نفسه في خدمة الفضل اصبح يسعى في قتله فلا بد لذلك من سبب حمله على التغير ولا يبعد ان يحدث ما يغيره على سواه » لكنه رأى فيه عوناً على التخلص من الفضل فسكت هنيهة ثم قال « سننظر في ذلك »

واكتفى سلمان بهذا الجواب لعلمه انه لا يجيبه على اقتراحه جواباً صريحاً لاسباب يعرفها مثله

وابدى المامون اشارة الصرف فخرج سلمان من عنده ولبث المامون بعد خروجه يفكر في ما سمعه وهو يخاف ان يكون قد جاء يتجسسه من قبل الفضل ... فعزم على استطلاع رأي الفضل خلسة

وفي ذلك المساء جاء الفضل الى المامون كجاري العادة وقد انبأه جواسيسه بدخول سلمان على المامون في ذلك اليوم فظنه جاء ليوسطه في شأن بوران ولم يخطر له انه يجسر على الوشاية به في اصل مشروعه لما في ذلك من الايقاع بالفرس كافة . وتعمد المامون الخلوة بالفضل وتطرق بالاحاديث المتنوعة حتى ذكر سلمان فقال المامون « قد بلغني عن هذا الرجل اعمال اتاها في بغداد يمدح عليها »

فقال الفضل « نعم ياسيدي قد اعان حزبنا بمساعٍ اساسها المكر والخيانة وقد افادتنا ولكنه كبير المطامع كثيراً »

قال « ولا بأس من تقليده منصباً »

فابتسم الفضل وقال « عرضت عليه ذلك فرأيته طامعاً بما يقصر امثاله عن نيله ... لو علم امير المؤمنين بمطمعه لاستغربه »

قال « وما هو »

قال « انه طامع ببوران ابنة اخي ولما قلت له انها مخطوبة غضب كأنه اولى بها من امير المؤمنين » وكان المامون قد خطب بوران من ابيها سراً

فادرك المامون سر الخلاف وعلم ان الرجل لم يبح بسر الجماعة الا انتقاماً لهذا السبب ولم يفت المامون اطلاع الفضل على مجيء سلمان اليه فاحب ان يذهب خوفه من تلك الزيارة

فهز راسه احتقاراً لسلمان وسكت وترك المسالة لمجاري الطبيعة واظهر الاستغراب لما سمعه وغير الحديث فانصرف الفضل وهو مقتنع انه أوغر قلب المامون على سلمان

الفصل الثالث والسبعون

عاقبة الغدر على الغادر

ولبث المامون بعد ذلك يراقب مايبدو من الفضل ليتحقق مابلغهُ عنه حتى جاء علي الرضا ذات يوم لزيارته وهو ولي عهده على الخلافة فرحب بهِ ودار الحديث بينهما فقال علي « انما جئتك لانبئك بما يخفيهِ وزيرك الفضل عنك »

قال « وما ذاك »

قال « ان اهلك في بغداد لما علموا انك بايعتني بعدك نقموا عليك اشياء وقالوا عنك انك مسحور مجنون و بايعوا عمك ابراهيم بن المهدي مكانك وخلعوا بيعتك لاعتقادهم انها ستاول بعدك لي »

فاستغرب المأمون ذلك لانهُ لم يكن بلغهُ فقال « لم يبلغني شيء من ذلك »

قال « لان وزيرك الفضل يتناول اخبار البريد و يخفيها عنك رغبة في مصلحتهِ »

فشكر المأمون لعلي حرية ضميره وقال « اذكر ان الفضل قال لي ان اهل بغداد اقاموا ابراهيم بن المهدي اميراً عليهم لا خليفة »

قال « ان الفضل قد كذبك والحرب قائمة الآن بين الحسن بن سهل وابراهيم والناس ينقمون عليك مكانهُ ومكان اخيهِ الفضل ومكاني ومكان بيعتك لي من بعدك »

فقال المامون «ومن يعلم هذا ؟ »

فسمى لهُ رجالاً اطلعوا على ذلك فاستقدمهم المامون وسالهم بعد ان اعطاهم الامان من الفضل وكتب لهم خطه به فاخبروهُ بالبيعة لابراهيم بن المهدي وان اهل بغداد قد سموه الخليفة السني وانهم يتهمون المامون بالرفض لمكان علي منهُ (١)

فلما سمع المامون ذلك اثنى على علي فانصرف ولما خلا بنفسه اخذ يفكر في امره فصمم

(١) ابن الاثير ج ٦

على قتل الفضل ولكنهُ ما زال خائفاً من بقاء علي الرضا ولياً للعهد وانهُ اذا لم يقتل ظل موقفهُ حرجاً

وبلغ سلمان ما كان من علي وما فصَّهُ على المامون فعلم ان الطبخة قد استوت فدخل على المامون في خلوة فلمح لهُ المامون تلميحاً فهم مرادهُ منهُ وانصرف يعدُّ المكائد ويغتنم الفرص

وسافر المامون الى بغداد سنة ٢٠٢ هـ فلما وصل الى سرخس وثب قوم على الفضل في الحمام فقتلوه مغافصةً وكان ذلك بمساعي سلمان . فحاكم المأمون الذين وثبوا عليه وقتلهم . وبعد ان وصل المامون الى بغداد بقليل شاع مقتل علي الرضا باكلة عنب مسموم وتحدث الناس ان المأمون دسَّ له ذلك العنب [1] وانما دسهُ سلمان

فنجا المامون بذلك وظلت الخلافة في اهله ولكنهُ ظل خائفاً من سلمان فدسَّ اليهِ من قتلهُ خوفاً من انقلابه على المامون فمات جزاء غدره فصح فيهِ قول بهزاد « ان الغادر تعود عاقبة غدره عليه »

اما بهزاد فلم يعد يرى سلمان منذ افترقا يوم خروجهما من عند الفضل ثم بلغهُ مقتل الفضل بن سهل وعلي الرضا فاسف لضياع مساعيهِ في نقل السلطة للفرس ولكنهُ تعزى بما توفق اليهِ من الانتقام لجده وحميه وعاش مع عروسهِ في راحة والناس لا يعرفون انهُ حفيد ابي مسلم وانها ابنة جعفر البرمكي . ثم بحث عن سلمان فعلم ان المامون قتلهُ خوفاً من غدره فقال في نفسه « ذلك جزاء الخيانة وتلك عاقبة الغدر »

اما المامون فبعد ان جاء بغداد تزوج ببوران بنت الحسن بن سهل ترضية لابيها عما لحق باخيه لان سبب قتلهِ لم يخف عليهِ . ولزفاف بوران احتفال محفوظ في بطون التاريخ [2]

« تمت الرواية »

(١) ابن الاثير ج ٦ والفخري والاغاني ج ٩ وابن خلكان

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٥

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00336913

892.78
Z39ai A
c.2

Cornell University Library
BX 1749 .C5 A3 1909